صلاح منتصر



الذين غيروا القرن العشرين

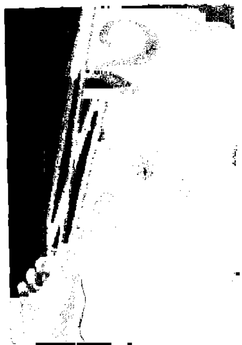
الأهرام
مركز الأهـرام
للترجمة والنشر

صلاح منتصر

الذين غيروا أقدار المصريين

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م

الناشر: مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام ـ شارع الجلاء ـ القاهرة
تليفون ٥٧٨٦٠٨٣٠ ـ فاكس ٥٧٨٦٨٣٣٠



المحتويات

□ الفصل الثانى

□ الفصل الثالث

مقدمة

هذا القرن العشرون

منذ عرف الإنسان قياس الزمن وحساب الشهور والسنين والقرون على يد المصرى القديم لم يعرف التاريخ قرنا شهدت فيه البشرية التغيرات والأحداث التى شهدتها فى مثل هذا القرن العشرين.

فهذا القرن شهد أضخم وأفظع أنواع الحروب والأسلحة الفتاكة التى لم يسبق أن عرفها الإنسان، والتى من بينها القنبلة الذرية التى لحسن الحظ لم تستخدم إلا مرة واحدة فوق مدينتين فى اليابان - هيروشيما ونجازاكى - فى أغسطس ١٩٤٥.

لقد شهد هذا القرن أبشع صور الدمار، لكنه فى الوقت نفسه شهد أعظم ما أنتجه العقل البشرى من مخترعات ووسائل لتحقيق رفاهية الإنسان وراحته..

فإنسان آخر هذا القرن أصبح يضع فى جيبه جهاز تليفون فى حجم أصغر من علبة السجاير يستطيع أن يتصل من خلاله بأى مكان فى العالم..

وإنسان هذا القرن أصبح يرى من خلال الأقمار الصناعية التى تزاحمت فى الفضاء صور الأحداث وقت وقوعها، بل إنه لأول مرة فى التاريخ شاهد على التليفزيون حرب الحلفاء ضد العراق بعد غزو الأخير للكويت..

وإنسان هذا القرن أنتج جهاز الكومبيوتر الذى يستطيع أن يقوم فى ثانية واحدة بملايين العمليات التى يحتاج الإنسان لإتمامها إلى سنوات..

وإنسان هذا القرن أصبح يجلس على شاشة صغيرة فى بيته ويقوم، وهو فى مكانه، بالتجول فى متاحف العالم ومكتباتها، والتقليب فى مختلف الصحف التى تصدر فى العالم الواسع، وشراء بعض احتياجاته من كثير من المحال والشركات دون أن يغادر بيته..

لقد توافرت وسائل العلاج لأمراض كثيرة كانت تقضى على الإنسان من قبل.. ونتيجة لذلك زاد متوسط عمر الإنسان فى مصر من ٣٥ سنة، فى بداية القرن، إلى ٦٢ سنة فى نهايته، بينما وصل فى دول أخرى إلى أكثر من ٧٠ سنة.

◆ ◆ ◆

لقد كان من الممكن وصف القرن الثامن عشر بأنه قرن الآلة البخارية التى اخترعها جيمس وات فى عام ١٧٨٠، وجعلت الإنسان يستخدم الآلة لأول مرة بعد أن كان يعتمد على يديه..

وكان القرن التاسع عشر هو قرن الكهرباء التى أضاء بها إديسون أول مصباح فى عام ١٨٧٠.

أما هذا القرن العشرون فمن الصعب أن نجد له مسمى يصبح عنوانا له..

فهذا القرن كان قرن الذرة وقرن الترانزيستور وقرن الفضاء الذى تجاوز فيه الإنسان حدود كوكبه ووصل إلى القمر وسار فوق سطحه..

وهذا القرن العشرون هو قرن العلم والمعرفة، والشركات العملاقة المتعددة الجنسيات التى تنتشر فى كل أنحاء العالم، وفروعها بمئات الآلاف فى مختلف الدول والمدن والقرى.

وهذا القرن العشرون هو قرن التنظيمات الدولية غير المسبوقة (عصبة الأمم أولا بعد الحرب العالمية الأولى، والأمم المتحدة ثانيا بعد الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥) وآلاف المنظمات الدولية الأخرى التى وصل تعدادها إلى أكثر من ٣٠٠٠ منظمة.

وهذا القرن العشرون هو أيضا قرن التحالفات والقضايا الكبيرة التى جمعت

لعالم فى مؤتمرات كبيرة ضخمة لمناقشتها: البيئة والأرض والسكان والمخدرات والإرهاب..

◆◆◆

وهذا القرن العشرون شهد صعود قوى وهبوطها.. شهد فقد الإمبراطورية البريطانية سيطرتها، وشهد صعود الإمبراطورية السوفيتية وهبوطها بعد ذلك .. وبعد أن ظل هذا القرن محكوما بواسطة قوتين عظميين أصبح تحكمه قوة وحيدة أمريكية، يبدو أنها تنفرد بتوجيه مقدراته وحضارته.

وفى هذا القرن العشرين استقلت دول كثيرة كانت محتلة، وبعد أن كان عدد هذه الدول فى منتصف القرن فى حدود ٥٠ دولة فإن عددها فى نهاية القرن تجاوز ٢٠٠ دولة (كان عدد دول عصبة الأمم عند تكوينها عام ١٩١٩ فى حدود ٣٢ دولة، أما الأمم المتحدة فإن عدد دولها نحو ١٩٠ دولة)..

وفى هذا القرن العشرين وصل تطور التكنولوجيا إلى حد لم يصل إليه من قبل .. وبينما كان عدد المعلومات التكنولوجية حتى نهاية السبعينيات من القرن يتضاعف كل عشر سنوات، فإن عدد هذه المعلومات أصبح يتضاعف كل ١٨ شهرا.. وعدد العلماء الذين يعيشون اليوم يبلغون ثلاثة أرباع مجموع عدد العلماء الذين عاشوا على الأرض منذ بداية التاريخ البشرى..

◆◆◆

وعلى الجانب العربى كان القرن العشرون قرنا مميزا عن كل القرون ..

لقد بدأ القرن ومعظم الدول العربية إما محتلة أو تسيطر عليها بريطانيا وفرنسا، ولكنها أصبحت جميعا مستقلة.. وبدأ هذا القرن وعدد كبير من هذه الدول فقيرة لكنها بسبب ظهور البترول فى أراضيها انتقلت إلى قائمة الدول الغنية، لكن هذا البترول فى الوقت نفسه جذب اهتمام القوى الكبرى الطامعة فيه، وأغراها على دعم زرع إسرائيل فى المنطقة ودعمها؛ لتكون رأس جسر لها تمنع من خلاله وحدة دول المنطقة وقوتها.. وكانت النكبة الثانية ـ بسبب البترول أيضا ـ قيام العراق باكتساح الكويت، مما كان من نتيجته تلك التداعيات الخطيرة التى بدأ الخليج والعالم العربى يعيشانها منذ التسعينيات من هذا القرن..

◆◆◆

وفى مصر كان الاحتلال الإسرائيلى وثورة يوليو ١٩٥٢ والحروب مع إسرائيل، ثم اتفاقية السلام معها من أهم العناصر التى لعبت دورها فى تغيير الأحداث فيها..

لقد كان قرننا حافلا بالأحداث والصراعات والحروب، ومثل كثير من دول العالم تأثرت مصر بالتغيرات التى حدثت على مستوى العالم، خاصة أنها عاشت معارك هذا العالم مؤيدة ومقاومة..

◆ ◆ ◆

من هم الذين غيروا القرن العشرين؟

هذا هو السؤال الذى يحاول هذا الكتاب الإجابة عنه من خلال فصول ثلاثة :

□ الفصل الأول : يتناول بسرعة واختصار اهم الأحداث التى أثرت فى هذا القرن.

□ الفصل الثانى : يلقى الأضواء على الشخصيات التى كان لها تأثيرها فى التغيير.

□ الفصل الثالث : عن أهم المخترعات التى شهدها القرن..

إنها محاولة لتقديم بانوراما عن قرن عاشه جيلى بحلاوته ومرارته، بأفراحه وأحزانه.. إنها شهادة على قرن أرجو أن تكون مفيدة للذين عاشوه والذين ستستمر بهم الحياة ليشهدوا أحداث القرن الـ ٢١، ويرصدوا ويدرسوا ويقارنوا.

صلاح منتصر



الفصل الأول

القرن العشرون
أهم الأحداث

□ اتفاقية سايكس ـ بيكو : ١٩١٦

اتفاقية سرية نسبت إلى موقِّعيها: البريطانى مارك سايكس والفرنسى جورج بيكو، وقد تم توقيعها سرا فى القاهرة فى ١٦ مايو ١٩١٦ بغرض تقسيم دول الشرق الأوسط ـ التى كانت فى ذلك الوقت ولايات تابعة للإمبراطورية العثمانية ، التى دخلت دور الاحتضار ـ تقسيم هذه الولايات بين النفوذين البريطانى والفرنسى.. وقد بقى أمر هذه الاتفاقية سرا حتى عام ١٩١٧ حين قامت الثورة الروسية واستولى الثوار الشيوعيون على وثائق وزارة الخارجية لروسيا القيصرية.. وكانت موسكو ـ باعتبارها حليفة لكل من بريطانيا وفرنسا فى ذلك الوقت ـ قد تم إبلاغها من قبل سايكس وبيكو، اللذين زارا موسكو فى مارس ١٩١٦، بالاتفاقية التى وقعاها، وقدما إلى سيرجى زازنوف، وزير الخارجية الروسى آنذاك صورة منها وقد باركت روسيا هذه الاتفاقية مقابل موافقة فرنسا وبريطانيا على استيلاء روسيا على البحر الأسود وعدد من المناطق فى آسيا الصغرى . وبعد الثورة الشيوعية أراد الشيوعيون فضح بريطانيا وفرنسا لدى ألمانيا فسلماها صورة من هذه الاتفاقية

وقد لعبت تلك الاتفاقية دورا مهما فى الشرق الأوسط خلال القرن العشرين، إذ التزمت بها كل من بريطانيا وفرنسا، وكان من بين آثارها المهمة وقوع فلسطين فى منطقة النفوذ البريطانى بما سمح بتنفيذ تخطيطها لإنشاء دولة إسرائيل

□ الثورة الروسية ١٩١٧

فتحت الهزائم المتلاحقة التى لحقت بالجيوش الروسية القيصرية أمام اليابانيين عام ١٩٠٥ أبواب التذمر والغضب والثورة أمام مختلف فئات الشعب، من الفلاحين والعمال والمثقفين وصغار الضباط والجنود فى القوات المسلحة والأقليات القومية والدينية المهضومة.. وقد نجحت حركة الشيوعيين بقيادة لينين فى استغلال ذلك كله وتحريض العمال على الثورة والإضراب، ورغم فشلهم فى عام ١٩٠٥ فإنهم لم يستسلموا واستمروا فى هجومهم وتحديهم للقيصر، وتمكنوا فى مارس ١٩١٧ من الاستيلاء على العاصمة موسكو، وأجبروا القيصر على التنازل عن العرش (١٥مارس) لأخيه، ولكن عمال الثورة أصروا على إعلان الجمهورية واستخدام القوة فى تحقيق أهدافهم. وفى نوفمبر ١٩١٧ نجح البلاشفة (الشيوعيون) فى الاستيلاء على مرافق الدولة، وأعلن لينين المرسوم الخاص بإلغاء الملكية ونهاية روسيا القيصرية وبداية روسيا الشيوعية، التى أصبحت أول دولة فى التاريخ تنجح فيها حركة ثورية شيوعية فى الاستيلاء على الحكم

□ وعد بلفور : ١٩١٧

هو خطاب وجهه وزير الخارجية البريطانى اللورد آرثر بلفور، بتاريخ ٢ نوفمبر ١٩١٧، إلى زعيم اليهود الإنجليز وراعى المنظمة الصهيونية اللورد «جيمس روتشيلد»، وفيه يعلن الوزير البريطانى تعاطف حكومته مع الأمانى اليهودية فى إنشاء «وطن قومى» لهم فى فلسطين. وكان نص الرسالة ·

وزارة الخارجية ـ ٢ نوفمبر ١٩١٧

عزيزى *اللورد* روتشيلد

إنه من دواعى سرورى الكبير أن أنقل إليكم باسم حكومة صاحب الجلالة الإعلان التالى عن التعاطف مع الأمانى اليهودية والصهيونية، والذى تم عرضه وإقراره بواسطة مجلس الوزراء، ونصه كما يلى : إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بالعطف إلى إنشاء وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين. وسوف تبذل قصارى جهدها لتسهيل تحقيق هذا الهدف. ومن المفهوم أن هذا الإعلان لا يمثل تحيزا ضد الحقوق المدنية والدينية لطوائف غير يهودية موجودة فى فلسطين. كما أنه لا يؤثر على الأوضاع القانونية أو السياسية التى يتمتع بها اليهود فى البلاد الأخرى، وسأكون شاكرا لكم إذا تفضلتم وأبلغتم هذا الإعلان لعلم الاتحاد الصهيونى».

المخلص آرثر بلفور

وبرغم التفسيرات المختلفة لصدور هذا الوعد فإن موعده بعد اتفاقية سايكس ـ بيكو كان يتفق تماما مع نوايا بريطانيا فى زعزعة وحدة المنطقة العربية، واتجاهها إلى زرع دولة استيطانية وسط العالم العربى تستنزف القوى العربية، وتحقق لبريطانيا حماية مصالحها الاستعمارية، سواء فى قناة السويس أو طريقها إلى الهند ولما كان هذا الدور متفقا مع تحقيق الصهيونية أحلامها، فقد قبلت أن تلعب هذا الدور.. ومع أن الحكومة البريطانية سبق لها أن قدمت وعودا أخرى فى مجال علاقاتها السياسية، ومنها عدد من الوعود التى قدمتها لدول وحكام من العرب، فإنها لم تحترم وعدا من تلك الوعود بقدر حرصها واحترامها لتحقيق وعد بلفور، الذى كان من نتيجته دولة إسرائيل.

□ الحرب العالمية الأولى : ١٩١٤ ـ ١٩١٨

الحرب العظمى أو ما عرفت فيما بعد باسم الحرب العالمية الأولى تمييزا لها عن الحرب العالمية الثانية التى اندلعت بين عامى ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥. وهذه الحرب العظمى أو العالمية الأولى

تركزت بصورة أساسية فى أوروبا حتى بدا أن كل أوروبا شريكة فيها، لكنها بدأت أول ما بدأت بين جبهتين كبيرتين ضمت إحداهما: ألمانيا والنمسا والمجر وتركيا، وضمت الثانية بصورة رئيسية فرنسا وبريطانيا وروسيا، ثم انضمت إليها الولايات المتحدة.

وقد بدأت الحرب بسبب صراعات خفية بين هذه الدول أساسها قومية واستعمارية، إلا أنها لم تعلن بصورة رسمية إلا بعد أن اغتيل ولى عهد النمسا الأرشيدوق فردناند على يد أحد أبناء صربيا خلال زيارة ولى العهد لمدينة سراييفو فى ٢٨ يونيو ١٩١٤. وقد انتهزتها النمسا فرصة لتحويل هذا النزاع السياسى إلى نزاع مسلح، فأعلنت الحرب على الصرب فى ٢٨ يوليو - بعد شهر من حادث الاغتيال - وبعد ثلاثة أيام فى أول أغسطس أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا وانضمت إليها تركيا، فى الوقت الذى أعلنت فيه بلغاريا الحرب على الصرب، وكان من نتيجة ذلك أن أعلنت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا الحرب على بلغاريا، كما أعلنت إيطاليا الحرب على النمسا فى مايو ١٩١٥، وفى أبريل ١٩١٧ أعلنت الولايات المتحدة الحرب على ألمانيا.

وقد انسحبت روسيا من هذه الحرب بعد انتصار ثورتها الشيوعية فى نوفمبر ١٩١٧، بينما استمرت على الجبهات الأخرى إلى أن انتهت بإعلان تركيا والنمسا والمجر وبلغاريا الاستسلام، وتوقيعها الهدنة فى ١١ نوفمبر ١٩١٨، وفى ٢٨ يونيو ١٩١٩ تم التوصل إلى معاهدة «فرساى» التى قصد بها المنتصرون إذلال ألمانيا وتحجيم قوتها، ولكن هذه المعاهدة جاءت بنتيجة عكسية، فقد كانت من أسباب محاولة هتلر إعادة بناء قوة ألمانيا (انظر التفاصيل فى قصة هتلر).

بلغ عدد الذين اشتركوا فى هذه الحرب العالمية الأولى ٦٥ مليون رجل وامرأة، قدر عدد الذين قتلوا منهم بنحو ١٠ ملايين بينما أصيب ضعف هذا الرقم، فى الوقت الذى انتهت فيه هذه الحرب إلى اختفاء الإمبراطوريات العثمانية والألمانية، والنمساوية - المجرية.

□ الحرب العالمية الثانية : ١٩٣٩ - ١٩٤٥

على عكس الحرب العالمية الأولى امتدت معارك هذه الحرب فشملت أوروبا وشمال إفريقيا وآسيا والمحيط الهادى .. وقد شهدت تطورا فى أنواع السلاح وفى الأفكار والمخترعات، التى أحدثت فيما بعد ثورة فى حياة البشر، عندما تم استخدام نظريات هذه الأسلحة فى الحياة المدنية، وكان من بين ما شهدته هذه الحرب إلقاء أول قنبلتين ذريتين فى التاريخ - الأولى على هيروشيما فى اليابان يوم ٦ أغسطس ١٩٤٥، والثانية على مدينة نجازاكى اليابانية أيضا يوم ٩ أغسطس - مما كان من نتيجته استسلام اليابان التى اشتركت فى هذه الحرب فى محور ضم

بصورة أساسية ألمانيا وإيطاليا، بينما على الجانب الآخر كانت هناك جبهة الحلفاء المكونة بصورة رئيسية من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي. وقد بدأت هذه الحرب يوم أول سبتمبر ١٩٣٩ عندما أعلنت ألمانيا ـ بقيادة هتلر الذى أعاد بناء قوتها ـ الحرب ضد بولندا.. وتتالت بعد ذلك الأحداث حتى شملت كل أوروبا وشملت إفريقيا، بينما انفردت اليابان بشن غزواتها على دول شمال شرق آسيا ومهاجمة الأسطول الأمريكى فى بيرل هاربور فى هاواى، (٧ ديسمبر ١٩٤١) مما كان من نتيجته دخول الولايات المتحدة الحرب إلى جانب الحلفاء وتوصلها إلى القنبلة الذرية.

وفى ٧ مايو ١٩٤٥، بعد أيام من انتحار هتلر، استسلمت ألمانيا، وبعد ذلك فى ١٤ أغسطس من نفس العام ـ عقب استخدام الولايات المتحدة للقنابل الذرية ـ استسلمت اليابان.

لقد كان الثمن رهيبا ويقدر عدد الذين قتلوا فى هذه الحرب بما يتراوح بين ٣٥ و ٦٠ مليونا إلى جانب الدمار الذى شمل كل أوروبا واليابان

□ إنشاء الأمم المتحدة : ١٩٤٥

عقب ويلات الدمار التى شهدتها الدول فى الحرب العالمية الثانية وقعت هذه الدول ميثاقا بإنشاء منظمة عرفت باسم «الأمم المتحدة» تقول السطور الأولى من ديباجتها : *نحن شعوب الأمم المتحدة، وقد آلينا على أنفسنا أن ننقذ الأجيال المقبلة من ويلات الحرب التى فى خلال جيل واحد جلبت على الإنسانية مرتين أحزانا يعجز عنها الوصف ـ وأن نؤكد من جديد إيماننا بالحقوق الأساسية للإنسان، وبكرامة الفرد وقدره، وبما للرجال والنساء والأمم ـ كبيرها وصغيرها ـ من حقوق متساوية.*

ويتضح من ذلك أن هدف المنظمة هو تفادى تكرار مأساة الحرب، ومن ثم أقيمت هذه المنظمة التى بدأت بـ ٥٠ دولة وقعت ميثاقها فى ٢٦ يونيو ١٩٤٥، وأخذ أعضاؤها يزدادون حتى وصلوا إلى أكثر من ١٨٥ دولة.

وحتى تكون للمنظمة الدولية آليتها التنفيذية فى حفظ السلام العالمى تم إنشاء مجلس الأمن، الذى يضم ١٥ عضوا من بينهم خمسة أعضاء دائمين، منحوا امتياز حق الفيتو على أى قرار يصدره المجلس، بحيث لا يصبح هذا القرار ساريا إذا اعترض عليه أحد هؤلاء الأعضاء، وهم : الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وروسيا والصين. أما الأعضاء العشرة الآخرون فى المجلس فيتم اختيارهم من بين أعضاء الجمعية العامة للأمم المتحدة بالتناوب.

كانت عصبة الأمم أول منظمة دولية عرفها العالم بالمعنى العلمى، وقد دعا إليها الحلفاء الذين تحالفوا لمحاربة ألمانيا، ولكن لم تعش هذه المنظمة سوى سنوات قليلة وذلك لوجود الأسباب العديدة التى صاحبت مولد هذه المنظمة وأدت إلى انهيارها. فقد بدأت عصبة الأمم من منطلق هدفين أساسيين : الأول أنها منظمة أوروبية ولهذا كان أعضاؤها الأساسيون من أوروبا. ورغم اشتراك الولايات المتحدة فى الأعمال التحضيرية لهذه المنظمة إلا أنها لم تنضم إليها بدعوى الخوف من تدخل أوروبا فى السياسة الأمريكية، وهكذا ظلت عصبة الأمم ينظر إليها كمنظمة خاصة بالأساس لدول أوروبا.. أما المنطلق الثانى لعصبة الأمم فهو الرغبة فى تقليم أظافر ألمانيا، والشروط القاسية التى فرضت عليها بعد هزيمتها فى هذه الحرب العالمية الأولى، وكان من بينها نزع سلاح ألمانيا، وإلغاء التجنيد العام فيها، وقصر عدد أفراد جيشها بما لا يتجاوز ١٠٠ ألف جندى، ومنع امتلاكها سلاحا جويا أو غواصات أو مدفعية ثقيلة، وتخريب مصانع الذخيرة الموجودة.

هذه الشروط كان طبيعيا أن تنقضها ألمانيا عام ١٩٣١، ثم نشوب الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩، وقد أدت هذه الحرب إلى أن تموت عصبة الأمم بالسكتة القلبية بعد أن كانت الظروف قد أدخلت هذه العصبة فى مرحلة من المرض الذى لم يكن غريبا موتها بعده.

◆ ◆ ◆

فى ٢٤ اكتوبر ١٩٤٥ ولدت الأمم المتحدة ومازالت موجودة حتى اليوم .. ورغم ما كشفته تجربتها من عيوب إلا أن العالم مازال متمسكا بها ويحاول الإبقاء عليهاوإصلاح ما فيها من ثغرات إن أمكن..

لقد عالجت الأمم المتحدة العيب الذى تضمنته عصبة الأمم التى ولدت أوروبية فعملت الأمم المتحدة على أن تكون منظمة دولية تضم كل الدول الراغبة فى عضويتها، وهو ما تحقق بالفعل.. فبينما كان عدد أعضاء عصبة الأمم أقل من ٤٠ دولة فإن عدد أعضاء الأمم المتحدة تجاوز الـ١٨٠ دولة. وقد كان ذلك نتيجة مبدأ المساواة بين الأعضاء الذى رفعته الأمم المتحدة، واستقلال عدد كبير من الدول التى لم تكن مستقلة فى فترة عصبة الأمم، وشعور كل دولة بحاجتها الماسة إلى العالم للمساهمة فى حل مشكلاته، وهو ما نراه فى صندوق النقد الدولى والبنك الدولى وصندوق رعاية الطفولة وصندوق النشاطات السكانية وصندوق التنمية الزراعية، وكلها من بين فروع وأجهزة الأمم المتحدة.

فالأمم المتحدة أنشئت لتكون عالمية تضم كل الدول، ولأن هدفها هو تجنب اشتعال حرب عالمية قادمة، خصوصا أنها سوف تكون حربا مدمرة لكل العالم بصورة غير مسبوقة، لذلك أخذت

المنظمة فى ميثاقها المكون من ١١١ مادة ولأول مرة بمبدأ الأمن الجماعى بشقيه، الوقائى والعلاجى. فهى تحرم استخدام القوة أو التهديد باستخدامها، وتنظر إلى العدوان الواقع على إحدى الدول كعدوان على الجماعة الدولية كلها، تملك حق اتخاذ سلسلة من الإجراءات الجماعية ضد المعتدى.

وبينما كانت قرارات عصبة الأمم تشترط لصدورها إجماع الدول الأعضاء، فإن الأمم المتحدة أخذت بقاعدة الأغلبية، ولكن لا يعنى هذا أن الأمم المتحدة هيئة فوق الدول وإنما هى هيئة بين الدول تعمل على زيادة التعاون بين هذه الدول..

لكن ذلك لا يمنع اختصاص الدول الخمس الكبرى (الولايات المتحدة ـ الاتحاد السوفيتى (حاليا روسيا) ـ بريطانيا ـ فرنسا ـ الصين) بامتيازات، خاصة نتيجة أنها تمثل الدول التى انتصرت فى الحرب العالمية الثانية.. ذلك أن تنظيم الأمم المتحدة وضع على أساس تشكيلها من : الجمعية العمومية التى تضم كل الأعضاء ـ مجلس الأمن ـ المجلس الاقتصادى والاجتماعى الذى يختص بالرقى الاجتماعى للدول الأعضاء ورفع مستوى الحياة ـ مجلس الوصاية الذى يتولى الإشراف على الأقاليم التى لا تتمتع بالحكم الذاتى والتى وضعت تحت إشراف هيئة الأمم ـ محكمة العدل الدولية التى تهدف إلى حل المنازعات الدولية بالوسائل السلمية وفقا لمبادىء العدل والقانون الدولى.

وبينما تعقد الجمعية العمومية اجتماعا عاديا يبدأ يوم الثلاثاء الثالث من شهر سبتمبر كل عام ولمدة نحو شهرين ولا تدعى بعد ذلك إلا فى حالات عاجلة، فإن مجلس الأمن يعتبر المكتب التنفيذى الدائم للمنظمة.. وهذا المجلس يضم ١٥ عضوا فقط، منهم خمسة بصفة دائمة يمثلون الدول المنتصرة فى الحرب (أمريكا ـ روسيا ـ بريطانيا ـ فرنسا ـ الصين) إلى جانب عشر دول تنتخب لمدة سنتين ولا يجوز إعادة انتخابها مرة ثانية قبل مرور سنة حتى يتم تمكين كل الدول من العضوية، ومنع الانتهاء إلى وضع يكون فيه مجموعة أخرى من الدول دائمة العضوية عن طريق الانتخاب إلى جانب الدول الخمس الدائمة

وهذه الدول الخمس لا يقتصر امتيازها على العضوية الدائمة وإنما على ضرورة أن تعترض وتمارس حق الفيتو على ما يصدره المجلس من قرارات، علما بأن قرارات مجلس الأمن تعتبر ملزمة. ونتيجة لهذا الوضع أصبح فى إمكان هذه الدول الدائمة الاعتراض على أى قرار حتى ولو وافق عليه العالم.. ولم تعان منطقة من فشل هذا الوضع كما عانت منطقة الشرق الأوسط نتيجة موقف الانحياز والمؤيد الذى تتخذه الولايات المتحدة من إسرائيل

وقد كانت إسرائيل أصلا أول دولة فى تاريخ العالم تنشأ بقرار دولى أصدرته الأمم المتحدة فى نوفمبر ١٩٤٧، وهى سابقة لم تتكرر وبالتالى فقد لعبت الأمم المتحدة دورا مؤثرا فى تغيير هذا القرن الذى ولدت فيه أولا بقرارها الخاص بإنشاء إسرائيل وثانيا بموقف الحماية الكامل الذى أسبغته الولايات المتحدة على إسرائيل من خلال حق الفيتو لما يعرض على مجلس الأمن من قرارات.

ونتيجة لهذا الامتياز الخاص بالدول الخمس الدائمة فلقد راجت فى السنوات الأخيرة رغبة فى تعديل الميثاق بما يسمح بزيادة عدد الدول التى تملك حق الفيتو، وإن كان الاعتراض على ذلك بأن هذه الزيادة ستزيد فى الوقت نفسه من مشاكل العالم على أساس أن كل عضو جديد سيحصل على هذا الحق سيراعى أولا مصالحه وبالتالى ستزداد مواقف الفيتو..

ولكن هل يعنى ذلك أن الأمم المتحدة لم تستطع أن تقوم بأى دور خلال نصف القرن الذى مضى؟

لقد حفرت هذه المنظمة أخدودا فى هذا القرن بقرارها إنشاء دولة إسرائيل، الذى يعتبر من أهم الأحداث التى شاهدها العالم خلال هذا القرن.. فبسبب إسرائيل شهدت منطقة الشرق الأوسط سلسلة من الحروب ومن العمليات الفدائية التى اختلطت مع الإرهاب بسبب اليأس الذى أصاب الفلسطينيين من تحيز أمريكا لإسرائيل ومساندتها لها على حساب الحق العربى.. فكانت عمليات خطف الطائرات وتبادل الاغتيالات وأعمال العنف والتدمير.. وكلها أعمال عكست آثارها على العالم..

وفى مرحلة أخرى لعبت الأمم المتحدة دورا لم يسبق أن لعبته عندما ارتكب صدام حسين خطأه الفادح وقام بغزو الكويت، وأعلن فى إصرار ضمها إلى العراق باعتبارها المحافظة رقم ١٩ من محافظاته.

وقد استطاعت الولايات المتحدة ـ خوفا على مصالح الغرب البترولية فى المنطقة ـ استغلال فرصة الخطأ الفادح الذى ارتكبه صدام ـ وجندت مجموعة كبيرة من دول العالم ضده، وقامت بإعداد جيش كبير حصل على موافقة العالم من خلال مجلس الأمن بضرب العراق، وتم بالفعل تحرير الكويت من الاحتلال العراقى، ولكن بقى الشعب العراقى حتى اليوم يدفع ثمن الجريمة التى ارتكبها صدام..

ورغم ما وجه إلى الأمم المتحدة من انتقادات فقد قامت بدور فى عدد من الأزمات الإقليمية، كان أولها أزمة المجر التى اكتسحت فيها القوات السوفيتية دولة المجر لسحق تمرد على

الشيوعية. وعندما أراد مجلس الأمن إصدار قرار يدعو الاتحاد السوفيتى إلى سحب قواته استخدمت موسكو حق الفيتو ومنعت صدور القرار فكان أن التفت الولايات المتحدة حول مجلس الأمن ودعت الجمعية العمومية للأمم المتحدة إلى دورة عاجلة أصدرت فيها (١٩٥٦/١١/٤) قرارا يطلب من الاتحاد السوفيتى احترام سيادة المجر، وعدم التدخل فى شئونها وسحب قواتها المسلحة منها.

وفى نفس الشهر (نوفمبر ١٩٥٦) ـ ونتيجة لاستخدام بريطانيا وفرنسا حق الفيتو لتعطيل إصدار قرار ضدهما بسبب العدوان السافر ضد مصر ـ دعت يوجوسلافيا إلى عقد دورة عاجلة للجمعية العامة أصدرت فيها (١١/٢) قرارها بوقف العمليات الحربية وتشكيل قوة طوارىء دولية من عدة دول لوقف هذه العمليات وكانت هذه أول مرة تلجأ فيها الأمم المتحدة إلى تشكيل هذه القوة التى ظلت فى مصر كقوة عازلة بين مصر وإسرائيل إلى أن طلبت مصر فى ١٨ مايو ١٩٦٧ سحبها من أراضيها، واستجاب الأمين العام للأمم المتحدة لهذا الطلب رغم اعتراض بعض الدول الغربية مما كان من نتيجته اشتعال حرب ١٩٦٧ التى احتلت فيها إسرائيل الجولان والضفة الغربية وسيناء وحررت مصر سيناء، ومازالت سوريا والفلسطينيون يكافحون لتحرير أراضيهم.

وهكذا، رغم العديد من الأدوار التى لعبتها الأمم المتحدة فى مناطق مختلفة فى العالم، إلا أن دورها فى الشرق الأوسط الذى بدأ بإعطاء إسرائيل قرار مولدها، كان أخطر الأدوار التى جعلتها بحق صاحبة دور مؤثر فى الشرق الأوسط، خصوصا إذا أضفنا إلى ذلك دورها فى حرب الخليج. وفى مسيرة نصف قرن قطعتها الأمم المتحدة فقد كان واضحا أن الكبار استخدموها لتحقيق منافعهم ومصالحهم، ورغم ذلك فقد تمسك بها الصغار!.

□ استخدام القنبلة الذرية : أغسطس ١٩٤٥

منذ توصل العلماء إلى المواد المتفجرة جرت محاولاتهم لاكتشاف طاقة مدمرة أقوى وأقوى من كل ما عرفوه، وهو ما حققته الولايات المتحدة بالتوصل إلى القنبلة الذرية، واستخدامها لأول مرة فى ٦ أغسطس ١٩٤٥ ضد اليابان. ويعادل قوة الرطل من المادة المستخدمة فى هذه القنبلة الأولى ٢٠ ألف طن من أقوى المواد المتفجرة المعروفة. وقد دمرت هذه القنبلة التى ألقيت فوق مدينة هيروشيما اليابانية ما مساحته ٣٠٠٠ فدان، وقتلت ١٠٠ ألف شخص، وأصيب أضعاف هذا العدد بأمراض وعاهات مختلفة. وفى ٩ أغسطس ١٩٤٥ ألقيت قنبلة أمريكية ثانية على ميناء ناجازاكى فى اليابان فقتلت ٤٠ ألفا.

وتعتمد هذه القنبلة الذرية على الطاقة المنطلقة من تحويل جزء من المادة نتيجة تحطيم النواة الذرية إلى بعض العناصر كاليورانيوم. وقد كان من نتيجة استخدام هذه القنبلة الذرية استسلام

اليابان فى الحرب العالمية الثانية. ومن حسن الحظ أنه لم يتم استخدام هذه القنابل الذرية أو التى تم تطويرها إلى ما هو أشد فى أى نزاع أو حرب حتى اليوم

□ إنشاء الجامعة العربية : ١٩٤٥

أول كيان فى تاريخ العرب يضم الدول العربية. وقد بدأت بعد توقيع ميثاقها فى ٢٢ مارس ١٩٤٥، وذلك «تثبيتا للعلاقات الوثيقة والروابط العديدة التى تربط بين الدول العربية، وحرصا على دعم هذه الروابط وتوطيدها على أساس احترام استقلال تلك الدول وسيادتها، وتوجيهها لجهودها إلى ما فيه خير البلاد العربية قاطبة، وصلاح أحوالها وتأمين مستقبلها وتحقيق أمانيها وآمالها، واستجابة للرأى العربى العام فى جميع الأقطار العربية»

وقد ضمت الجامعة العربية، في البداية، سبع دول هى التى وقعت على ميثاقها وهى : مصر والعراق وسوريا وشرق الأردن (المملكة الأردنية فيما بعد) والسعودية ولبنان واليمن، ثم انضمت إليها الدول العربية تباعا: السودان، وليبيا، وتونس، والجزائر، والمغرب، والكويت، والبحرين، وعمان، وقطر، ودولة الإمارات، وموريتانيا، والصومال، وجيبوتى، وجزر القمر، وفلسطين.

ويقضى ميثاق الجامعة بأن *«تكون مدينة القاهرة المقر الدائم للجامعة، وأن تقوم بتوثيق الصلات بين الدول المشتركة فيها، وتنسيق خططها السياسية تحقيقا للتعاون بينها وذلك بالعمل على المحافظة على السلام والأمن العربى، وصيانة استقلال الدول الأعضاء، والتعاون فى الشئون الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والصحية، والنظر فى مصالح المجتمع العربى بصفة خاصة».*

□ قيام إسرائيل : ١٩٤٨

بسبب إسرائيل تغير تاريخ الشرق الأوسط فى القرن العشرين، بل وتغير أيضا تاريخ العالم.. لقد اشتعلت الحروب.. واستخدمت مصر السلاح السوفيتى الذى فتح الباب للاتحاد السوفيتى لدخول المنطقة بسبب إسرائيل .. لقد أنفقت دول المواجهة آلاف الملايين ثمنا للسلاح، وضاع من عمر العرب سنوات طويلة بسبب إسرائيل، وتشرد شعب كان له وطنه وبيته وعاش فى الملاجىء بسبب إسرائيل.. لقد شهد العالم حوادث مختلفة من العنف .. خطف طائرات وسفن وانفجارات وقتل ودمار.. بسبب إسرائيل ـ ولنا أن نتخيل ماذا كان يمكن أن نصل إليه اليوم من تقدم لو لم تكن هناك إسرائيل..

من الغريب أن تتفق كل الدول الكبرى، ابتداء من فرنسا نابليون إلى بريطانيا ثم الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، على إقامة دولة يهودية فى الوطن الفلسطيني، وأن تسعى إلى تنفيذ ذلك بالتآمر مرة وبالقوة مرة، وبالضغوط مرة.

كانت البداية عندما غزا نابليون مصر آملا فى أن تكون انطلاقته بعد ذلك لغزو العالم، وقد اتجه إلى فلسطين، ولكنه فشل فى التوسع شرقا إذ استعصت عليه عكا وصمدت أمام حصاره، فانكفأ عائدا إلى فرنسا وترك الجيش والحكم فى مصر فى عهدة كليبر .. لكنه خلال ذلك ـ وهذا هو الغريب ـ وجه نداء إلى يهود العالم يدعوهم فيه إلى الحضور إلى فلسطين لتحقيق حلمهم فى إقامة دولة يهودية فى الأراضى الفلسطينية

كان اليهود فى ذلك الوقت موزعين بين أوروبا وشمال افريقيا، وقد أدرك نابليون مبكرا أن هذه المنطقة العربية يمكن أن تشكل قوة كبرى تجمعها وحدة اللغة والدين والظروف المتقاربة، ولهذا برزت لديه فكرة ضرورة إنشاء جسم غريب فى هذه المنطقة يعطل دولها ويمتص جهودهم ويمنع وحدتهم .. وهداه تفكيره إلى اليهود، الذين كان الموجود منهم فى فلسطين فى ذلك الوقت ١٨٠٠، منهم ١٣٥ على وجه التحديد يقيمون فى مدينة القدس..

كان ذلك فى نهاية القرن الثامن عشر، وقبل أن ينتهى القرن التاسع عشر برز اسم صحفى يهودى، هو تيودور هرتزل، الذى أسس حركة أخذت اسم «الصهيونية» بهدف إنشاء دولة يهودية.. وراح هرتزل يحرض كبار الشخصيات اليهودية على عقد مؤتمر يبحثون فيه طريق تنفيذ هذه الدولة

وبالفعل نجح هرتزل فى عقد المؤتمر الصهيونى الأول فى مدينة بازل السويسرية عام ١٨٩٧ وكان المعروض على المؤتمر إقامة الدولة اليهودية فى الأرجنتين أو قبرص أو العريش أو أوغندا أو فلسطين، ولكن نظرا لارتباط اليهود دينيا وعاطفيا بالمكان الذى أقيم فيه أول معبد لهم (يسمونه هيكل) قرر المؤتمر السعى لإقامة هذه الدولة فى فلسطين، وتحديد برنامج تعمل فى إطاره الحركة الصهيونية، التى أعلن عن إنشائها فى المؤتمر لتتابع إنشاء الدولة.

كان من أهم برامج الحركة تشجيع هجرة اليهود وتوطينهم فى فلسطين، وتوحيد اليهودية العالمية، و السعى لدى الدول الكبرى للحصول على تأييدها ودعمها فى إنشاء الدولة اليهودية.

◆ ◆ ◆

لم يكن نابليون وحده الذى رأى ضرورة غرس كيان غريب فى الوطن العربى، فبعد نابليون جاء لورد بالمرستون، الذى بدأ وزيرا لحربية بلاده بريطانيا فى العام ١٨٠٩ إلى ١٨٢٨، ثم وزيرا

لخارجيتها فى الفترة من ١٨٣٠ إلى ١٨٤١، وقد قاد بالمرستون سياسة بريطانية معادية لدولة محمد على وابنه ابراهيم باشا، إذ رأى فى قيام دولة عصرية موحدة تضم وادى النيل والجزيرة العربية والمشرق العربى، ما يهدد مستقبل المصالح الاقتصادية والسياسية والعسكرية البريطانية وقد سعى بالمرستون للتوسط لدى سلطان استانبول، الذى كانت مصر تتبعه فى ذلك الوقت، لإقامة دولة يهودية عازلة بين مصر والمشرق العربى فى فلسطين، وذلك قبل ٥٠ عاما من انعقاد المؤتمر الصهيونى الأول، الذى دعا إليه تيودور هيرتزل والذى عقد فى بازل عام ١٨٩٧، بل إن دعوة بالمرستون كانت حتى قبل ولادة هيرتزل نفسه.

وهكذا، بعد نابليون فرنسا، جاءت بريطانيا، التى استطاعت مع فرنسا استغلال حالة الضعف الذى وصلت إليه الدولة العثمانية، واقتسمتا دول المنطقة، ووقعت فلسطين تحت الانتداب البريطانى مما هيأ لساستها أن ينفذوا مؤامرتهم على الأمة العربية بغزو الكيان اليهودى فى قلب أمتهم..

لقد ظهر بعد ذلك بلفور، وزير خارجية بريطانيا، الذى خطا خطوة أوسع عندما وجه خطابا إلى المليونير اليهودى روتشيلد، يعلن فيه تعاطف بريطانيا مع الأمانى اليهودية فى إقامة وطنهم فى فلسطين، وكان ذلك فى نوفمبر عام ١٩١٧..

لم تكن الدول العربية فى ذلك الوقت ـ وهذه حقيقة يجب إقرارها ـ تملك القوة التى تستطيع بها مواجهة هذه المؤامرة، خصوصا أن التى تقوم بها هى بريطانيا التى كانت تحتل معظم الدول العربية، وتوجه سياستها، ولهذا لم يكن غريبا أن تمضى المؤامرة بدون مقاومة قوية، اللهم إلا بعض المظاهرات التى كانت تعكس الغضب العربى، ولكن بدون أن يملك هذا الغضب درعا وسلاحا يقضى به على المؤامرة..

فى الوقت نفسه ركزت الصهيونية العالمية جهدها لاستغلال كل فرصة لكسب تأييد الرأى العام، ودفع اليهود للهجرة إلى فلسطين، وتمويلهم لشراء ما يستطيعون امتلاكه من الأراضى الفلسطينية... وبالطبع كانت بريطانيا التى تسيطر على فلسطين تسهل لهم المهمة..

وهكذا مع نهاية الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٤٥ بدا أن المؤامرة قد نضجت تماما وأصبح فى الإمكان إخراجها إلى النور وكسوها بكساء شرعى عن طريق استصدار قرار من الجمعية العامة للأمم المتحدة يقضى بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود..

وتحقق ذلك بالفعل فأصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة فى نوفمبر ١٩٤٧ القرار ١٨١، الذى يقضى بالتقسيم ووضع خاص للقدس يجعلها خارج هذا التقسيم، وتتولى هيئة دولية الإشراف عليها...

كانت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى قد أصبحتا القوتين العظميين فى ذلك الوقت، وقد أعطيا تأييدهما لإنشاء الوطن اليهودى.. وكانت فلسطين مازالت تحت الانتداب البريطانى، الذى أعلن أنه سيرحل اعتبارا من مساء ١٤ مايو ١٩٤٨، تاركا للعرب واليهود تدبير أمورهم فى ضوء قرار التقسيم...

وكان اليهود قد أعلنوا فورا قبولهم قرار التقسيم، أما العرب فعلى العكس رفضوه وقرروا الدخول فى حرب مع اليهود بهدف طردهم وتحرير الأرض الفلسطينية..

كانت الصورة تبدو فى ذلك الوقت فى صالح العرب، الذين يبلغ عددهم أضعاف اليهود فى إسرائيل، ولكن ثبت فيما بعد أن هذه القوة العربية العددية كانت تفتقد التنظيم والتسليح، وأن اليهود الأقل عددا استطاعوا أن يحشدوا قوة عسكرية تفوق ما دفعت به كل الدول العربية إلى الحرب..

وكانت الصدمة فى هزيمة العرب لفشلهم فى اجتياز الحدود التى رسمها التقسيم لدولة إسرائيل، بل إن الإسرائيليين نجحوا فى أن يضيفوا إلى دولتهم مساحات أكبر وأوسع..

ورغم توقف القتال فإن الحلم العربى بتحرير كل فلسطين ظل فى داخل ملايين العرب، ولكن دون أن ينجحوا فى وضع البرنامج الذى يحققون به هدفهم، وبنفس النجاح الذى حقق به اليهود هدفهم منذ مؤتمر بازل.. وعلى مدى السنوات أصبحت الورقة الفلسطينية الجائزة التى تتطلع إلى الحصول عليها كل دولة لفرض سيطرتها على المنطقة..

وقد شعر الفلسطينيون بذلك فانفرط عقدهم وخرجت عديد الجماعات التى استغلت التناقضات العربية واستغلتها أيضا هذه التناقضات!.

ثم كانت النكبة فيما حدث فى يونيو ١٩٦٧ واحتلال إسرائيل لسيناء والجولان وكل الضفة الغربية والقدس..

لقد تغيرت منذ ذلك الوقت شعارات القضية..

لم يعد الهدف تحرير كل فلسطين من اليهود..

ولم تعد إسرائيل هى «المزعومة» كما كان العرب يلقبونها..

ولم يعد أحد يتحدث عن طرد إسرائيل من المنطقة . بل أصبح الهدف بعد يونيو ١٩٦٧ هو فقط استرجاع ما احتله اليهود، والقبول بالتعايش معهم رغم أن ما احتلوه ـ حتى لو أعادوه ـ يقل عن المساحات التى أعطاها قرار التقسيم ١٨١ للعرب ولكن العرب كانوا قد رفضوا قرار التقسيم دون أن يصنعوا منه خط رجعة يعودون إليه

وبالتالى مات القرار وجاء قرار ٢٤٢ الذى صدر فى نوفمبر ١٩٦٧ ـ بعد ٢٠ عاما ـ ليسجل موته.. فقد نص القرار ٢٤٢ على إنهاء حالة الحرب بين الطرفين العرب وإسرائيل بإعادة إسرائيل «أراضٍ» احتلتها فى يونيو ١٩٦٧، واعتراف العرب بحقهم فى الوجود وتأمين هذا الوجود عن طريق مناطق عازلة والسماح لهم بالمرور فى جميع الممرات المائية..

لقد ثارت مصر من هزيمتها فى ١٩٦٧ عندما فاجأت إسرائيل والعالم فى أكتوبر ١٩٧٣ بالعبور العظيم الذى حققته، والذى كان من نتيجته تطور الأوضاع التى سمحت لأنور السادات بأن يذهب إلى القدس فى سابقة فريدة، فقد ذهب إلى العدو وجزء من أرضه مازال محتلا بقوات هذا العدو.. ولكن السادات أدرك أن كل شىء فى قضية إسرائيل لم يكن من البداية عاديا حتى يمكن الاعتماد على الحلول والوسائل العادية.

كان غير العادى أن تفكر الدول الكبرى فى إنشاء وطن يهودى داخل الأمة العربية..

وكان غير العادى أن تصدر الأمم المتحدة قرارها بإنشاء دولة إسرائيل، فهذه أول مرة فى التاريخ تولد فيها دولة بقرار.. وكان غير العادى أن تدعم كل القوى الكبرى إسرائيل لتمكنها من العرب وتهزمهم فى ساعات وتحتل ثلاث دول فى أيام !

كانت حكاية إسرائيل فى فصولها تبدو غير عادية وغير مسبوقة ولهذا صعب حلها..

واستطاعت مصر ـ على حساب قطيعة عربية ـ أن تستعيد كل سيناء من إسرائيل.. وبعد سنوات طويلة استنزفت جهد الأمة العربية، واختفاء الاتحاد السوفيتى من موقع القوى العظمى، وانفجار الأولاد الفلسطينيين الذين فاجأوا العالم وإسرائيل بتأكيد هويتهم الفلسطينية.. بعد سنوات طويلة من الصراع استغرقت القرن كله، وتغيرت أحداث المنطقة بسببه، كما عكس هذا التغيير ملامحه على العالم أيضا وصل الأمر إلى ما وصل إليه باتفاق أوسلوا الذى اعترفت فيه إسرائيل بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلا للشعب الفلسطينى، واعترف فيه الفلسطينيون بالوجود الإسرائيلى.

ولكن ذلك لم يكن سوى بداية طريق طويل آخر.. مازالت أحداثه تتدافع وتثير المفاجآت..

وأيا ما كان الأمر فإن الذى لاشك فيه أن طرفى الصراع قد فشلا فى تحقيق كل ما كان كل منهما يتطلع إليه . فشل الإسرائيليون فى القضاء على الفلسطينيين ودفن الهوية الفلسطينية.. وفشل العرب فى القضاء على اليهود فى إسرائيل وتحرير كل الأرض الفلسطينية.. وإن كان الحلم قد أصبح متواضعا عند حدود استرجاع كل ما يمكن الحصول عليه من هذه الأراضى التى احتلتها إسرائيل فى الضفة، ليرتفع عليها علم فلسطين .

ترى لو لم يكن كل هذا الصراع قد حدث طوال ذلك القرن العشرين هل كنا سنكون فى نفس الحال؟!

لقد خرجت من رحم الحرب الفلسطينية : الثورات العسكرية التى شهدتها سوريا منذ عام ١٩٤٩، بعد حرب ١٩٤٨ وثورة يوليو ١٩٥٢ فى مصر، وثورة العراق فى عام ١٩٦١ .

وتغير التاريخ فى المنطقة . تاريخ كل عربى.. بسبب إسرائيل.

□ مشروع مارشال : ١٩٤٨

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية قررت الولايات المتحدة تقديم المساعدات المادية لإعادة بناء اقتصادات دول أوروبا الغربية التى دمرتها الحرب، وخوفا من انتشار المد الشيوعى إليها فكان المشروع الذى نسب إلى جورج مارشال، وزير خارجية أمريكا بعد الحرب، وأطلق عليه «مشروع مارشال» الذى نال عنه جائزة نوبل للسلام عام ١٩٥٣ . ويقوم هذا المشروع على أساس أن تقدم الولايات المتحدة مبلغا مساويا للميزانية التى تخصصها كل دولة لهدف تعمير ما دمرته الحرب فيها، وقد وصلت جملة المبالغ التى أنفقتها الولايات المتحدة فى هذا المشروع ـ من عام ١٩٤٨ حتى نهاية عام ١٩٥١ ـ نحو ١١ بليون دولار ساعدت بها، بريطانيا وفرنسا والنمسا وبلجيكا والدانمرك وأيرلندا وأيسلندا وإيطاليا ولكسمبورج وهولندا والنرويج والبرتغال والسويد وسويسرا وتركيا.

□ غزو الفضاء والوصول إلى القمر : ١٩٦١

منذ انتهت الحرب العالمية الثانية اتجه العلماء فى الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة إلى الفضاء.. كان الهدف أن تثبت كل دولة أنها الأقوى.. وفى ١٢ أبريل ١٩٦١ فاجأ الاتحاد

السوفيتى العالم بإطلاقه أول إنسان فى التاريخ إلى الفضاء.. وأصبح اسم يورى جاجارين على كل لسان، فقد شاهد العالم صورته فى سفينة الفضاء «فوستوك ١» وهو يدور حول الأرض فى رحلة استغرقت ١٠٨ دقائق..

وردا على هذا التفوق السوفيتى وعد الرئيس الأمريكى فى ذلك الوقت جون كنيدى شعبه بالوصول إلى القمر فى خلال عشر سنوات .. وبالفعل فى ٢١ يوليو ١٩٦٨ شاهد العالم رائد الفضاء الأمريكى نيل أرمسترونج وهو يضع قدمه فوق سطح القمر، وسمعوه يقول : هذه خطوة صغيرة للإنسان لكنها قفزة للبشرية.. وبعد ذلك بعامين، فى يوليو ١٩٧١، أرسل الأمريكيون رائدين آخرين هبطا فوق سطح القمر ومعهما سيارة خفيفة تعمل بالبطارية. وبعد أن أمضيا ساعتين يقودان السيارة تركاها وعادا إلى الأرض.. وبذلك أكد الإنسان قدرته على الوصول إلى القمر، وبدأت الاستعدادات للوصول إلى كوكب المريخ فى القرن الـ ٢١.

□ أزمة الصواريخ : ١٩٦٢

من أخطر الأزمات التى هددت العالم باحتمال نشوب أول حرب نووية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى، فقد وضعت القوات النووية فى البلدين فى حالة استعداد قصوى. بدأت الأزمة عندما اكتشفت طائرات الاستطلاع الأمريكية وجود قواعد للصواريخ يقوم الاتحاد السوفيتى بإقامتها فى كوبا. وفى ٢٢ أكتوبر ١٩٦٢ طلب الرئيس الأمريكى جون كنيدى إلى السوفيت سحب هذه الصواريخ فورا، وفرض حصارا بحريا على كوبا .. ولمدة خمسة أيام حبس العالم أنفاسه عندما رأى الدولتين العظميين تدخلان فى مواجهة نووية خطيرة، وكانت هذه أخطر أزمة واجهت الدولتين خلال القرن العشرين، وقد انتهت بقيام الاتحاد السوفيتى بسحب قواعد الصواريخ نظير تعهد الولايات المتحدة بعدم مهاجمتها كوبا.

□ اغتيال جون كنيدى : ١٩٦٣

فى ٢٢ نوفمبر ١٩٦٣، وفى أثناء زيارة كان يقوم بها الرئيس الأمريكى جون كنيدى لمدينة دالاس الأمريكية، وبينما هو جالس وإلى جواره زوجته جاكلين فى سيارة مكشوفة أصابته رصاصة قتل على إثرها، قبل أن يصل إلى المستشفى فى محاولة إنقاذه. وقد اتهم شاب أمريكى اسمه لى هارفى أوزوالد بارتكاب عملية الاغتيال بواسطة بندقية وجهها له من نافذة أحد المبانى،

إلا أن هذا الشاب المتهم لم يتح لأجهزة التحقيق أن تستمع إلى أقواله، ففى طريقه إلى المحقق، وعقب نزوله من السيارة التى أقلته إلى مكان التحقيق، تقدم منه شخص وأطلق عليه الرصاص وأرداه قتيلا .. وقال القاتل الجديد جاك روبى إنه فعل ذلك انتقاما لقتل الرئيس كنيدى.. وفى يناير ٦٧ مات جاك روبى دون أن يضيف جديدا إلى ما قاله أول مرة.

ورغم أن اللجنة التى تم تشكيلها لتولى التحقيق فى وقائع الجريمة قد انتهت إلى أن مقتل كنيدى قد تم على يد لى هارفى أوزوالد، وبتفكير فردى، إلا أن الغموض مازال حتى اليوم يحيط بمقتل الرئيس الأمريكى.

□ سلاح البترول العربى : ١٩٧٣

يتعلق مصير الشعوب بالحروب أو الغزوات، وأيضا بالاكتشافات لثرواتها، وهو ما حدث بالنسبة للمنطقة العربية.. فلولا اكتشاف وإنتاج البترول فى هذه المنطقة لتغير تاريخها تغيرا كاملا . لقد لعب هذا البترول دورا مؤثرا فى حياة العرب وفى حياة العالم كله واقتصاده.. فلولا البترول لما دعم الغرب وجود إسرائيل وأعطاها شهادة ميلادها، ولولا البترول الذى منح دول المنطقة مواردها المادية لظلت هذه الدول محتفظة بصور الحياة القديمة المتواضعة فيها .. ولولا البترول لما هاجر عدد كبير من المصريين للعمل فى دول الخليج، ولا اشتعلت أسعار كل السلع فى العالم عندما استخدم العرب لأول مرة سلاح البترول فى حرب ١٩٧٣ ولا هاجم صدام حسين الكويت ولا حشد الغرب قواته فى المنطقة، ليس فقط لتحرير الكويت، وإنما قبل ذلك لتحرير البترول العربى من الأخطار التى تهدد العالم لو أتيح لصدام حسين أن يحكم سيطرته على إنتاجه.. لقد بدا أن نجوما تتحرك فوق المسرح السياسى والعالمى ولكن البطل الأكبر الذى كانت تدور حوله تحركات كل هؤلاء النجوم كان هو البترول العربى.

ومن الغريب أن مصر ـ التى كانت من أواخر الدول العربية التى انتجت البترول ـ كانت أول دولة يظهر فيها هذا البترول بعد بدء إنتاجه بسنوات قليلة لأول مرة فى الولايات المتحدة.

كانت أول بئر تحفر لإنتاج البترول تلك التى حفرها وليام دريك فى ولاية بنسلفانيا فى الولايات المتحدة فى عام ١٨٥٩، ولمدة الخمس عشرة سنة التالية ظل إنتاج أمريكا من البترول يمثل أكثر من ٩٥ فى المئة من الإنتاج العالمى. ثم مع تزايد إنتاج البترول فى روسيا، وكان قد بدأ عام ١٨٦٣، انخفضت نسبة إنتاج أمريكا حتى بدأ القرن العشرون وأشرقت معه شمس البترول

فى الشرق الأوسط، فى إيران أولا عام ١٩٠٨، وبعد ذلك فى العراق عام ١٩٢٣، ثم البحرين عام ١٩٣٢، ثم السعودية والكويت عام ١٩٣٨، فقطر عام ١٩٤٠، ثم الجزائر عام ١٩٥٦، ثم ليبيا وأبوظبى عام ١٩٥٨، وأخيرا عمان ودبى.

أما مصر فقد سبقت كل هؤلاء عندما ظهر البترول فيها لأول مرة فى الربع الأخير من القرن الماضى بالمصادفة، بعد أن حصلت إحدى الشركات على امتياز للبحث عن الكبريت فى منطقة البحر الأحمر، وعثرت على رشح بترولى فى منجم أعدته فى جمصه. وعندما أرادت استغلاله ثار خلاف بين الحكومة المصرية والشركة على أساس أن عقد الشركة كان مقصورا على استغلال الكبريت دون غيره، واعترضت الشركة وأغلق المنجم وتوقف الأمر إلى عام ١٩٠٨ عندما بدأ الإنتاج من هذه البئر، ولكن تبين أن كمياتها قليلة غير تجارية، وإن كان ذلك قد لفت الأنظار إلى احتمالات البترول فى المنطقة، ولكن إنتاج مصر من هذا البترول ظل متواضعا لأسباب تتعلق بعمق طبقات البترول بالمقارنة إلى عمق حقول الدول العربية الأخرى، الأمر الذى كان من الضرورى معه الانتظار إلى أن تتطور أجهزة الحفر ووسائله، وأيضا وسائل الكشف المتطور، الأمر الذى نتج عنه بالفعل وضع مصر على خريطة الدول المنتجة للبترول. ويقدر الإنتاج حاليا بنحو مليون برميل يوميا من البترول السائل والغاز الطبيعى، الذى أصبح له استخدامات كبيرة وعديدة.

بسبب الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) تأخر استغلال بترول دول الخليج، ولهذا ما إن انتهت هذه الحرب وبدأت الحاجة إلى إعادة بناء ما دمرته هذه الحرب حتى تدافعت الشركات العملاقة، التى كانت تسيطر على إنتاج وتكرير وتسويق ونقل البترول، إلى زيادة نشاطها فى الخليج خاصة بعد زيادة الحاجة إلى منتجات البترول المختلفة وعلى رأسها البنزين ـ الوقود الوحيد فى ذلك الوقت للسيارات ـ وإلى السولار والديزل والمازوت لتشغيل آلات المصانع والقطارات ومحركات القوى وإنتاج الكهرباء. وغير ذلك كله كان العلم قد وضع يده على الباب السرى الذى تم فيه تحويل البترول إلى آلاف المنتجات البتروكيماوية . لقد ظهر الحرير الصناعى والبولى إيستر والنايلون والداكرون والبويات والبلاستيك والأصباغ ومستحضرات التجميل والمطاط الصناعى، وكل هذا وغيره من البترول.

ومنذ بدء إنتاجه فى المنطقة العربية سيطرت عليه الشركات السبع العملاقة (إسو وموبيل وكالتكس وجولف وشل والبريطانية والبترول الفرنسية)، وكانت هذه الشركات هى التى تملك وحدها تحديد حجم البترول الذى يتم إنتاجه من كل دولة، وتحديد سعر شرائه، وبذلك كانت

وحدها التى تملك تحديد دخل كل دولة من ثرواتها. وقد بقى هذا الوضع المجحف بالدول المنتجة إلى أن قامت بتكوين منظمة خاصة أطلقت عليها اسم (أوبك) كان هدفها زيادة الأسعار بما يحقق زيادة مواردها. ورغم أن هذه المنظمة (أوبك) أنشئت عام ١٩٥٩ إلا أنها لم تستطع أن تحقق أية زيادة مؤثرة إلا بعد أن عبرت القوات المصرية قناة السويس فى السادس من أكتوبر ١٩٧٣، ورفعت أعلامها خفاقة على خط بارليف الذى أقامته إسرائيل ليكون حاجزا أبديا يمنحها فصل سيناء عن مصر بما يحقق لها احتلال سيناء.

من الطبيعى أن يسأل أى باحث فى أعماق التاريخ: هل لو لم يكن البترول الذى تم اكتشافه فى هذه المنطقة العربية، وحاجة العالم الماسة إليه لصنع تقدمه، هل كان من الممكن أن توجد إسرائيل؟ إن رائحة البترول العربى التى زكمت أنوف البريطانيين والفرنسيين فى بداية هذا القرن، جعلتهم يتوقعون القيمة الكبيرة له، وضرورة السيطرة على مواقع إنتاجه، الأمر الذى أدى عام ١٩١٦ إلى اتفاقية سايكس ـ بيكو، وهى اتفاقية ظلت سرية لفترة طويلة، وقد نبعت من منطلق ضرورة إيجاد جسم غريب فى هذه المنطقة حتى تجذب أنظارها عن ثروتها.. وبعد ذلك قامت بريطانيا وفرنسا بتحديد دوائر حمراء وزرقاء، بحيث تكون الدوائر الحمراء من نصيب بريطانيا والزرقاء من نصيب فرنسا... ولكن فى الولايات المتحدة، وقد أحست شركاتها بتأثير البترول العربى على اقتصاد العالم، حرضت الحكومة الأمريكية على أن تتجه هى الأخرى إلى هذا الشرق الأوسط حتى لا تترك الأسد البريطانى يلتهم خيرها وحده مع فرنسا وحتى تتنافس بريطانيا وفرنسا كان الدعم الأمريكى القوى لإسرائيل وإصرارها على إنشائها ومنحها، ليس فقط شهادة ميلادها بل كل المعونات المادية والعسكرية والسياسية التى تمكن إسرائيل من التفوق على العرب. ونجحت الشركات البترولية التى تمثل سياسة بلادها فى منع الدول العربية من استخدام بترولها فى سلسلة الحروب التى جرت مع إسرائيل إلا مرة واحدة فى أكتوبر١٩٧٣. ففى ١٦ أكتوبر، بعد عشرة أيام من العبور المصرى إلى سيناء، عقدت الدول العربية المنتجة للبترول (السعودية والكويت والعراق وقطر وأبوظبى والبحرين ومصر وسوريا والجزائر وليبيا) اجتماعا فى الكويت قرروا فيه دفع بترولهم إلى المعركة، والبدء بتخفيض إنتاجهم من البترول (بنسبة شهرية متكررة لا تقل عن ٥٪ وذلك حتى تفرض المجموعة الدولية على إسرائيل التخلى عن الأراضى العربية المحتلة).. والذى حدث منذ أول شهر إن متوسط نسبة التخفيض وصل إلى ٢٥ فى المئة، مما كان من نتيجته حالة من الجنون سادت العالم كله.. فقد راحت الدول تتسابق على شراء البترول العربى بأى سعر .. وبعد أن كان متوسط سعر برميل البترول (البرميل =

١٥٩ لترا فى المتوسط) ١٨٠ سنتا، وكانت الدول المنتجة تحارب من أجل رفعه إلى ثلاثة دولارات فإنه ـ نتيجة لقرارات تخفيض الإنتاج وحالة الجنون التى سادت السوق ـ أن تم رفع السعر إلى ١١ ثم ١٦ ثم ٣٠ ثم إلى نحو ٤٠ دولار للبرميل الواحد..! وكان من نتيجة ذلك أن تضاعفت إيرادات دول البترول بصورة كبيرة. فبينما كان دخل دولة كالسعودية من بترولها عام ١٩٦٧ فى حدود ٨٥٠ مليون دولار، فإنها فى عام ١٩٧٤ قفز هذا الدخل إلى أكثر من ٨٥٠٠ مليون دولار..!

ولكن الذى حدث أن الدول المستهلكة، التى اشترت البترول بعشرة أضعاف السعر الذى كانت تدفعه قبل أكتوبر ١٩٧٣ قامت بزيادة أسعار منتجاتها وصادراتها وسلعها زيادة كبيرة، مما أثر على اقتصاد العالم بصورة درامية، وبدا أن زلزالا تعرض له هذا الاقتصاد. وشهد العالم، اعتبارا من بداية عام ١٩٧٤، اتجاها تصاعديا حادا فى جميع أسعار السلع والخدمات.. ولقد تأثرت مصر مع سائر الدول بهذا الزلزال تأثرا كبيرا انعكس أول ما انعكس على زيادة أسعار الشقق، فحتى نهاية عام ١٩٧٣ كان من الممكن شراء أحسن شقة على النيل بما لا يتجاوز عشرة آلاف جنيه، ولكن منذ عام ١٩٧٤ مباشرة زادت الأسعار زيادات جنونية، وصلت بالشقة التى كان ثمنها عشرة آلاف جنيه إلى نحو مليون جنيه!! وانعكس ذلك على الأسعار وعانت ملايين الأسر فى كل أنحاء العالم .. صحيح أن هناك من حققوا ثروات ضخمة، بما فى ذلك الدول المنتجة للبترول، إلا أن الأغلبية فى الدول الفقيرة ازدادت فقرا ومعاناة بتأثير زيادة أسعار البترول العربى ورد الفعل الغربى.

إلا أن هذا الغرب بدوره استطاع أن يضع تخطيطا طويل الأجل كان من نتيجته السيطرة على استهلاك البترول، وإيجاد مصادر جديدة للطاقة تحل محل البترول، والعثور على أماكن جديدة لإنتاج البترول مما كان من نتيجته استعادة الأمور إلى قبضة الدول المستهلكة بعد أن ظلت خلال السنوات من ١٩٧٤ إلى ١٩٨٦ فى قبضة الدول المصدرة.

لقد كان من نتيجة زيادة سعر البترول العربى أن زادت موارد الدول المنتجة له فى الخليج، فبدأت ـ بتشجيع من الغرب ـ تقيم عديد المشروعات التى تصرف فيها الجزء الأكبر من مواردها حتى تتحول الأموال مرة ثانية إلى الغرب.. ولقد أدى ذلك إلى الاستعانة بالعمالة الخارجية، وفى الوقت الذى عانى فيه الاقتصاد المصرى بسبب آثار زيادة الأسعار العالمية للسلع والخدمات فإن ملايين المصريين اتجهوا إلى العمل فى دول الخليج .. وكان هذا أيضا من العوامل التى أثرت فى سلوكيات الشعب المصرى وأفراده، مما يعنى أن البترول العربى ـ سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة ـ قد لعب دورا مهما فى مسيرة مصر خلال القرن العشرين.

لقد جاء بعد ذلك الحدث الخطير جدا وهو الغزو الذى قام به رئيس العراق صدام حسين للكويت فى الثانى من أغسطس ١٩٩٠، هذا الغزو كان قصده البترول الكويتى وموارده، وقد أخطأ صدام حسين الحساب عندما تصور أن الغرب سوف يتخلى عن مصالحه البترولية ويترك مصيرها فى يده، وهو ما رفضه الغرب . لقد قاد الرئيس الأمريكى - فى ذلك الوقت - جورج بوش تحالفا دوليا كبيرا، ساعده عليه فشل الدول العربية فى محاصرة المشكلة وإقناع صدام بالانسحاب من الكويت .. وعلى حساب الشعب العربى.. على حساب السعودية والكويت والإمارات تم سداد فاتورة الحرب المكلفة التى تجاوزت ٣٠٠ ألف مليون دولار، مما يعنى أنه لو تم توزيع هذا المبلغ على الـ ١٠٠ مليون عربى فى المنطقة العربية لنال كل رجل وامرأة وطفل ٣٠٠٠ دولار.. لقد حافظ الغرب على مصالحه البترولية، وأخطر من ذلك استطاع أن يؤمن لنفسه قاعدة عسكرية فى المنطقة.. وفيما بعد تحرير الكويت واجهت الدول العربية البترولية، طريقا صعبا بسبب استنزاف مدخراتها وانخفاض مواردها نتيجة انخفاض سعر البترول. ووصل هذا الانخفاض إلى نحو تسعة دولارات للبرميل.. وبقياس قيمة هذه الدولارات التسعة إلى قيمة الـ١٨٠ سنتا التى كان يباع بها البترول عام ١٩٧٣ - منذ ٢٥ عاما - يتبين أن قيمة الدولارات التسعة لا تتجاوز ١٢٥ سنتا مما كان عليه الحال قبل ٢٥ سنة.. وهكذا فإنه فى الوقت الذى لعب فيه البترول دورا كبيرا إيجابيا فى حياة الغرب وفى إنعاش اقتصاده، فإنه لعب بعض الأدوار السلبية فى حياة العرب خلال هذا القرن الذى بدأ فيه .. حتى ليحار من يفكر فى العرب وبترولهم.. هل كان هذا البترول لهم نعمة أعطتهم آلاف الملايين وحسنت أوضاعهم وجعلتهم يسكنون القصور، أو أنه كان نقمة بسبب دوره فى إنشاء إسرائيل، وفى رفع الأسعار العالمية، وفى الغزو العراقى للكويت الذى امتص تقريبا ما جاد به البترول على العرب؟! سواء كان البترول نعمة أو نقمة فمن المؤكد أنه كان واحدا من الأبطال المؤثرين فى القرن العشرين، ليس فقط على مستوى العرب وإنما أيضا على مستوى العالم كله.

□ اتفاقية سلام مصرية إسرائيلية : ١٩٧٩

فى ٢٦ مارس ١٩٧٩، وقع الرئيس أنور السادات ومناحم بيجن، رئيس وزراء إسرائيل، بحضور الرئيس الأمريكى جيمى كارتر أول اتفاقية سلام بين إسرائيل وأى دولة عربية. وقد جاءت هذه الاتفاقية بعد أحداث كثيرة كان من بينها حرب أكتوبر ١٩٧٣، وتجمد نتائجها عند اتفاقية لفك الاشتباك انسحبت إسرائيل بمقتضاها من مساحة محدودة فى سيناء. وفى ١٩

نوفمبر ١٩٧٧ زار السادات القدس وألقى فى اليوم التالى خطابا فى مقر الكنيست الإسرائيلى، وكان من نتائج ذلك تحرك عجلة المفاوضات التى توقفت بعد اتفاقية فض الاشتباك، ودعا الرئيس كارتر الرئيس السادات ومناحم بيجن فى ١٨ سبتمبر ١٩٧٨ إلى لقاء قمة فى كامب ديفيد قرب واشنطن، انتهى إلى وضع أسس اتفاقية السلام التى وقعت فى مارس ١٩٧٩ . وقد كان من نتيجة ذلك قطع معظم الدول العربية علاقاتها الدبلوماسية مع مصر، ونقلها مقر الجامعة العربية من القاهرة إلى تونس، وظلت الأوضاع كذلك إلى أن تولى الرئيس حسنى مبارك، وتمكن من رأب الصدع الذى حدث بين مصر والدول العربية، وإعادة الجامعة العربية إلى مقرها فى القاهرة.

□ موسكو تغزو أفغانستان : ديسمبر ١٩٧٩

فى ٢٥ ديسمبر ١٩٧٩ اخترق أكثر من أربع فرق سوفيتية مدرعة الأراضى الأفغانية، فى الوقت الذى تم فيه إسقاط عدد من القوات جوا حيث استولت على المبانى الحكومية فى العاصمة الأفغانية كابول، وقتلت الرئيس الأفغانى حفيظ الله أمين. وقد لعب هذا الغزو دورا مؤثرا فى أحداث القرن العشرين وأيضا فى تدهور أوضاع الاتحاد السوفيتى، والتى انتهت فيما بعد إلى قرار جورباتشوف بانسحاب القوات السوفيتية فى ١٥/ ٢/ ١٩٨٩، وذلك نتيجة عدم تمكن الميزانية السوفيتية من الإنفاق على الغزو. وفى جانب آخر فإن الولايات المتحدة رغبة منها فى مقاومة السوفيت داخل أفغانستان شجعت الحركات الإسلامية على إرسال متطوعيها للقتال فى أفغانستان، وهناك تمكنت بعض هذه الحكومات من إعداد بعض التنظيمات التى قامت بارتكاب عدة عمليات إرهابية سادت دولا كثيرة ووصلت إلى الولايات المتحدة نفسها.

□ إسرائيل تغزو لبنان : يونيو ١٩٨٢

فى ٦ يونيو ١٩٨٢ غزت القوات الإسرائيلية الأراضى اللبنانية ووصلت إلى بيروت بحجة الثأر لاغتيال السفير الإسرائيلى فى [illegible] وقد وقعت اشتباكات عنيفة بين الجانبين الإسرائيلى والسورى وبعد خمسة أيام أمكن التوصل إلى اتفاق على وقف إطلاق النار، إلا أن القوات الإسرائيلية تقدمت إلى بيروت حيث واجهتم مقاومة عنيفة من قوات منظمة تحرير فلسطين بقيادة ياسر عرفات، وفى ٢١ أغسطس وافقت المنظمة على مغادرة بيروت.

□ هونج كونج تعود إلى الصين : ١٩٨٤

في ١٩ ديسمبر ١٩٨٤ تم توقيع اتفاقية بين بريطانيا والصين تم الاتفاق فيها على أن تعود مستعمرة هونج كونج إلى الصين لأول مرة منذ سيطر عليها البريطانيون عام ١٩٤٩، وفى التاريخ المحدد تم بالفعل استرداد الصين لهونج كونج.

□ سقوط الشيوعية : ١٩٨٩

فى النصف الثانى من عام ١٩٨٩ بدأ انهيار النظام الشيوعى من الداخل دون طلقة رصاص واحدة توجه إليه من الخارج وقد ظلت الشيوعية سنوات طويلة تخفى أمراضها وتداعيها نتيجة لفشلها فى تحسين مستوى الحياة المعيشية لمواطنيها على غرار ما فعلته الاقتصادات الغربية. وتوالى على حكم الاتحاد السوفيتى عدد من الحكام الضعفاء والمرضى.. وعندما تولى ميخائيل جورباتشوف المسئولية فى عام ١٩٨٥ فإنه اعتقد أن السبيل الوحيد لتقدم الاتحاد السوفيتى اقتصاديا يكمن فى السماح للشعب السوفيتى بمزيد من الحرية.. وقد فتح جورباتشوف الأبواب لأفراد الشعب للتعبير عن أفكارهم ورغباتهم بحرية، إلا أنه فى الوقت نفسه لم يستطع تحقيق التقدم الاقتصادى الذى يساعد على كبح جماح الذين خرجوا ينتقدون بصورة قاسية الأوضاع فى النظام السوفيتى، وبدأت القوميات العديدة الموجودة داخل الاتحاد السوفيتى تنتهز الفرصة للخروج من القبضة السوفيتية، وكانت دول البلطيق فى مقدمة الذين نادوا باستقلالهم، وأدى فشل جورباتشوف فى السيطرة على مطالبهم إلى بداية السقوط الذى تم سريعا، وعندما استقال جورباتشوف فى عام ١٩٩١ لم يكن هناك اتحاد سوفيتى!

□ اتفاقية أوسلو : ١٩٩٣

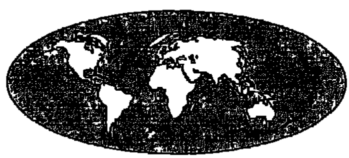
فى سرية كاملة ولمدة تسعة أشهر كاملة جرت المباحثات بين وفد إسرائيلى ووفد منظمة التحرير الفلسطينية كان راعيها زاريوهان هولست، وزير خارجية النرويج فى ذلك الوقت وقد انتهت المباحثات بمفاجأة العالم بتوقيع اتفاق أوسلو فى احتفال تاريخى جرى فى البيت الأبيض فى واشنطن بحضور الرئيس الأمريكى بيل كلينتون، ورئيس الوزراء الإسرائيلى إسحق رابين ورئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات يوم الاثنين ١٣ سبتمبر ١٩٩٣. وعقب توقيع الاتفاق بمعرفة شيمون بيريز، وزير خارجية إسرائيل، ومحمود عباس (أبومازن) تقدم ياسر

عرفات خطوة مادا ذراعه لتلتقى يده بيد إسحق رابين فى أول مرة يتصافح فيها أكبر عدوين عرفهما القرن العشرون.

وفى تحليله لهذا الاتفاق قال أبومازن : لن نزعم أننا وقعنا على اتفاق مبادىء يقيم دولة فلسطينية مستقلة، ولا يوجد بند من البنود يوضح هذه المقولة، وإنما كان الاتفاق اتفاقا على حكم ذاتى انتقالى يشمل الضفة الغربية وغزة.

ومع ذلك فلقد كان الاتفاق خطوة كبيرة فى طريق كفاح الشعب الفلسطينى الذى كانت إسرائيل منذ هيرتزل ترفض الاعتراف به.. فإسرائيل ظلت، ولسنوات، تمنع استخدام كلمة الضفة الغربية، وتشير إليها بكلمة «المناطق» على أساس أنها جزء من إسرائيل. أما بالنسبة للشعب فقد حرمت كلمة فلسطين ومنعتها من الاستعمال والتداول، وأصبحت تستخدم بدلا من كلمة الشعب الفلسطينى كلمة «السكان العرب»..

وقد احتاج تطبيق اتفاق أوسلو إلى عشرات بل مئات الاجتماعات والمداولات والاتفاقيات المتتالية.. وما زال الكفاح الفلسطينى مستمرا..





الفصل الثاني

القرن العشرون
أهم الشخصيات

١ أدولف هتلر

٢٣

شيال المحطة الذى أشعل أكبر حرب

لا يوجد فرد استطاع أن يغير تاريخ العالم فى القرن العشرين كما فعل أدولف هتلر، ليس لأنه أشعل الحرب العالمية الثانية التى ذهب ضحيتها نحو ٥٥ مليون قتيل ومائة مليون مصاب، وإنما لأنه عن طريق هذه الحرب ألهب ظهور العلماء والباحثين والمخترعين ليصنعوا اختراعاتهم العديدة التى حققت أكبر قفزة علمية وتكنولوجية شهدتها البشرية..

ولقد التصق تاريخ هتلر بالدمار والموت والخراب لدرجة أن مايكل هارت، صاحب كتاب «أعظم الناس أثرا فى التاريخ»، اعتذر عن وضع اسم هتلر ضمن قائمة الـ ١٠٠ شخص الذين أثروا فى تاريخ البشرية على أساس أنه قاتل لا يستحق، إلا أنه من حق هتلر أن نسأل أنفسنا، هل كان العالم سيصل إلى هذه القفزة الأسطورية التى وصل إليها فى المخترعات العديدة التى حققها بدون حربه؟.. وعلى سبيل المثال فإن هتلر بدأ الحرب بتطوير الدبابات والمدرعات ولكنه عندما قرر غزو بريطانيا حقق ذلك بآلاف الطائرات التى أغار بها على الجزيرة البريطانية.. وظلت بريطانيا عاجزة عن مواجهة طائرات هتلر إلى أن تمكن خبير الأجواء البريطانى سير روبرت واطسن من التوصل إلى اكتشاف الرادار لأول مرة عام ١٩٤١.. وبواسطة هذا الاختراع تمكنت بريطانيا من اصطياد طائرات هتلر وإسقاط المئات منها.. ودارت آلة الاختراع الألمانية الجبارة لتخترع الصاروخ.. وأيضا القنبلة الذرية، ولكن العلماء الأمريكيين سبقوا فى إنتاج هذه القنبلة..

وهكذا.. فإنه بعد أن انتهت هذه الحرب تساقطت على العالم كله ثمار المخترعات التى أنتجها العلماء للدمار وحولوها إلى خدمة رفاهية الإنسان وتحقيق تقدمه.. وكان كل ذلك فى الواقع بفضل الحرب التى أشعلها هتلر..

هل كان هناك فى كل الملايين التى عاشت فى سنوات طفولة هتلر من يتوقع أو يفكر أن هذا الطفل الذى لم يترك فى طفولته وصباه بصمة عبقرية أو ذكاء واحدة يمكن أن يصنع هذا التأثير الذى صنعه هتلر فى القرن العشرين؟

فى قرية صغيرة نمساوية لا يتجاوز سكانها ٣٠٠٠ نسمة تقع قرب الحدود النمساوية الألمانية اسمها براوناو ولد أدولف هتلر فى العشرين من أبريل عام ١٨٨٩ من أبوين فقيرين.

كان الأب عند ولادة أدولف قد تجاوز سن الخامسة والأربعين، وقد أمضى حياة شاقة بدأها عاملا زراعيا بسيطا ثم خيل إليه أنه بلغ قمة الأمل الذى يتمناه عندما أصبح موظفا فى إدارة الجمارك لدرجة أنه أصبح يحلم بأن يخلفه ابنه أدولف فى وظيفته ويصبح مثله موظفا بالجمارك، ولكن هتلر الصغير رفض تحقيق أمنية الأب رغم إلحاحه بحجة أنه يريد أن يكون فنانا رغم أنه فشل فى إتمام تعليمه الثانوى.

ولم يقدر لهتلر الأب أن يرى مصير ابنه الذى كان يتمنى أن يراه موظفا بالجمارك، ففى سن الثالثة عشرة مات الأب، وتصور أدولف أنه يستطيع تحقيق حلمه فى أن يكون فنانا، فذهب إلى فيينا ليلتحق بأكاديمية الفنون، ولكن أساتذة الأكاديمية قرروا أنه لا يصلح وليست فيه عبقرية فنان رسام.. وفى خلال ذلك كانت أمه قد توفيت هى الأخرى وأصبح أدولف هتلر وحيدا، بل أكثر من ذلك كان عليه أن يبحث عن عمل يكسب منه..

وواجه أدولف فترة مريرة من حياته اعتبرها أقسى سنوات مر بها، فمن أجل لقمة العيش عمل شيالا فى محطة السكة الحديد وعلى أبواب الفنادق وفى رسم البطاقات وبيعها، وفى كثير من الأحيان كان ينام فى ملجأ للرجال ليوفر الفلوس التى يستطيع أن يحقق بها هوايته فى شراء الكتب وفى مشاهدة الأوبرا من وقت لآخر.

◆ ◆ ◆

فى عام ١٩١٢، وفى سن الثالثة والعشرين قرر هتلر أن يجرب حظه بعيدا عن فيينا التى قاسى فيها من الفقر والتشرد، فانتقل إلى ميونيخ حيث قرر مواصلة العمل رساما، ولكن جاءت الحرب العالمية الأولى فى عام ١٩١٤ ليجد فيها حبل الإنقاذ الذى ينتشله من الفقر المستمر الذى كان يعيش فيه، فتطوع فى هذه الحرب، وبسبب ضآلة جسمه عينوه ساعيا للبريد بين الوحدات، ورغم ذلك أثبت كفاءته لدرجة استحق معها الحصول على وسام الصليب الحديدى، وهو الوسام الوحيد الذى ظل يزهو بحمله بعد أن أصبح الحاكم المطلق لألمانيا.

إن الحرب تصهر الرجال والأفكار أيضا.. ورغم أنه لم يصب فى هذه الحرب سوى إصابة بسيطة من جراء قنابل الغاز التى ألقيت على وحدته ـ وقد شفى من آثارها ـ إلا أنه خرج من هذه الحرب بجراح عميقة فى أفكاره ...

كان جرحه الأول هزيمة ألمانيا وإرغام الحلفاء لها أن توقع معاهدة فرساى التى تنازلت فيها ألمانيا عن أجزاء مختلفة من أراضيها، والتزمت بتحجيم عدد قواتها بما لا يتجاوز ١٠٠ ألف رجل، منهم ٤٠٠٠ ضابط مقسمون على ٧ فرق مشاة و٣ فرق فرسان و٢٢٨ مدفعا خفيفا و١٩٠٠ رشاش و١٠٠ ألف بندقية، وأيضا إلغاء نظام التجنيد الإجبارى. وقد وجد هتلر فى هذه المعاهدة إذلالا ما بعده إذلال لوطنه الذى أخذت تدغدغ حواسه أنه لابد أن يكون أحسن وطن فى العالم، وشعبه أول شعوب العالم، وأن تكون هناك ألمانيا الكبرى العظيمة التى تضم كل الشعوب الأخرى التى تنحدر من أصول ألمانية، خاصة الذين يعيشون فى النمسا وتشيكوسلوفاكيا وبولندا وغيرها..

كان جرحه الثانى من اليهود الذين شاهد تصرفاتهم القبيحة وكيف أنهم وحدهم كانوا يستغلون كل معاناة الشعب الألمانى ومتاعبه ليزيدوا من ثرواتهم، وكلما ازداد هتلر قراءة بعد ذلك اكتشف أن اليهود كانوا السبب فى انهيار ألمانيا وهزيمتها فى عصرها الإمبراطورى الذهبى، وهو ما جعل كراهيته لليهود بعد ذلك لا تأتى من فراغ إلى حد أنه رفض مقابلة أى يهودى طوال حياته.

أما الجرح الثالث فكان من الشيوعيين الذين كانت حركتهم قد انطلقت فى دول كثيرة فى أوروبا، وقد كره هتلر الشيوعيين ـ عقيدة وأفرادا.

◆◆◆

كانت الحرب العالمية قد انتهت بهزيمة ألمانيا ومعاهدة فرساى التى أذلت وأهانت ألمانيا.. وبدلا من أن يتم تسريح هتلر من الجيش فإنه أبدى استعداده للبقاء إذ لم يكن لديه أى عمل آخر، فتم توظيفه فى محاولة تثقيف الجنود عقائديا وانتشالهم من قاع الإحساس بمرارة الفشل والهزيمة ـ وفى هذه الوظيفة اكتشف هتلر لأول مرة موهبته فى الخطابة وقدرته على شحن الآخرين نفسيا ومعنويا.. ولما كانت ألمانيا فى ذلك الوقت تعانى من الفقر ومن كثرة الأحزاب السياسية ـ وهى أحزاب كان معظمها بلا مقار وتعقد اجتماعاتها فى البارات ـ فقد التقط حزب صغير هتلر وعرض عليه عضويته.. وذهب هتلر لحضور الاجتماع الأسبوعى للحزب لأول مرة فوجد بانتظاره أربعة أعضاء هم كل أعضاء الحزب، وعندما قرأ أحد الأعضاء ميزانية الحزب تبين أن رصيدها أقل من ثمانية ماركات !

ولكن.. وبمقدرة هتلر الخطابية استطاع أن يستقطب عددا كبيرا للانضمام إلى الحزب أثار حماسهم للتبرع للحزب.. وزاد عدد أعضاء الحزب وأصبح له فروع خارج ميونيخ، ولكن كان يضايق هتلر تحرشات الشيوعيين فقرر مواجهتهم بالعنف عن طريق تنظيم جهاز عسكرى داخل الحزب أطلق عليه اسم «قوات العاصفة»، وجعل لأفرادها زيا خاصا عبارة عن قميص بنى وهى

ظاهرة انتشرت بعد ذلك في بلاد أخرى، بما في ذلك مصر عندما كون حزب مصر الفتاة بقيادة أحمد حسين فرقة القمصان الزرقاء.

وفى سنة ١٩٢٣ جمع هتلر فرق العاصفة التى كونها وأعلن نفسه رئيسا لجمهورية ألمانيا الجديدة (!) ولكن البوليس تصدى لهم وقبض على هتلر وحكم عليه بالسجن خمس سنوات لم يمض منها سوى تسعة أشهر ثم أفرج عنه بعدها.. ولكنه فى خلال هذه الفترة التى أمضاها فى السجن لم يضيّع وقته سدى، فقد بدأ فى كتابة الكتاب الوحيد الذى ألفه ويحمل عنوان «كفاحى» Mein Kampf (ماين كامف).. وفى هذا الكتاب عبر عن أفكاره الخاصة التى ظل حياته بعد ذلك يحاول تأكيدها وتشمل تركيزه على علو الجنس الآرى على باقى الأجناس، وكراهيته لليهود والشيوعيين والاشتراكيين، وفكرته بالنسبة للديمقراطية التى قال عنها: إن مهمة الديمقراطية هى حرية اختيار القائد، وعلى هذا القائد بعد ذلك أن يتولى كافة المسئوليات ويجب مطلقا ألا يطلب من الشعب التصويت على أى موضوع آخر بخلاف اختيار هذا القائد الذى سيتحمل عبء اتخاذ كافة القرارات.

ولم يعتزل هتلر السياسة بعد خروجه من السجن، بل على العكس ضاعف من نشاطه فى إثارة الجماهير واستقطاب تأييدهم مستغلا فرصة الأزمة الاقتصادية العالمية التى سادت العالم، وكانت ألمانيا فى مقدمة الدول التى عانت منها . وأصبح حزب العمال الألمانى الاشتراكى القومى الذى تكون حروفه الأولى كلمة (نازى) من أهم الأحزاب فى ألمانيا.. وأصبح هتلر زعيم هذا الحزب ساحر الجماهير..

وفى عام ١٩٣٢ رشح هتلر نفسه رئيسا لجمهورية ألمانيا ضد الرئيس السابق لألمانيا هندنبورج ولكن الأخير تفوق عليه..

ولم ييأس هتلر، فبعد أن مر بتجربة الاستيلاء على الحكم بالقوة وفشل وقبض عليه فى ميونيخ وحكم عليه بالسجن قرر أن يصل إلى الحكم بالطريق المشروع.. وفى خضم الأزمة الاقتصادية تصور هندنبورج رئيس الجمهورية أنه يستطيع «كشف» هتلر لو عينه رئيسا للوزراء إذ سوف يفشل فى حل المشاكل العديدة التى تعيشها ألمانيا، ولكن هتلر على العكس لم تهزمه المشاكل الاقتصادية، بل إنه تمكن فى خلال شهور قليلة من القضاء على الحزب الشيوعى فى ألمانيا، عدوه الكبير، وقبض على كل مقاليد السلطة بيد حديدية ديكتاتورية، وزادت سلطاته عندما منحه البرلمان فى مارس ١٩٣٣ سلطات مطلقة؛ فقام بحل الأحزاب السياسية وأطلق يد قوات العاصفة فى مطاردة الشيوعيين واليهود بعد أن أقنع الشعب بأن هزيمة ألمانيا فى الحرب (العالمية الأولى) سببها خيانة اليهود والشيوعيين..

وفى عام ١٩٣٤ مات هندنبورج رئيس الجمهورية فجمع هتلر كل السلطات فى يده وأصبح يجمع بين رئاسة الجمهورية ورئاسة الوزارة ورئاسة الحزب، وأصبح الحاكم المطلق الذى تمكن

من تحريك مشاعر شعبه وبعث روح الأمل فى قدرته على تعويض ما ضاع منه فى الحرب السابقة . وألغى هتلر الأحزاب وانسحب من عصبة الأمم التى شكلها العالم بعد الحرب، وأعلن بحماس تمزيقه لمعاهدة فرساى، معاهدة الهزيمة والذل.. وبسرعة بالغة راح يركز على تطوير قواته المسلحة.

كان الطفل الذى كان يحلم أبوه بأن يكون موظفا فى الجمرك، وفشل فى إكمال تعليمه الثانوى، وفشل فى أن يكون فنانا، وأمضى خمس سنوات فى تنظيف البيوت وحمل حقائب المسافرين والنوم فى الملاجىء، وتطوع جنديا صغيرا فى الجيش، قد أصبح النجم الأول الذى يحبه الشعب الألمانى إلى درجة العبادة رغم كل الإجراءات القاسية التى اتخذها.. وكان هتلر ـ بعد أن أمسك كل السلطات فى يده وتحقق له علاج جروحه من الشيوعيين واليهود ـ قد قرر أن يعالج جرحه الكبير وأن تسود بلاده العالم.. وهذه المرة بالحرب.

وفى أول سبتمبر ١٩٣٩ خطا هتلر أول خطوة إلى هذه الحرب بإعلانه الاستيلاء على الأراضى الألمانية التى سبق أن تم ضمها إلى بولندا بموجب معاهدة فرساى.

وبعد ذلك استولى على الأرض التى تم ضمها بموجب هذه المعاهدة إلى تشيكوسلوفاكيا، ثم لم يكتف هتلر بهذه الأجزاء وإنما احتل كل بولندا وكل تشيكوسلوفاكيا، وفى عام ١٩٤٠ وفى مدة شهرين اثنين (من أبريل إلى مايو) أضاف إلى فتوحاته الدانمرك والنرويج وهولندا، واستدار على فرنسا التى لم تقو طويلا على مواجهته وأعلنت استسلامها فى ٢٢ يونيو.. وفى نفس العام. وكانت إيطاليا بقيادة موسولينى قد أعلنت هى الأخرى الحرب منضمة إلى ألمانيا ومكونة معها محورا ضم معهما اليابان.

لم يكتف هتلر بما حققه بل اتجه إلى غزو بريطانيا بآلاف الطائرات التى أنتجتها مصانعه، ولكن بريطانيا بقيادة تشرشل استطاعت الصمود أمام غارات هتلر.. ومع أن هتلر كان قد وقع معاهدة عدم اعتداء على الاتحاد السوفيتى إلا أنه قرر غزوه هو الآخر.. وفى طريقه إلى روسيا اكتسح أمامه المجر وبلغاريا ويوجوسلافيا..

وفى ٢٢ يونيو ١٩٤١ أصدر هتلر أوامره بتنفيذ عملية غزو الاتحاد السوفيتى التى أطلق عليها اسم «بارباروسا». ونجحت المفاجأة فى تحطيم معنويات الجيش الأحمر.. وسقط مئات الآلاف من الجنود السوفيت فى الأسر.. وخلال ٣ أسابيع فقط توغلت القوات الألمانية مسافة ٤٠٠ ميل داخل الأراضى السوفيتية.. وأجل هتلر غزو موسكو متصورا أنه سوف يستطيع الوصول إليها فى أيام.. وفى أول ديسمبر أصدر أوامره بشن الهجوم الشامل على العاصمة السوفيتية فى الوقت الذى كان السوفيت قد استعدوا وشنوا هجومهم المضاد يوم ٦ ديسمبر.. وتحالف «جنرال» البرد القارس وعواصف الثلج مع القوات السوفيتية فى القضاء على الهجوم الألمانى..

وبدا أن هزيمة ستلحق بالجيش الألمانى لأول مرة.. وجن جنون هتلر الذى لم يتعود الهزيمة.. فأصر على مواصلة القتال وعزل القادة الذين لا يقبلون تنفيذ أوامره.. وجاءت سنة ١٩٤٢ ومعها بشائر النكبات التى راحت تتوالى بعد عديد الانتصارات التى حققها فى عامى ١٩٤٠ و١٩٤١...

لقد فشل فى غزو موسكو، وفشل فى غزو بريطانيا، وتم رد قواته التى كانت تنطلق فى الصحراء الغربية بقيادة روميل ووصلت إلى العلمين..

وتوالت الهزائم.. وبدأت دول الحلفاء تستعيد ما ابتلعه هتلر.. وانفرط عقد الدول التى ضمها هتلر واحدة بعد الأخرى حتى لم يعد له سوى برلين، التى اطبقت عليها قوات التحالف وهدفها الإمساك به فى مقر قيادته تحت سطح الأرض فى العاصمة برلين، وأصبح واضحا أن الساعة الأخيرة لهتلر قد اقتربت.

◆◆◆

هذا الرجل الذى أشعل أكبر حرب عرفها التاريخ، كان يعيش فى حالة قلق مستمر بسبب شكوكه من أن يدس له أحد السم فى الطعام، وكان نباتيا فى طعامه ولم يكن من هواة الملابس بل كان لا يرتدى غير القميص البنى العادى لفرق العاصفة أو بدلة عسكرية من الصوف وعليها بالطو المطر.. ولم يكن يدخن أو يشرب الخمر أو يتقاضى مرتبا من الدولة، لا عن تقشف كما كان البعض يعتقد وإنما عن إحساس بأن ألمانيا كلها ملكه بكل ما فيها من مال وأرض وثروات، فكيف يتقاضى وهو المالك لكل هذا أجرا؟!

ورغم أن هتلر تولى قيادة السلطة فى ألمانيا وهو فى سن الخامسة والأربعين إلا أنه لم تعرف له نزوات نسائية كثيرة، فالنساء فى حياته معدودات لكن أقربهن إلى قلبه بالتأكيد كانت إيفا براون، وهى مصورة صحفية ذهبت مرة لتصويره ولفتت نظره من دون كل النساء اللائى كان يراهن.. مع أنها ـ إيفا ـ كما يصفها الذين عرفوها كانت فتاة عادية جدا بلا طموح ولا خيال، ولكنها كانت مريحة جدا بالنسبة له... فهى موجودة دائما فى انتظار أن يستدعيها عندما يريد، أما هى فلم تكن تستطيع أن تتصل به ولم يحدث أن طلبت رؤيته..

وحتى فى أيامه الأخيرة كانت إيفا براون إلى جانبه فى الانتظار..

وفى ليلة ٢٩/٣٠ أبريل ١٩٤٥ كانت الليلة الأخيرة..

ولكن هتلر كان قد أمر أقرب مساعديه قبل ذلك بعشرة أيام بإحراق كل أوراقه الشخصية والذهاب إلى مدينة ميونيخ وتدمير وإحراق كل محتويات شقته بما فيها من وثائق وتسجيلات.

وكانت الأنباء تتوالى عن قرب وصول القوات التى اقتحمت مدينة برلين إلى المقر الذى يقيم فيه هتلر.. وفى مساء الأحد ٢٩ أبريل ١٩٤٥ كان هناك رجل يتسلل فى ظلام برلين المدمرة للبحث عن

موظف تسجيل العقود، وقد تم العثور عليه واسمه ولتر فاجنر وجيء به وهو فى حالة ذهول من طلب الاستدعاء المنقول إليه.. ودخل الرجل لأول مرة من باب قيادة هتلر ونزل ٥٠ مترا إلى حيث كان هناك الفوهرر هتلر (الزعيم) كما كان كل الشعب الألمانى يناديه.. وإلى جوار الفوهرر كانت هناك سيدة فى الانتظار.. وبناء على الأوامر الموجهة للرجل فتح ولتر فاجنر دفتر عقوده وسجل زواج هتلر وإيفا براون.. وكتب الرجل صيغة العقد ومشاعر الذهول مازالت تستولى عليه. وأمسك هتلر بالقلم ووقع الوثيقة، وأمسكت إيفا وكتبت اسم إيفا، وقبل أن تكتب حرف الباء، وهو الحرف الأول من اسم براون، أمسك هتلر بيدها وجعلها تكتب أمام إيفا كلمة هتلر.. وسقطت دمعة امتنان من صاحبة التوقيع !

وبهذا تحققت لإيفا براون فى آخر يوم من حياتها الأمنية التى كانت تترقبها، وهى أن تصبح زوجة لهتلر.

وخرج موثق العقود، وبقى العروسان لفترة قصيرة.. ثم غادر هتلر الغرفة إلى قاعة أخرى كان سينتظر فيها سكرتيرته الخاصة مدام يونج..

كانت الساعة قد وصلت الرابعة من صباح يوم الأثنين ٣٠ أبريل عندما أملى هتلر وصيته على سكرتيرته، وقد كتبت من ثلاثة صور وقعها هتلر ووقع إلى جانبه شهودا عليها كل الذين ظلوا إلى جانبه من العسكريين..

وفى هذه الوصية اعتبر هتلر نفسه غير مسئول عن الحرب التى أشعلها، فقد أشعلها ـ كما كتب ـ أولئك الساسة العالميون الذين انحدروا من عنصر يهودى، أو يعملون لتحقيق مصالح يهودية.. ولم ينس هتلر مكانته حتى آخر لحظة فأوصى بطرد كبار القادة العسكريين الذين تصور أنهم خانوه أو خانوا الشرف العسكرى كما أوصى بتعيين وزارة جديدة برياسة وزير دعايته جوبلز..

وبعد الوصية اتجه هتلر لتناول طعامه الأخير (طبق مكرونة اسباجتى بالصلصة)، وفى خلال ذلك قامت زوجته إيفا براون باستدعاء السكرتيرة يونج وأهدتها معطف الفراء الذى سبق أن أهداه هتلر إلى إيفا.. وألقى هتلر نظرة أخيرة إلى كلبه (بلوندى) وأشار لأحد معاونيه فحقن الكلب بالسم.. وطلب هتلر من الجميع الخروج وتركه وحده مع زوجته ولا أحد يدخل عليهما إلا بعد عشر دقائق.. وقيل إنهم فى خلال هذه الدقائق سمعوا صوت إطلاق نار.. وقيل إنه لم يكن هناك أى طلقات.. وإن هتلر قتل نفس بالسم (سيانيد البوتاسيوم) وكذلك فعلت زوجته إيفا.. وكان سكرتير هتلر قد جمع كل البترول الموجود فى المقر.. وتم إخراج الجثتين إلى الحديقة حيث تم صب ١٨٠ لترا من البترول عليهما.. وعندما وصلت قوات الحلفاء إلى المقر كان كل همها العثور على هتلر حيا أو ميتا ـ وبعد تحقيقات طويلة تأكد لها وفاة هتلر وحرق جثته، وقد تم التأكد من

ذلك بعد العثور على فكى أسنان أكد طبيب الأسنان الخاص بهتلر أنهم لهتلر، فقد كانت بهما ثمانى أسنان صناعية قام هو بصناعتها له..

وأسدل الستار على حكاية واحد من أشهر الذين غيروا هذا القرن.. ليس بالحرب التى أشعلها وذهب ضحيتها أكثر من ٥٥ مليون قتيل وضعفهم من المصابين بحيث لم يخل بيت أوروبى من ضحية أو مصاب، وإنما بما حققه العلماء خلال هذه الحرب من اختراعات واكتشافات فتحت الباب لأكبر ثورة تكنولوجية وعلمية عرفها التاريخ، وهى التى أصبحنا نعيشها اليوم.

■ زيارة إلى سنوات هتلر

- من مواليد ٢٠ أبريل ١٨٨٩.
- فى يناير ١٩٠٣ توفى والده وكان موظف جمرك بسيطا.
- أكتوبر ١٩٠٧. فشل هتلر فى دخول أكاديمية الفنون التى كان يريد دخولها ليصبح فنانا.
- ٢١ ديسمبر ١٩٠٧: وفاة أم هتلر.
- ١٩٠٩ ـ ١٩١٣ : سنوات التشرد والمعاناة التى أمضاها هتلر فى فيينا.
- ١٩١٤ ـ ١٩١٨ : هتلر جنديا متطوعا فى الحرب العالمية الأولى.
- ١٩١٩ : انضمام هتلر إلى حزب العمال.
- ١٩٢٠ : تشكيله حزب النازى واختياره رئيسا للحزب عام ١٩٢١.
- ٢٦ فبراير ١٩٢٤: محاكمة هتلر بتهمة تدبير انقلاب والحكم عليه بالسجن ٥ سنوات.
- صيف ١٩٢٤. هتلر يكتب كتابه «كفاحى» وقد اعتبر عند صعود نجمه أكثر الكتب مبيعا بعد الإنجيل.
- ١٤ سبتمبر ١٩٣٠: فوز حزب النازى بالأغلبية البرلمانية.
- ١٩٣٢: هتلر يرشح نفسه رئيسا للجمهورية ويفشل.
- ٣٠ يناير ١٩٣٣: هتلر مستشارا لألمانيا (رئيسا للوزراء).
- ٢٣ مارس ١٩٣٣· هتلر يصبح ديكتاتور ألمانيا الأوحد.
- ١ سبتمبر ١٩٣٩: غزو بولندا واشتعال الحرب العالمية الثانية.
- ٣٠/٢٩ أبريل ١٩٤٥: انتحار هتلر وعشيقته إيفا براون التى تزوجها قبل انتحاره بساعات قليلة.



٢ فلاديمير إيليتش لينين

تمثال الفكر الشيوعى الذى هوى ..!

لا ينافس لينين فى هذا العالم زعيم أو ملك أو رئيس فى عدد التماثيل التى أقيمت له. ففى كل مدينة وكل بلدة دخلها الحكم الشيوعى كان من أوائل ما يقوم به مجلس المدينة أو البلدة إقامة تمثال له يتوسط أهم وأكبر الميادين. آلاف التماثيل أقيمت له فى الاتحاد السوفيتى سابقا وفى كل دول الكتلة الشرقية، وعندما مات لينين فى يناير ١٩٢٤ فقد أنشئ خصيصا فى موسكو معهد للأدمغة تم الاحتفاظ فيه بدماغ لينين الذى تم تشريحه إلى ٣١ ألف شريحة وضعت كل شريحة فى ملف سرى. أما جثمانه فقد نجح العلماء السوفيت فى ابتكار طريقة حديثة لتحنيطه وكسوا وجهه بمادة شمعية.

وفى ميدان الكرملين وضع الجثمان فى صندوق زجاجى تسلط عليه الأضواء من زوايا مختلفة.. وفى كل يوم كانت تقف الطوابير الطويلة التى تمتد خارج الضريح مسافة مئات الأمتار، وفى عز البرد القارس الذى تنخفض فيه درجة البرودة إلى عشرين تحت الصفر، حتى تتمكن الآلاف المنتظرة يوميا من الإطلال على الزعيم الذى بفضل جهاده وكفاحه قاد الثورة الروسية وحول نظرية ماركس الشيوعية إلى واقع عملى، وأنشأ دولة الاتحاد السوفيتى..

ولكن من كان يصدق أن هذه الامبراطورية التى تحطمت على حدودها قوات هتلر وغرزت أول مسمار فى نعشه . الإمبراطورية التى أطلقت أول إنسان إلى الفضاء دار حول الأرض.. الامبراطورية التى امتلكت قوة من أكبر القوى النووية القادرة على تدمير كل العالم.. هذه الإمبراطورية التى بدأت فى عام ١٩١٧ لتكون نموذجا يقتدى به كل العالم وترتفع رايات أيديولوجيتها الحمراء لتكسو ـ كما كانت نعتقد ـ كل العالم.. هذه الإمبراطورية تنهار بدون طلقة رصاصة وبدون غزو خارجى وبدون ثورة جديدة.. وتتطلع العيون إلى ألوف التماثيل الموجودة

للينين في الميادين فتحطمها، ويصدر قرار بوقف تبادل العملات الورقية التى تحمل صورة هذا «النبى» الذى ظل الشيوعيون يقدسونه قداسة لا مثيل لها.. صحيح أن جثمانه مازال فى صندوقه الزجاجي فى ميدان الكرملين، ولكن الطوابير الطويلة التى كانت تزوره قصرت كثيرا.. وأصبح السؤال يجرى همسا: إلى متى سيظل هذا الضريح ؟

◆ ◆ ◆

بدون كارل ماركس ما كان لينين، وبدون لينين ما عرفت الشيوعية الماركسية التطبيق وما اشتهر ماركس.

لقد ولد كارل ماركس قبل لينين بنحو ٥٠ سنة (ولد ماركس عام ١٨١٨ فى منطقة الراين بألمانيا ومات عام ١٨٨٣). ولم يكن ماركس أول فيلسوف يطرق الفكر الاشتراكي، فقبله سبعة اخرون، لكن الشيوعية الماركسية تختلف عما سبقها فى استنادها إلى حتمية أن تؤدى حركة المجتمع الرأسمالى وتناقضاته الداخلية إلى موت الرأسمالية وإلى قدرة الطبقات العاملة بقوة نضالها على تجاوز هذه التناقضات وبناء نظام آخر من العلاقات الاجتماعية، هو النظام الشيوعي..

وفى تنبؤ ماركس بتطبيق نظريته فقد كان يؤمن بحتمية أن تتحقق فى مجتمع صناعى رأسمالى غني، وأن تقود الطبقة العمالية فى هذا المجتمع الثورة والانقضاض على الرأسمالية ونشر الشيوعية.. ولهذا تنبأ ماركس بحتمية انهيار الرأسمالية وتحولها إلى الشيوعية. ولكن على عكس ما كان يتنبأ ماركس فقد بدأت الشيوعية فى دولة إقطاعية زراعية بالغة الفقر، هى روسيا، وهذا ما جعل الكثيرين يقولون فيما بعد عندما انهارت الشيوعية فى الاتحاد السوفيتى إنها بدأت فى المكان الخطأ، فقد كانت بريطانيا هى المرشحة الأولى فى تصور ماركس لاعتناق الشيوعية، ولكن لينين نفذها فى روسيا..!

◆ ◆ ◆

لم يكن اسمه الأصلى لينين، فهذا الاسم هو اسم مستعار اتخذه للهروب من رقابة البوليس والسلطات التى عاش سنوات طويلة من حياته وهو إما تحت رقابتها أو مطاردتها للقبض عليه..

ولد فلاديمير إيليتش أوليانوف ـ وهذا هو اسمه الحقيقى ـ فى ٢٢ أبريل عام ١٨٧٠ ـ نفس البرج الذى ولد فيه هتلر ـ فى مدينة سيمبيرك على نهر الفولجا، وفيما بعد تغير اسم هذه المدينة إلى أوليانوفسك على اسمه. كان أبواه متوسطى الحال، وكان فلاديمير الابن الثالث بين ستة أبناء، وكان ألكسندر ـ أخوه الأكبر ـ هو أحبهم إليه وأكثرهم تعلقا به.. وقد أثر هذا الأخ فى حياة فلاديمير تأثيرا كبيرا بسبب اشتغاله بالسياسة والقبض عليه بتهمة محاولة اغتيال القيصر اسكندر الثالث وتم إعدامه.

كان العام ١٨٨٧ الذى أعدم فيه أخوه يمثل نقطة تحول فى حياة فلاديمير، فقبل شهور قليلة كان أبوه قد مات، ثم لحقت به أمه، ثم بإعدام الأخ شعر فلاديمير أنه أصبح وحيدا وأن عليه أن يكمل مشوار الأخ فى الكفاح ضد القيصر، ولكن بطريقته الخاصة.

وفى مشوار طويل من الكفاح تنقل فيه لينين بين عديد من المدن والدول التى درس فيها وهرب إليها أمضى لينين معظم سنواته بعد أن عرف الماركسية الشيوعية، وكان قد تلقى أول دروسها من أخيه ألكسندر، ثم اشترك بعد ذلك فى تنظيم أول حلقة ماركسية فى مدينة سمارا، ومنذ ذلك الوقت أصبح له اسم مستعار هو لينين الذى اختاره هو لنفسه..

وفى ديسمبر ١٨٩٥ وهو فى سن الخامسة والعشرين قبض على لينين لأول مرة وأمضى أكثر من ١٤ شهرا فى سجن بطرسبورج ـ عاصمة روسيا فى ذلك الوقت.

(أطلق اسم لينين فيما بعد على هذه المدينة وأصبح اسمها لينينجراد، وكان لينين قد نقل العاصمة إلى موسكو عام ١٩١٨ لتكون فى موقع قريب من جميع أجزاء روسيا ولتفادى خطر الجيوش الألمانية التى كانت تزحف على روسيا فى ذلك الوقت خلال سنوات الحرب العالمية الأولى).

لم يقدس الشيوعيون لينين لأفكاره الثورية وكتاباته العديدة التى بلغت ٥٥ كتابا فحسب، وإنما أيضا لأسلوبه فى الخداع والتضليل، فهو يعتبر الأستاذ الأكبر لكل الشيوعيين الذين يحاولون ممارسة العمل السرى.

وقد ظهر دهاء لينين عندما دخل سجن بطرسبورج، فرغم أن الورق والقلم كانا ممنوعين من دخول السجن فإنه استطاع أن يكتب من وراء القضبان عديدا من المنشورات والنداءات الثورية ويهربها بطريقة خاصة إلى خارج السجن حيث تطبع وتوزع على الملايين. وقد صنع لينين من لباب الخبز الذى كان يقدم إليه فى السجن محبرة، كما صنع من اللبن مدادا يكتب به فى هوامش الكتب التى يصرح بدخولها فلا تظهر الكتابة للعين المجردة، وفى نفس الوقت كان يستطيع أن يبتلع «المحبرة» بما فيها إذا تعرض لخطر ضبطه، وقد كتب مرة لأحد أصدقائه يقول «لقد ابتلعت حتى الآن ست محابر»...!

ولم يكد لينين يخرج من السجن حتى اقتيد مرة أخرى إلى النفى فى سيبيريا فى يناير ١٨٩٧، وهذه المرة لمدة ثلاث سنوات كانت من أهم فترات حياته، ففيها استكمل نضوجه السياسى، وترتيب الاتصال، بمختلف الحركات الثورية وتحديد أسلوب الكفاح وطريق الثورة للقضاء على القيصرية والإقطاع، ووضع مشروع إنشاء حزب ماركس فى روسيا.. وأيضا ـ كل هذا فى منفاه فى سيبيريا ـ الزواج من «ناديجا كروبسكايا» التى كان قد تعرف إليها من قبل فى خلال إقامته فى بطرسبورج، وهى مدرسة عرفت أن تلاميذها يحضرون حلقات يقودها لينين حضرت بعضها

وأعجبت بشخصية لينين وقد تصادف بعد ذلك أن اعتقلت وتم نفيها إلى سيبيريا حيث تجدد اللقاء مع لينين وكان حبا وزواجا..

◻ النظرية والدولة والقائد ..

أما النظرية فهى الماركسية الشيوعية، وأما الدولة فهى الإمبراطورية الروسية التى بدأت فى عام ١٤٨٠ ثم بعد أكثر من أربعة قرون أصابتها أمراض التفسخ خارجيا وداخليا، فلحقت بها الهزائم العسكرية اعتبارا من حرب القرم (عام ١٨٥٦) إلى الحرب ضد اليابان فى العام ١٩٠٤، وقد لقيت فيها روسيا هزيمة قاسية وطردت من كوريا ومنشوريا فى الوقت الذى تعرضت فيه داخليا لحركات ثورية بسبب الحكم الاستبدادى البوليسى المتخلف. وجاء القائد ليرى فى روسيا البيئة الصالحة لتنفيذ حلمه فى إقامة الشيوعية الماركسية، رغم أن الشروط التى وصفها ماركس لهذه الشيوعية لا تنطبق على روسيا، ولكن إقامة لينين خارج روسيا منذ الفترة التى أعقبت خروجه من منفى سيبيريا وتأثره بالحركات الثورية فى الدول الغربية التى تنقل فيها بين ألمانيا وسويسرا وانجلترا وفنلندا جعلته يؤمن بصلاحية روسيا تماما لتطبيق الشيوعية الماركسية.

فى يوليو ١٩٠٠، بعد الافراج عن لينين وحظر إقامته فى بطرسبورج أو فى المراكز الصناعية، سافر لينين إلى ألمانيا، ومن مدينة ميونيخ بدأ نشاطه الثورى بالاتصال بالاشتراكيين الديمقراطيين الألمان وإصدار جريدة ثورية توزع فى كل روسيا، صدر العدد الأول منها فى ديسمبر ١٩٠٠ باسم «ايسكرا»، أى الشرارة، وقد حملت فى صدرها عبارة لينين الشهيرة «من الشرارة يندلع اللهب»..

وعندما اكتشف البوليس الألمانى مقر الجريدة فى ميونيخ حمل لينين عزاله وهرب إلى لندن فى أبريل ١٩٠٢ حيث كانت له فرصة دراسة الحركة العمالية وحياة الإنجليز والإعداد لحزب العمال الاشتراكى الروسى، الذى كان قد عقد أول مؤتمر له فى بروكسل بغير حضور لينين، لكنه تمكن من حضور مؤتمره الثانى الذى عقد فى لندن وفيه ظهر الخلاف حول أسلوب العمل من أجل القضاء على القيصرية الروسية، وانقسم الحزب إلى أغلبية (بلاشفة بالروسية) أيدوا لينين، وأقلية (منشفيك) تبعوا تروتسكى.. ومنذ ذلك الوقت لم يعد كفاح لينين ضد القيصر ونظامه وأجهزته وإنما أيضا ضد المنشفيك الذين عادوا لينين عداء شديدا.

◆ ◆ ◆

هذا الرجل قصير القامة ضخم الرأس عريض الجبهة ضيق العينين أحمر الشعر، أجعده، فى عينيه عمق وذكاء، وعلى وجهة سخرية لاذعة تحملها ابتسامة هادئة تتربع دائما على شفتيه الرقيقتين.. هل كان ديكتاتورا دمويا ؟

يحاول الشيوعيون تبرئة لينين من العنف وتصويره كقديس يكره القتل والدم وتهدف خطته ـ كما يقولون ـ إلى كسب الجماهير واشتراكها فى نضاله، وجذب الجيش والشرطة إلى صفوفه ليحاربوا هم إلى جانبه معركته ولا يكونوا طرفا يحاربهم.. وعلى الجانب الآخر هناك ـ من غير الشيوعيين طبعا ـ من يقول إنه على الرغم من أنه كان يدعو ضد القهر والظلم وتحكم فئة فى فئة، فإن التاريخ الشيوعى لم يعرف رجلا استطاع أن ينفرد بالقهر والإرهاب والتخويف وإبادة الملايين كما فعل لينين فى الاتحاد السوفيتى دون أن تهتز له شعرة.

لقد تحركت قوافل الثورة فى روسيا مرتين: مرة فى العام ١٩٠٥ ولم تنجح، ومرة فى العام ١٩١٧ وهى التى انتصرت فيها وتسلم لينين قيادتها وتحققت أفكاره. وعلى حد قوله فإنه اعترف فى كتاباته بأن الطبقة المتداعية لا يمكن أن ترفع راية التسليم هكذا ببساطة وبلا مقاومة، وأنه لابد من ضحايا لأنه ـ كما كتب وقال ـ لا توجد طبقة تنتحر، ومن يطلب ثورة نقية إنما يطلب المستحيل!

وهناك بالتأكيد من الوقائع ما يشير إلى دموية لينين.. ففى أول مؤتمر بعد نجاح الثورة غير اسم حزبه من الحزب الاشتراكى الديمقراطى إلى الحزب الشيوعى بعد أن لطخ الإنتهازيون كلمة الاشتراكية. كما وصف أعداءه بالخونة والنفعيين، وطالب زملاءه بضرورة إحراز أغلبية فى المجالس (السوفيتيات بالروسية) التى كان يسيطر عليها إذ ذاك أعداؤه المنشفيك والاشتراكيون الثوريون.. وكان هؤلاء الأعداء بالملايين.. وكان ضروريا على لينين الذى تسلم قيادة الثورة ورئاسة الدولة أن يتخلص منهم.. وقد ظهر فى أحد المؤتمرات رجل تعلم منه وشرب من تعاليمه وأفكاره وهو جوزيف ستالين، الذى اتهم فيما بعد عندما ورث الحكم بعد موت لينين بأنه قتل أكثر من ٢٠ مليون روسى فى فترة حكمه (من ١٩٢٤ إلى ١٩٥٣).

وأيا كان الأمر فلقد نجح لينين فى السيطرة على حزبه والتسلل إلى كل مواقع الدولة، ولكن أعداءه دبروا له أكثر من محاولة اغتيال نجا منها، ولكنه أصيب إصابة خطيرة فى المحاولة الأخيرة التى جرت ضده عند حضوره اجتماعا عماليا يوم ٣٠ أغسطس ١٩١٨، ففى أثناء خروجه أطلقت عليه امرأة اسمها أنا كابلان عدة رصاصات مسمومة من مسدسها أصابت صدره، وقد أصيب بجراح خطيرة وبذل الأطباء جهودا كبيرة لإنقاذ حياته..

ورغم شفائه إلا أن صحته تأثرت بهذا الحادث.. وفى الوقت نفسه فإنه واصل جهوده المستمرة لاستكمال بناء الدولة والقضاء على خصومه من «الاشتراكيين الانتهازيين»..

وفى صيف ١٩٢٢ بدأ لينين يعانى من السكتات الدماغية، فأصيب بخمس سكتات دماغية على الأقل كان أخرها التى مات على اثرها فى ٢١ يناير ١٩٢٤.

وفى اليوم التالى عقدت لجنة الحزب المركزية اجتماعا عاما توجهت بعده إلى الشعب السوفيتى ببيان قالت فيه: «مات الرجل الذى خاض حزبنا تحت قيادته الكفاح يلفه دخان البارود، ورفع بيد جريئة علم أكتوبر الأحمر فوق البلاد من أقصاها إلى أقصاها، وتغلب على مقاومة الأعداء وثبت بصورة وطيدة سيادة الكادحين فى روسيا القيصرية القديمة. مات مؤسس الأممية

الشيوعية، زعيم الشيوعية العالمية، موضع حب البروليتاريا الأممية وفخرها، علم الشرق المظلوم، ورأس دكتاتورية العمال فى روسيا».

وفى كل المدن الروسية تسابق الكل إلى بناء وإقامة التماثيل ووضعها فى أهم الميادين.. وفى كل الجمهوريات السوفيتية، التى كونت فيما بعد الاتحاد السوفيتى، كان من أول الأعمال فى هذه الجمهوريات إقامة التماثيل للينين، نفس التماثيل التى تم بعد أقل من ٧٠ سنة إزالتها، وبيعها كأحجار قديمة.

ورغم انهيار الإمبراطورية السوفيتية سيبقى اسم لينين من أهم الأسماء التى غيرت القرن العشرين.. فهو أول من أرسى دعائم نظام دولة كبيرة شيوعية حتى وإن انهارت بعد ذلك.. وقد لعبت الأيديولوجية الشيوعية على يد روسيا دورا مؤثرا فى تاريخ العالم خلال هذا القرن.. ولم يكن هذا التأثير بسبب كارل ماركس الذى وضع فلسفة النظرية وإنما بسبب لينين الذى فرض تطبيقها، وتحدى ماركس نفسه فى تنبؤاته وطبقها فى دولة فقيرة وليست غنية.. دولة زراعية وليست عمالية.. دولة إقطاعية وليست رأسمالية..

■ زيارة إلى سنوات لينين

- ١٨٧٠ : ٢٢ أبريل الميلاد.
- ١٨٨٧ : ٢٠ مايو : اعدام أخيه الأكبر الكسندر بتهمة محاولة اغتيال القيصر أغسطس. يدخل جامعة قازان ويطرد منها فى ديسمبر.
- ١٨٨٨: أول اتصال له بالماركسيين.
- ١٨٩٠: يترجم إلى الروسية المانفستو الشيوعى.
- ١٨٩١: كدارس من الخارج يحصل على شهادة الحقوق من جامعة بطرسبورج.
- ١٨٩٥: يسافر إلى الخارج لأول مرة ـ سويسرا وباريس وبرلين ـ ويقبض عليه.
- ١٨٩٧: يحكم عليه بالنفى ٣ سنوات فى سيبيريا.
- ١٨٩٨: يتزوج ناديجا كروبسكايا فى المنفى.
- ١٩٠٠: يخرج من المنفى ويسافر إلى الخارج ويصدر جريدة «ايسكرا».
- ١٩٠٣: فى باريس مع العمال الروس المبعدين فى فرنسا.
- ١٩٠٥ : ٩ يناير : بداية ثورة ١٩٠٥ فى روسيا . يعود لينين إلى روسيا ولكن الثورة تفشل ويطرد لينين.
- ١٩١٢: يصدر لينين جريدة برافدا.
- ١٩١٧: سنة الأحداث.. فى ١٠ مارس تبدأ الثورة الروسية ويعود لينين إلى روسيا فى أبريل ويستقبل استقبالا حافلا. فى ٧ نوفمبر يبدأ عصيان الجيش.
- ١٩١٨ : ٣٠ أغسطس : إطلاق الرصاص عليه وإصابته.
- ١٩٢٢ : ٢٦ مايو : بداية فترة المرض الخطير.
- ١٩٢٤ : ٢١ يناير : وفاته.



٣ المهاتما غاندى

تحت قدميه العاريتين انهارت أكبر الإمبراطوريات

«بصوت مرتعش تبلله الدموع سمعت الهند رئيس وزرائها جواهر لال نهرو يخاطبها عبر الراديو مساء يوم ٣٠ يناير ١٩٤٨ قائلا: أيها الأصدقاء والرفاق.. لقد اختفى النور من حياتنا وحل الظلام فى كل مكان. وفى نفس اللحظة كان بعض الذين يقدسون المهاتما غاندى يتسابقون لحفر حفرة صغيرة فى الأرض كعلامة يمكن أن تبقى إلى الأبد دليلا على المكان الذى سقط فيه الرجل العظيم الذى أحبته الهند، وتم اغتياله برصاص متطرف مهووس فى ذلك اليوم..

ولم تبك الهند وحدها فقيدها العظيم بل بكته كل الشعوب المستعمرة، وما أكثرها فى ذلك الوقت، وبكاه كل أنصار السلام والحب فى كل مكان فى العالم..»

إذا كان هتلر وضع اسمه فى قائمة الذين غيروا القرن العشرين بالحرب العالمية التى أشعلها، ووضع لينين اسمه فى هذه القائمة بالثورة التى فجرها، فإن غاندى احتل مكانا بارزا فى هذه القائمة باعلانه أسلوبا جديدا للكفاح وتحرير بلاده من الاستعمار البريطانى، وإرغام أكبر إمبراطورية فى زمانه على التسليم بحق بلاده فى الاستقلال دون أن يرفع السلاح فى وجهها أو وجه الجنود الذين كانوا يحتلون الهند، ودون أن يمارس أى صورة من صور العنف والإرهاب الذى يمارسه عادة ويحرض عليه قادة حركات التحرير. ورغم ذلك استطاع غاندى أن يهز الإمبراطورية البريطانية وهى فى أوج قوتها وعظمتها، وأن يفرض على ملكها أن يستقبله فى قصر بكنجهام الذى ذهب إليه مرتديا مئزره الذى غزله ونسجه بيده، تحاط به المهابة والاحترام باعتباره الزعيم الروحى والسياسى لقطر من أكبر أقطار العالم سكانا ومساحة.

والغريب أن غاندى لم يكن يوما طوال حياته رجل دولة أو صاحب منصب رسمى، ولكنه كان الزعيم الذى إذا أعلن أنه سيصوم اهتزت الإمبراطورية البريطانية، وارتجفت كل الهند..

فى عام ١٨٦٩ وفى أسرة تنتمى إلى مستوى اجتماعى متميز بسبب ثراء الأب الذى كان يشغل وظيفة كبيرة بمثابة رئيس الوزراء أو الأمير عند المهراجا الذى يحكم ولاية جوجارت على الساحل الشرقى للهند، ولد موهانداس كرمشند غاندى..

وجريا على التقاليد السارية فى الهند فى ذلك الوقت بين الهندوس تزوج غاندى وهو فى سن الثالثة عشرة من فتاة كانت فى مثل سنه.

وفى سن الثامنة عشرة، وبعد أن أنهى غاندى تعليمه الثانوى، دفعه أبوه إلى تحدى القيود الطبقية التى كانت تسود الهند فى ذلك الوقت وأرسله إلى لندن لدراسة القانون.

وشاهد الشاب غاندى حياة الإنجليز فى بلادهم فأحبها، وبدأ يشعر بالفخر على أساس أنه من مواطنى هذه الإمبراطورية التى يظللها العلم البريطانى ولا تغرب عنها الشمس.. وارتدى غاندى ملابس البريطانيين وتعلق فى البداية بتقاليدهم والاندماج فى مجتمعهم، لكن تقاليده الهندوسية انتصرت على اتجاهاته التى ذهب فيها يقلد الإنجليز فأصبح نباتيا، وتحركت فى نفسه نوازع الرغبة فى رفض العنف والحروب.

◆◆◆

كان الشاب قد أكمل تعليمه القانونى وعاد إلى بلاده ليحلم بالمحاماة، ولكن إحدى المصادفات التى تعرض لها بعد فترة قليلة من عودته كان لها أكبر الأثر فى تغيير طريقه.

كانت ظروف الحياة القاسية فى الهند التى كانت تخضع للاستعمار البريطانى فى ذلك الوقت قد دفعت أكثر من مائة ألف من الهنود للسفر إلى جنوب إفريقيا، التى كانت فى ذلك الوقت جزءا من الإمبراطورية البريطانية، وذلك بحثا عن فرص العمل. وفى أحد الأيام أرسلت إحدى الشركات إلى غاندى تطلب إليه تمثيلها فى قضية أقامتها أمام إحدى المحاكم هناك. وسافر الشاب غاندى إلى جنوب إفريقيا وفى خطته الإقامة بضعة أسابيع ينتهى فيها من القضية، ولكن الذى حدث أنه أمضى هناك أكثر من عشرين سنة..

لقد صدمت غاندى صور التمييز العنصرى التى كان يمارسها البيض ضد الملونين سواء منهم السكان الأصليون السود، أو الوافدون من الهند.. ورأى غاندى مواطنيه محرومين من أبسط حقوقهم وأنهم يتعرضون للاضطهاد والمهانة فقرر أن تكون هذه هى قضيته الأولى.

وفى البداية اتجه غاندى إلى استخدام الأسلوب القانونى الذى تعلمه، وكتب عشرات التظلمات القانونية التى كانت تتسلمها السلطات البريطانية وتلقى بها فى سلال المهملات.. وانتقل غاندى إلى درجة أخرى من المقاومة فشكل حزب المؤتمر الهندى الذى يضم عددا من الهنود، ولكن النجاح لم يصادفه.. وفى دوامة البحث عن مجابهة الإمبراطورية القوية التى يواجهها توصل

غاندى لأول مرة إلى أسلوب المقاومة السلبية والعصيان المدنى الذى راح يعلمه لمواطنيه.. كان المطلوب من الهنود أن يرفضوا الانصياع لأوامر العمل والسخرة التى تصدر إليهم.. فلا يعمل الفلاحون فى المزارع، ولا يدخل العمال ورش المصانع ويبقون ساكتين.. ونجح هذا الأسلوب الذى نفذه مواطنوه الهنود فى شل حركة الاقتصاد هناك، فقررت السلطات تحطيم رأس العملية واعتقال غاندى.. ولكن الهنود كانوا قد تعلموا الدرس وظلوا ـ رغم دخول زعيمهم المعتقل ـ حريصين على الالتزام بتعاليمه..

ولم يكن الأمر سهلا.. فالعنصرية المتسلطة فى جنوب إفريقيا كانت تعتبر غير البيض حيوانات لا علاقة لهم بالبشر.. واحتاج الأمر أكثر من ٢٠ سنة حتى غير العنصريون سياستهم. وفى ٣٠ يونيو ١٩١٤ جلس غاندى ـ باعتباره الزعيم الروحى للهنود ـ مع رئيس وزراء جنوب إفريقيا لتوقيع اتفاقية ترفع بعض الظلم وترد بعض الكرامة للهنود فى جنوب إفريقيا. وكان من بين ما حصل عليه الهنود حق الاشتراك فى الانتخابات وتشكيل أحد الأحزاب والترشيح فى الانتخابات، وهى حقوق لم يحصل عليها المواطنون السود فى جنوب إفريقيا إلا فى عام ١٩٩٤، والتى انتهت بفوز مانديلا وتوليه الرئاسة لأول مرة فى تاريخ هذا البلد..

ومن جنوب إفريقيا عاد غاندى إلى بلاده الهند ليجد الصورة فى بلاده لا تقل عن صور القهر والتعسف والازدراء لمواطنيه والاحتقار التى حاربها فى جنوب إفريقيا.. وهكذا كان عليه أن يرتب نفسه لمواجهة المعركة الكبرى فى بلاده.. ليس فقط فى رفع الظلم عن مواطنيه وإنما أيضا تحرير كل هذا البلد من استعمار أكبر إمبراطورية فى العالم فى ذلك الوقت.

◆ ◆ ◆

لم تعرف أوروبا عن القارة الآسيوية إلا فى القرن الخامس عشر.. كانت السفن فى ذلك الوقت هى الوسيلة الوحيدة لاكتشاف العالم.. وكان ملوك البحار فى ذلك الوقت هم البرتغاليين والأسبان.. وفى طريقين متناقضين اتجهت سفن الدولتين.. فذهبت سفن البرتغال شرقا وتمكنت من الدوران حول رأس الرجاء الصالح والوصول إلى الهند، أما الأسبان فقد اتجهوا غربا وتمكنوا من الوصول إلى أمريكا، ثم اتجهوا غربا أكثر فوجدوا أنفسهم فى شرق آسيا وفى جزر الملايو..

وفى هذه الجزر الحارة القريبة من خط الاستواء تم اكتشاف التوابل التى تخلو أوروبا منها بسبب جوها البارد.. وقد كانت الملايو، التى تشمل اليوم إندونيسيا والفلبين وغينيا الجديدة وتايوان ومدغشقر، من الدول الغنية بالتوابل حتى أنه أطلق عليها «جزر التوابل».

وبسبب هذه التوابل، التى حركت شهية أوروبا وأسالت لعابها وجعلت الفلفل الأسود فى ذلك الزمان يعادل وزنه ذهبا، فإن كل دولة لها أسطول بحرى أصدرت أوامرها إلى قطعها بالاتجاه

إلى هذا العالم الجديد عليها، والذى كان العرب قد سبقوا فى الوصول إليه فى القرن الثالث عشر، ونشروا الإسلام فى عدد من المناطق ومنها شمال الهند، التى رسخ فيها المسلمون سيطرتهم..

ودخلت بريطانيا السباق ولكن بطريقة مختلفة، ففى عام ١٦٠٠ وافقت الملكة اليزابيث فى انجلترا على تأسيس شركة الهند الشرقية، التى وضعت هدفا لها - بالاشتراك مع شركة الهند الشرقية الهولندية - الاستئثار بتجارة التوابل فى الملايو وبأسلوبها الماكر تمكنت بريطانيا من الاستيلاء على الهند التى كانت فى ذلك الوقت تحت حكم أباطرة المغول، ولكنها تمكنت من استثمار ضعف الإمبراطورية المغولية.

وكى تسيطر انجلترا على الهند فإنها عملت على إنعاش الطبقة الإقطاعية وتحويلها إلى كرباج يلهب ظهور الأغلبية الفقيرة، فى الوقت الذى راحت تساعد فيه بطرق خبيثة على إثارة التطرف الدينى وتوسيع الفجوة بين الديانتين الرئيسيتين - الهندوسية والإسلام - وهو ما كانت له آثاره بعد ذلك فى تمزيق وحدة الهند وانفصال باكستان.

لسنوات طويلة ظل الشعب الهندى يتطلع إلى التحرر من الاستعمار الإنجليزى الذى أحكم قبضته على الهند بتقسيمها إلى ٧٠٠ ولاية، فى كل منها مقيم بريطانى يعتبر الحاكم الحقيقى لها، وكانت هذه الولايات تشغل ثلث الهند، أما الثلثان الآخران فقد كانا تحت حكم البريطانيين مباشرة، وكل موظفيه الكبار من الإنجليز، وعرف هذا الجزء الأخير بالهند البريطانية. وبهذا أصبحت السيطرة كاملة لإنجلترا على كل الهند فى الوقت الذى أساءت فيه معاملة المواطنين الهنود، فاشتعلت الثورات وبدأت الصدامات الدموية التى كان من أخطرها ما عرف باسم مجزرة أموريتسار يوم ١٣ أبريل عام ١٩١٩. كانت الأوامر الإنجليزية تقضى بمنع التجمعات ولكن عدة آلاف من الهنود تجمعوا فى ذلك اليوم فى إحدى الحدائق، وما إن عرف القائد الإنجليزى داير بهذا التجمع حتى صحب ٩٠ من قواته وعربتين مصفحتين واتجه إلى الحديقة التى تجمع فيها الهنود، ووقف بإحدى العربتين المصفحتين أمام باب الخروج الوحيد للحديقة، ثم بدون أى إنذار أو تمهيد أمر جنوده بإطلاق النار على جموع الهنود العزل من أى سلاح.. ولم يكتف الجنرال الإنجليزى داير بذلك بل أمر المصفحتين بإغلاق الطريق لمنع أى إسعافات لإنقاذ الجرحى والمصابين... وأسفرت المجزرة فى ذلك اليوم عن مصرع ٣٧٩ وإصابة ١٢٠٠.

لعبت هذه المجزرة دورا كبيرا فى غاندى الذى كان قد عاد إلى بلاده من جنوب إفريقيا وقرر أن مكانه الطبيعى للكفاح هو فى داخل الهند..

ولم يتخل غاندى عن حركته التى اشتهر بها فى جنوب إفريقيا والتى عرفت باسم الساتياجراها أو «المقاومة السلبية». وكما وصف جواهر لال نهرو الساتياجراها فإنها صحيح

أنها تخلو من العنف لكنها تقف موقفا حازما فى وجه الظلم. وإذا كانت فى جوهرها ثورة سلمية فإنها كانت أكثر الحروب أثرا فى زعزعة أركان الدولة. كانت وسيلة فعالة لإثارة الشعب ودفعه للعمل والكفاح، وقد انسجمت كليا مع طبيعة النبوغ الهندى وأظهرت فى الهنود خير مزاياهم وألبست عدوهم ثوب المذنب، وأنقذتهم من الخوف الذى كان يغشاهم ومكنتهم من رفع أصواتهم فلم يعودوا يخفون ما تكنه ضمائرهم، وأزاحت عن عقولهم غشاوة ثقيلة وربت فيهم احترام الحرية بالقول والعمل والثقة بالنفس والشجاعة.

لقد خلع غاندى ثياب المدينة وارتدى مئزره الذى صنعه بنفسه من القطن، وكان قد خصص كل يوم ساعتين ليغزل ثوبه.. فقد طلب من مواطنيه مقاطعة الأقمشة الإنجليزية وأن يرتدوا ما يصنعونه بأنفسهم.. وبهذه الثياب البسيطة نزل غاندى الميدان وحارب أكبر إمبراطورية فى ذلك الوقت، وواجه عمليات بالغة من التعسف والقهر والقمع كان يمارسها الإنجليز ضد شعبه إلى درجة أنهم كانوا يفرضون عليهم أن يزحفوا على بطونهم عندما يقتربون من أحد الأماكن. لأنه فى هذا المكان قتلت سيدة إنجليزية، وعلى الشعب الهندى كله أن يقدم لها كل فروض الطاعة والاحترام!!

وفى عام ١٩٢٢ بدأ غاندى حركة عصيان مدنى واسعة النطاق لقيت تأييدا شعبيا عارما، فاعتقلته السلطات الإنجليزية وحكم عليه بالسجن ست سنوات إلا أن السلطات الإنجليزية لم تتحمل الآثار التى أحدثها وجوده فى السجن طويلا فأفرجت عنه بعد عامين.

ولم يتوقف غاندى عن تحدى القوانين البريطانية وأشهرها، ما عرف بقانون الملح، وتحدى السلطات الإنجليزية وإشعال حملات العصيان المدنى الشاملة، وكل ذلك دون عنف، واستطاع بهذه الحملات أن يوجع الاقتصاد البريطانى ويهدد بالتوقف مصانع لانكشير.

يقول غاندى: إن عدم العنف ليس السكوت والسلبية، فالفرد الذى يعتنق هذا المدلول يجب أن يكون على استعداد للموت فى سبيله ولكن دون أن يقتل. ويقول غاندى أيضا: إن المرء لا يستطيع أن يفعل خيرا لبلده عن طريق إلحاق الأذى بنفسه أو بأسرته، كما أنه لا يستطيع أن يخدم بلاده عن طريق الإضرار بالعالم عامة، وفى التحليل النهائى للأمر فإننا نجد أننا يجب أن نموت نحن لتعيش الأسرة، وأن يضحى بالأسرة ليعيش الوطن، وأن يموت الوطن ليحيا العالم.

ورغم سجنه أكثر من مرة إلا أنه لم يغير عقيدته وأسلوبه.. وأصبح غاندى صديق كل هندى..

وكان ضروريا أن تنهار الإمبراطورية البريطانية تحت ضرباته السلمية وأمام سلاح الصيام الذى كان يهدد به.... وبدأت الاستعدادات لاستسلام بريطانيا والاعتراف باستقلال الهند، ولكنها ولمدة سنوات ظلت توسع فجوة الانقسام بين المسلمين والهندوس.. وطلب المسلمون أن تكون لهم دولة مستقلة وأعلن حزب الرابطة الإسلامية الحرب على الهندوس..

ولم يستطع غاندى أن يمنع انفصال باكستان عن الهند.. فقد كان يتمنى لو ظلت الهند كلها دولة كبيرة، وأن يعيش الهندوس والمسلمون فى محبة ووئام، وكان يردد فى تجواله: «ليس لى إلا هدف واحد هو أن يطهر الله قلوب الهندوس والمسلمين من الشكوك والمخاوف التى تراود كل طائفة منهما قبل الأخرى».

وفى مايو ١٩٤٧ نجحت بريطانيا فى إقناع زعماء حزب المؤتمر الهندى بقبول مطالب حزب الرابطة الهندية بشأن تقسيم الهند كشرط لانسحاب قوات الاحتلال البريطانى، وهكذا تم الاتفاق على تقسيم القارة الهندية إلى دولتين هما: الهند وباكستان. وفى ١٥ أغسطس ١٩٤٧ أعلنت الهند دولة حرة مستقلة ذات سيادة، ولكن غاندى رفض حضور الاحتفالات التى أقيمت فى العاصمة الهندية بهذه المناسبة، وسافر إلى كلكتا حيث كانت الصدامات الطائفية قد وصلت إلى قمتها بين الهندوس والمسلمين هناك.. ولكن ما إن وصل غاندى حتى حدثت المعجزة وتوقفت الصدامات التى كان لها سنة كاملة، وأعلن أبناء الطائفتين عزمهما على الحياة فى حب ووئام.. ولكن بعد فترة تجدد الصدام فأعلن غاندى الصوم وأنه لن يعدل عن صومه حتى تتوقف المصادمات..

وعاد غاندى إلى دلهى بعد أن تمكن من خفض درجة حرارة الصدامات الطائفية فى كلكتا، ولكنه وجد دلهى غارقة فى معارك طائفية دامية، فأعلن فى ١٣ يناير ١٩٤٨ بدء الصوم، وكان قد أشرف فى ذلك الوقت على الثمانين. ورفض غاندى أن يفحصه الأطباء، وكان قد وصل إلى حالة بالغة من الإعياء وهبط وزنه إلى نحو ٤٧ كيلوجراما.. وفى صبيحة يوم ١٨ يناير ١٩٤٨ هرعت إليه وفود الطوائف الهندية معلنة نزولها على مشيئته، وقدمت إليه الوفود وثيقة تاريخية أطلقوا عليها «وثيقة الوفاق والسلام».. ولما تليت الوثيقة على غاندى غلبه الانفعال وانهمرت الدموع من عينيه.. ثم نهض من رقدته وجلس فى فراشه يحيطه الصمت.. وبعد لحظات تحدث بصوت خافت فأعلن عدوله عن الصوم.

لقد انقسمت القارة الهندية.. وبدورها فيما بعد فى عام ١٩٧٤ انقسمت باكستان إلى دولتين: باكستان وبنجلاديش، وبينهما ظلت منطقة كشمير التى تقطنها أغلبية مسلمة، ولكن الهند ضمتها إليها مما أدى إلى دخول الهند وباكستان فى معارك مسلحة، توقفت بتدخل من الأمم المتحدة فى أول يناير ١٩٤٩ ولكن دون حل، وهذا ما أدى إلى بقاء العلاقات بين البلدين متوترة.

ولكن حتى فى حياته كان غاندى قد نجح فى إطفاء لهيب النار التى اشتعلت بين البلدين عقب استقلالهما..

كان غاندى يقيم فى دلهى فى بيت أحد أصدقائه واسمه بيرلى، وقد تعود أن يخرج مساء كل يوم لأداء الصلاة.. وكان يرفض أن يحيط به أى حرس..

وفى مساء يوم ٣٠ يناير ١٩٤٨ نظر غاندى إلى ساعة الحائط وقال لمرافقيه لقد جاء وقت الصلاة.. ومعتمدا على كتفى حفيدتيه آفا ومانو خرج غاندى كعادته بملابسه البسيطة وقدميه العاريتين اللتين اهتزت على وقعها أكبر الإمبراطوريات..

كان البوليس يعرف أن هناك أكثر من مؤامرة لاغتيال غاندى، وكان آخرها تلك التى رتبها أحد رجال الهندوس الذين يعادون الطائفة المسلمة، وقد استطاع تكوين عصابة من ثمانية أفراد اجتمعت يوم ١٩ يناير ١٩٤٨ وخططت لاغتيال غاندى.. ولكن العصابة اختلفت فى توزيع الأدوار بين أفرادها ومن يطلق النار ومن سيحمى تحركه. وتم القبض على أحد أفراد هذه العصابة وعلم البوليس بتفاصيل المؤامرة لكنه أخفاها عن غاندى، واجتمع أفراد هذه العصابة الذين لم يقبض عليهم مرة ثانية يوم ٢٩ يناير واختاروا شابا سنه ٣٦ سنة اسمه ناثوران جودس قرر أن يتكفل وحده بالمهمة .

وفى ذلك المساء الذى خرج فيه غاندى مستندا إلى كتفى حفيدتيه كان ناثوران فى انتظاره أمام الهيكل.. وعلى مسافة ثلاث خطوات قال ناثوران لغاندى: لقد تأخرت عن الصلاة اليوم يا مهاتما..

قال المهاتما - وهى كلمة من مقطعين أطلقها عليه أهله، ماها يعنى عظيم واتما يعنى روح، أى صاحب الروح العظيمة - قال نعم.. لقد تأخرت.

وسحب ناثوران مسدسه الصغير الذى أخفاه فى قميصه وأطلق منه ثلاث رصاصات: دخلت الرصاصة الأولى صدر غاندى، واخترقت الثانية والثالثة بطنه، وبغير أى شعور بالدهشة أو إحساس بالألم نظر غاندى إلى قاتله وطوى يديه كما تعود أن يصلى وهمس: أى رام، إشارة إلى الإله رام الذى يقدسه الهندوس! ولم يتكلم غاندى كلمة واحدة بعد ذلك.. سقط أمام باب المعبد وبسرعة تم نقله إلى بيت صديقه الذى كان يقيم فيه حيث مات بعد ساعتين..

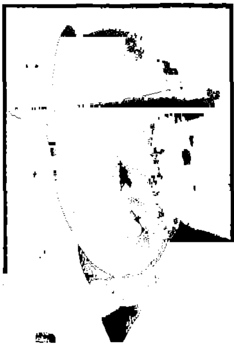
وأعلنت الهند الحداد عليه ١٣ يوما.. وفى اليوم التالى لوفاته تم إحراق جثمانه ولكن رماد الجثمان ظل محتفظا به فى أحد البنوك حتى تم فى ٢ أكتوبر ١٩٩٦ - فى مناسبة مرور ١٠٠ سنة على مولده - الاحتفال بذر هذا الرماد فى ملتقى نهرى الجانج ويامونا المقدسين لدى الهندوس..

ورغم مرور السنوات على رحيله إلا أنه استطاع أن يؤثر فى كثير من قادة حركات التحرير فى عصره وبعد عصره.. وكان من أشهر الذين أثر فيهم غاندى زعيم السود الأمريكيين مارتن لوثر كنج الذى قاد حركة مساواة السود بالبيض فى أمريكا.. ومن الغريب أنه أيضا اغتيل فى عام ١٩٦٨.. هل لأن العالم فى هذا القرن يكره السلام أم لأنه أصبح يدمن العنف؟!

■ زيارة إلى سنوات غاندى

- ١٨٦٩: مولد غاندى فى بلدة بوربا ندار بولاية جو جارت على الساحل الشرقى للهند.
- ١٨٨٢: زواجه من فتاة اسمها كاستور باى كانت فى الثالثة عشرة.
- ١٨٨٧: غاندى ينهى دراسته فى الهند ويسافر إلى لندن لدراسة القانون.
- ١٨٩٣: يسافر إلى جنوب إفريقيا بناء على طلب إحدى الشركات للترافع عنها فى إحدى القضايا فيجد نفسه فى صراع ضد التمييز العنصرى ويمضى ٢٠ سنة فى جنوب إفريقيا.
- ١٩١٤: يوقع اتفاقية مع رئيس وزراء جنوب إفريقيا بإلغاء المظالم التى يتعرض لها الهنود فى جنوب إفريقيا.
- ١٩١٩: يتم اختياره رئيسا لحزب المؤتمر الهندى بعد مذبحة أموريتسار.
- ١٩٢١: يخصص كل يوم بعض وقته لنسج ملابسه من القطن.
- ١٩٢٢: اعتقاله والحكم عليه بالسجن ٦ سنوات وأطلق سراحه بعد عامين.
- ١٩٣١: يشارك فى مؤتمر المائدة المستديرة الذى عقد فى لندن حول مستقبل الهند.
- ١٩٣١: القبض عليه مرة أخرى وسجنه ١٥ شهرا.
- ١٩٤٣: وفاة زوجته وأم أولاده الأربعة.
- ١٩٤٧: ١٤ أغسطس: يرفض المشاركة فى الاحتفال باستقلال الهند بسبب انفصال باكستان عنها.
- ٣٠ يناير ١٩٤٨: اغتياله على يد أحد المتطرفين الهندوس - من أبناء طائفته.





٤ ونستون تشرشل

أعظم سياسيى القرن كان تلميذا فاشلا..!

ليس هناك شخص يعيش فى ذاكرة الإنجليز من بين كل شخصيات القرن العشرين مثل ونستون تشرشل الذى قاد سفينة الإنجليز فى أسوأ فترة مرت عليهم حتى أنه بدأ كلامه إليهم عندما تولى رئاسة الوزراء بمقولته الشهيرة: ليس عندى لكم سوى العرق والدموع..

ولا أحد يعرف ماذا لو لم يكن ونستون تشرشل هو الذى واجه هتلر فى الحرب؟ هل كان من الممكن أن تنهزم بريطانيا؟.. لو حدث ذلك لتغير بالتأكيد وجه التاريخ، ولكن من حسن الحظ أن تشرشل هو الذى انتصر وغير تاريخ القرن العشرين لحسابه.

هو خليط إنجليزى أمريكى، فالأب اللورد راندولف تشرشل من الأصوليين الإنجليز، أما الأم فهى ابنة رجل أعمال أمريكى كان يعمل فى ميدان المال فى نيويورك، وقد استطاع جمع ثروة كبيرة، ولكنه فقدها فى البورصة. وعلى الرغم من العبقرية التى كشف عنها تشرشل من خلال قيادته بلاده فإن هذه العبقرية لم تكن لها أى دلائل تشير إليها فى خلال سنوات طفولته، بل على العكس كان كل من يتابع مسيرته يتوقع له مستقبلا كبيرا عنوانه الفشل.. فلم يكن ناجحا فى دراسته التى كان أبوه يريد أن تهيئه ليكون محاميا.. فقد كان الأب من المولعين بالسياسة واشترك فى تأسيس حزب المحافظين الديمقراطيين وأصبح أحد زعمائه، وكانت دراسة القانون فى ذلك العصر هى الطريق إلى السياسة، ولذلك كانت أمنية راندولف الأب أن يحصل ونستون الابن على شهادة القانون وهو ما لم يتحقق.. فقد كان ونستون يهرب من المدرسة ليجلس وحده أمام مجموعة كبيرة من اللعب التى تمثل صفوفا من الجنود يكوِّن منها جيشا لتواجه جيشا آخر يقوده أخوه الأصغر منه.. واستسلم الأب لرغبة ابنه وألحقه بكلية هارو ومنها إلى كلية ساند هيرست العسكرية.. وقد رسب ثلاث مرات حتى قبل بها، وكانت هذه المدرسة بالنسبة لأبيه آخر أمل فى

إنقاذ مستقبل ابنه الذى كانت نتائجه أثناء الدراسة تدل على الغباء والتخلف.. لكن كانت المفاجأة عندما انقلبت شخصية ونستون تماما أثر دخوله كلية ساند هيرست العسكرية، فقد انقلب هذا الشاب الكسول الذى يهرب من فصول الدراسة إلى شخصية مختلفة تماما.. فعلى غير العادة أظهر امتيازا فى دراساته العسكرية وغير ذلك أينعت زهور ميوله إلى السياسة، تلك التى كان يتمناها أبوه مما أكد أن الجينات التى ورثها عن أبيه قد أثمرت فعلا.. لكن من سوء الحظ أن أباه مات وونستون فى سن الحادية والعشرين، ولم يقدر له أن يعيش حتى يرى الدرجة العالية التى وصل إليها ابنه، والتى حقق فيها فى مجال السياسة ما لم يكن يحلم به الأب نفسه.. ففى سن السادسة والعشرين (عام ١٩٠٠) رشح نفسه فى انتخابات مجلس العموم على مبادئ حزب أبيه (المحافظين).. وفى داخل المجلس لفت إليه الأنظار بقدراته الخطابية وانحيازه الكامل للحريات، الأمر الذى أدى به إلى الاختلاف مع زعيم الحزب وتركه حزب المحافظين والانتقال إلى حزب الأحرار.. وفى انتخابات ١٩٠٦ فاز حزب الأحرار فوزا كبيرا، وعين تشرشل وكيلا لوزارة المستعمرات. وبعد أربع سنوات بدأ طريقه الوزارى عندما عين وزيرا للداخلية، وبعد عام (فى نوفمبر ١٩١١) انتقل إلى منصب وزير البحرية حيث قام بتطوير الأسطول البريطانى، الأمر الذى جعل هذا الأسطول فى وضع الاستعداد الكامل عندما بدأت الحرب العالمية الأولى.. وهكذا كتب لتشرشل أن يكون أحد أسباب نصر بريطانيا فى الحرب العالمية الأولى، كما كان بعد ذلك أحد أهم أسباب انتصارها فى الحرب العالمية الثانية.

فى ١١ مايو ١٩٤٠، وبعد سبعة أشهر من غزو هتلر لبولندا ثم الدانمرك والنرويج، وضح للإنجليز عدم قدرة رئيس الوزراء تشمبرلين على مواجهة الموقف. بادر تشمبرلين بتقديم استقالته عندما هاجم هتلر هولندا وبلجيكا . وعلى أثر ذلك دُعى ونستون تشرشل لتشكيل وزارة حرب.. وفى أول خطاب له فى مجلس العموم وقف تشرشل يخاطب شعبه قائلا: ليس لدى ما أقدمه لكم سوى الدماء والدموع والعناء والعرق..

كانت أول معركة خاضها تشرشل ضد هتلر هى معركة دنكرك التى تمكن فيها من إنقاذ ٢٠٠ ألف جندى كانوا فى الأراضى الفرنسية عندما غزا هتلر فرنسا، وقد حاول هتلر حصارهم للقضاء عليهم ولكن تشرشل تمكن من استعادتهم وقد عادوا إلى وطنهم مخلفين ما كان معهم من معدات ومدافع لا يحملون سوى البنادق، ولكن مجرد عودتهم كانت أول نصر لبريطانيا فى الحرب.

□ معركة العلمين

بعد معركة دنكرك جاءت معركة الدفاع عن القاهرة ومحاولة القوات الألمانية اجتياح الأراضى المصرية للوصول إلى قناة السويس واستماتة تشرشل لمنع تحقيق ذلك مهما يكلف ذلك، حتى لو

وصل الأمر ـ كما كان معدا بالفعل ـ إلى نسف جميع الكبارى فى القاهرة، وفتح خزان أسوان وعدد من السدود الأخرى على نهر النيل لغمر الدلتا بالمياه وسد الطريق أمام القوات الألمانية.

بدأت معركة الأراضى المصرية منذ سبتمبر عام ١٩٤٠ عندما هاجم الجيش الإيطالى ـ بقيادة الماريشال رودلفوجر انسيانى الذى كان موجودا فى ليبيا ـ الأراضى المصرية، وتوغل فيها مسافة مائة كيلومتر حتى وصل إلى منطقة سيدى برانى.

وردا على ذلك صدرت الأوامر إلى القوات البريطانية الموجودة فى منطقة الدلتا بالتوجه إلى الصحراء الغربية ومنع القوات الإيطالية من التقدم وإجبارها على التراجع، وهو ما حققته هذه القوات بقيادة الجنرال ارشيبالد ويفل بالفعل بنجاح كبير، سواء من حيث المدة الزمنية إذ لم يستغرق الأمر سوى نحو أسبوع، أو من حيث النتائج فقد تمكنت القوات البريطانية من طرد القوات الإيطالية من الأراضى المصرية بعد أن حطمت لها خمس فرق وأسرت ٢٨ ألف جندى وضابط إيطالى. ولم تتوقف القوات البريطانية عند الحدود المصرية بل واصل الجنرال ويفل تقدمه إلى مسافة ٨٠٠ كيلومتر داخل الأراضى الليبية محطما الجيش الإيطالى، وأسر أكثر من ١٣٠ ألف ضابط وجندى واحتل كل برقة..

كانت النتيجة تبدو نشازا بالنسبة لسير العمليات الحربية التى تعودت فيها القوات الألمانية والإيطالية على التقدم واجتياح ما يواجهها دون تراجع.. ولهذا فإنه نتيجة هذه التطورات تقرر قيام ألمانيا بدعم جبهة الصحراء الغربية بالقوات اللازمة، وتولى واحد من أكفأ الضباط قيادتها وهو الجنرال ارفين روميل، الذى بدأت شهرته فى أثناء اجتياحه فرنسا. كان من بين الشروط التى اشترطها روميل تفويض الرئيسين الألمانى هتلر والإيطالى موسولينى له تفويضا كاملا طبقا لما يقتضيه الموقف.. وبالفعل نجح روميل ـ الذى تولى قيادة جبهة الصحراء اعتبارا من ١٢ فبراير ١٩٤١ ـ على إجبار قوات الجنرال البريطانى ويفل على التراجع ومحاصرته فى ميناء طبرق..

وضع تشرشل تركيزه على ما يحدث فى هذه الجبهة فقد كان اعتقاده أن الدفاع عن القاهرة يسبق الدفاع عن أى نقطة أخرى فى كل العالم..

كان من أول الإجراءات التى اتخذها تشرشل تغيير الجنرال ويفل ووضع الجنرال «أو كنلك» على رأس القوات البريطانية فى الشرق الأوسط (٢ يوليو ١٩٤١) وقد استطاع «أو كنلك» بعد مناورات شديدة فك الحصار الألمانى على طبرق، والتقدم داخل الأراضى الليبية إلى ناحية مدينة بنغازى.. ولكن الجنرال الألمانى روميل لم يتركه ينعم طويلا بانتصاراته، ففى يناير ١٩٤٢ بدأ روميل هجوما مضادا أعد له إعدادا جيدا.. وما إن هل شهر يونيو (١٩٤٢) حتى كان روميل قد اندفع بجيوشه داخل الحدود المصرية واحتل مرسى مطروح..! وتراجعت القوات البريطانية أمام جيوش روميل بعد أن خسرت أكثر من ٥٠ ألفا ما بين أسير وقتيل، وكمية ضخمة من المدافع والذخيرة والسيارات والمخازن المليئة بالمعدات.

لم يتمالك تشرشل نفسه من الإعجاب بخصمه روميل فقال فى مجلس العموم وهو يستعرض سير العمليات الحربية: يجب علينا أن نعترف أن أمامنا قائدا ماهرا شجاعا واسمحوا لى أن أقول وسط دمار الحرب إنه قائد عظيم.

فى ٣٠ يونيو ١٩٤٢ وجه تشرشل إلى الوزير البريطانى المقيم فى الشرق الأوسط ومقره القاهرة، تعليمات نصها: على كل من ارتدى البذلة العسكرية أن يحارب ويدافع عن القاهرة كما لو كان يدافع عن أى مقاطعة بريطانية ضد أى غزو للعدو.. وفى ٣ أغسطس (١٩٤٢) زار تشرشل القاهرة وزار القوات البريطانية فى الصحراء الغربية، ثم زارها بعد ذلك مرة ثانية فى ١٩ أغسطس بعد أن أصدر القرار الذى غير سير المعارك بتعيين الجنرال مونتجمرى قائدا للجيش الثامن الذى يتولى مهمة الحرب فى الصحراء الغربية..

فى مساء يوم ٢٣ أكتوبر (١٩٤٢) وفى ليلة قمرية اطمأنت فيها القوات الألمانية على أنها ليست ليلة حرب ومعارك، أصدر مونتجمرى أوامره إلى ألف مدفع بتوجيه ضرباتها دفعة واحدة على مواقع مدافع الألمان والطليان لمدة عشرين دقيقة.. وبعد ذلك حول هذه المدافع إلى خطوات قوات المشاة.

كان من حظ مونتجمرى أن الجنرال روميل نقل إلى المستشفى فى ألمانيا للعلاج من مرض هاجمه، وبناء على أمر هتلر ترك روميل المستشفى وعاد إلى مقر قيادته فى الصحراء الغربية يوم ٢٥ أكتوبر. ولكن كان مونتجمرى قد استطاع إعداد قوته للهجوم إعدادا جيدا، خاصة بعد أن تمكن من بناء سلاح قوى للطيران، فتمكن فى ١٢ يوما من اجتياح مواقع الألمان والطليان، وتشريدهم فى الصحراء وأسر أعداد كبيرة من بينهم مساعد روميل الجنرال فون توما وتسعة جنرالات إيطاليين و٣٠ ألف جندى واستولى على كميات ضخمة من المعدات.

كانت معركة العلمين وانتصار قوات مونتجمرى على قوات روميل بداية زحف ـ مونتجمرى ـ الناجح عبر ليبيا بأكملها حتى الحدود التونسية ثم منها إلى ايطاليا.. حتى قيل بحق: قبل العلمين لم يحصل البريطانيون على نصر، وبعد العلمين لم يصب البريطانيون بهزيمة!

□ معركة بريطانيا الجوية

بعد انهيار فرنسا وخروجها من الحرب أصبحت بريطانيا وحدها أمام جحافل هتلر، وبسبب ظروف بريطانيا الجغرافية كجزيرة وضع هتلر تخطيطا جديدا لغزوها بدأ بتوجيه آلاف الطائرات فى غارات مكثفة أمطرت المدن الإنجليزية بوابل من القنابل.

وكان غرض هتلر من ذلك إرهاب بريطانيا وتدمير بنيتها الأساسية وإضعافها تمهيدا بعد ذلك لغزوها عن طريق البحر.. ولكن تشرشل رد على طائرات هتلر بإشعال روح المقاومة فى الشعب

الإنجليزي: «إننا سنحارب.. سنحارب على الشواطىء وعلى أرصفة الموانىء.. سنحارب فى الحقول وفى الطرقات.. وحتى إذا ما احتلت هذه الجزيرة أو احتل جزء كبير منها وتوقفت الحياة فيها ـ وهو الأمر الذى لا أعتقده للحظة واحدة ـ فإن إمبراطوريتنا وراء البحار ستحمل لواء المعركة».

وقد لعبت معركة الطيران ضد بريطانيا دورا تاريخيا فى مسيرة الاكتشافات، فقد نجحت بريطانيا فى اكتشاف الرادار الذى مكنها من كشف الطائرات الألمانية وإسقاطها بكثافة مما جعل هتلر يتراجع عن غاراته الجوية.. وأدى ذلك إلى توصل ألمانيا إلى اختراع الصواريخ، إلا أن صمود بريطانيا فى المعركة الجوية وعدم نجاح هتلر فى تحقيقه أهدافه منها رفع الروح المعنوية للإنجليز، وجعل ونستون تشرشل يسجل انتصاره الثالث ضده بعد معركة دنكرك ومعركة العلمين..

وفى خلال ذلك كانت اليابان قد ارتكبت الغلطة الكبرى عندما قامت الطائرات اليابانية بضرب الأسطول الأمريكى فى ميناء بيرل هاربور فى ٧ ديسمبر ١٩٤١، الأمر الذى أدى إلى إعلان الولايات المتحدة دخول الحرب، وكان هذا فى حد ذاته أمنية كبيرة لتشرشل، فقد كان يعرف أهمية دخول أمريكا هذه الحرب وتقوية جبهة الحلفاء فى مواجهة هتلر، وهو ما تحقق بالفعل وانتهى إلى استسلام ألمانيا (٧ مايو ١٩٤٥). وبعدها اليابان (١٤ أغسطس ١٩٤٥).

قاد تشرشل بلاده إذن إلى النصر فى أكبر حرب واجهتها، وبعد شهرين اثنين من نهاية الحرب جرت انتخابات فى بريطانيا كان المتوقع أن يسجل فيها حزب المحافظين ـ برئاسة تشرشل ـ اكتساحا فكيف لا وهو الذى ارتسم فى ذهن ملايين الإنجليز من خلال صورته الشهيرة التى يرفع فيها أصبعيه علامة النصر؟! ولكن كانت المفاجأة عندما حصل حزب العمال المنافس على الأغلبية التى تمكنه من حكم بريطانيا، وقيل: إن الناخب الإنجليزى خاف من شعور العظمة التى سيشعر بها تشرشل لو ظل ممسكا بدفة القيادة بعد انتصاره فى الحرب، فسيصبح حاكما ديكتاتورا.

خرج تشرشل من الحكم إلى المعارضة لكنه عاد مرة أخرى إلى رئاسة الوزراء عقب فوز حزبه «المحافظين» فى انتخابات ١٩٥١ وظل فى منصبه إلى أن وصل إلى سن الثمانين فى عام ١٩٥٥ فقدم استقالته واختفى عن الأضواء، وفى بداية عام ١٩٦٥ أصيب بجلطة فى المخ وتوفى فى ٢٤ يناير عن سن تتجاوز التسعين عاما...

كان تشرشل خطيبا مؤثرا، وكان عدوا كبيرا للشيوعية ورغم تاريخه العظيم الذى توجه بالانتصار فى الحرب، ورغم انحيازه للحريات فى داخل بلاده، فإنه كان استعماريا شديدا يريد الإبقاء على إمبراطورية بريطانيا فى كل مكان، ولا يريد الاعتراف بحق شعب من شعوبها فى الحرية والاستقلال. فقاوم منح الهند الحكم الذاتى، وقاوم حصول مصر على حريتها.

تبقى الإشارة إلى ناحية أخرى تميز بها تشرشل وهى السيجار؛ فقد كان تشرشل من مدمنى السيجار إلى درجة كانت تندر فيها رؤيته بدون السيجار بين أصابعه أو بين شفتيه. كما أصبح اسمه يطلق على واحد من أفخر وأطول أنواع السيجار.

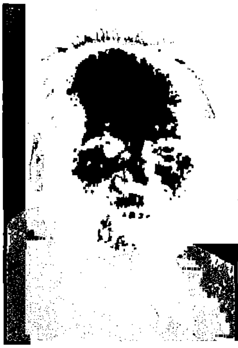
وقد استخدم أنصار التدخين تشرشل كنموذج ليحاربوا به مقولة أضرار التدخين، فهذا هو رجل ظل يدخن حتى تجاوز التسعين مما يعنى أن التدخين ليس كما يقال ضارا بالصحة! والحكاية أبسط كثيرا من هذا الافتراض. فالطبيعة البشرية ليست خطا مستقيما، وقد كان تشرشل استثناء من قاعدة تأثر الإنسان بالتدخين.. إنها نفس الاستثناءات التى نراها بالنسبة للقلة التى لا تتأثر بالتيار الكهربائى أو الذين يكفيهم نوم ٣ ساعات يوميا، أو الذين لا يؤثر فيهم البرد أو يأكلون دون أن يسمنوا.. وغير ذلك من ظواهر مختلفة.. ولكن فى مقابل كل استثناء واحد هناك كثيرون يخضعون للقاعدة العامة.. ففى مقابل تشرشل واحد كانت له القدرة على التدخين حتى عاش إلى سن الـ٩٢ فإن هناك ١٠٠ ألف دخنوا أقل من تشرشل ولكنهم تعذبوا فى حياتهم بسبب التدخين، وكان التدخين وآثاره المجرمة هو القاتل..

لقد كان تشرشل شخصية فريدة، ولهذا سجل اسمه فى قائمة الذين غيروا القرن العشرين الذى عاشوا فيه.. وإلى أن يكتشف الطب «جينات تشرشل» التى يمكن أن تعطى مناعة ضد أمراض السرطان والقلب والسكر والضغط وغيرها، سيظل التدخين ضارا جدا بالصحة وسيظل تشرشل استثناء.

■ زيارة إلى سنوات تشرشل

الاسم كاملا: سير ونستون ليونارد سبنسر تشرشل.

- ١٨٧٤: ٣٠ نوفمبر : المولد.
- ١٨٩٤: تخرج فى كلية ساندهيرست العسكرية وعين ضابطا بالجيش.
- ١٨٩٨: اشترك فى الحملة العسكرية التى قادها كتشنر لإخماد ثورة الدراويش فى السودان.
- ١٩٠٠: نجح فى انتخابات مجلس العموم البريطانى.
- ١٩٠٨: عين وزيرا للتجارة ثم عين وزيرا للحربية فى العام التالى.
- ١٩٤٠: ١٠ مايو : عين رئيسا لوزارة الحرب القومية.
- ١٩٤٥. ٢٥ يوليو : سقوطه فى الانتخابات رغم انتصاره فى الحرب
- ١٩٥٠: يعود رئيسا للوزارة.
- ١٩٥٣: منحه جائزة نوبل فى الأدب، عن المجلدات الستة التى كتبها عن الحرب العالمية.
- ١٩٥٥: استقالته من رئاسة الوزارة.
- ١٩٦٥: ٢٤ يناير : وفاته.



٥ مـاو تـسى تـونج

١٠٠٠ مليون فوق رأس العالم..!

مثل كل الثوار الذين غيروا تاريخ بلادهم وتاريخ العالم، يحتل كفاح ماو تسى تونج مجلدا ضخما حافلا بالأعمال العديدة، والحروب والمواجهات والمؤامرات حتى ليحتار الذين يكتبون عنه ماذا يبرزون وماذا يتركون.. فقد بدأ نضال ماو وهو فى سن صغيرة متأثرا بالظروف التى نشأ فيها إقليميا، وبالأوضاع التى كانت تعيشها الصين ـ أكبر دول العالم تعدادا فى السكان. وإلى ماو يعود الفضل الأكبر فى توحيد مقاطعات هذه الدولة بعد حرب دامية، ليصبح هناك ما يعرفه العالم باسم جمهورية الصين الشعبية..

ورغم أن الولايات المتحدة ناصبتها العداء وحرمتها من التمثيل فى الأمم المتحدة، وأعطت مقعدها لفورموزا أو تايوان ـ كما هو اسمها الحالى ـ وهى عبارة عن نقطة صغيرة بالمقارنة لحجم الصين، فإن ماو استطاع بسياسته أن يأخذ حق بلاده كاملا، لتصبح إحدى الدول الخمس الدائمة فى مجلس الأمن التى لها حق الفيتو على أى قرار. وعندما مات اختلف المحللون على ماو وعلى الأعمال التى قام بها، لكن أحدا لم يختلف على أنه كان مؤسس الصين الحديثة التى تتجه اليوم بخطوات ثابتة إلى مقعد القمة فى القوى التى تحكم العالم..!

وفى بلد مثل الصين وفى زمن مختلف تماما عن الزمن الذى نعيشه اليوم، لم تكن هناك دفاتر أو سجلات.. وعندما أصبح ماو تسى تونج نجما مشهورا بحث المحللون عن تاريخه فوجدوا أنه مثل ملايين الصينيين من سواقط القيد، وإن كان قد اتفق على أن مولده يعود إلى ٢٦ ديسمبر عام ١٨٩٣.. وإذا كان هناك شك فى تاريخ مولده فإن المؤكد أن ماو مات فى سبتمبر ١٩٧٦ عن ٨٣ عاما فى الأغلب.

ولد ماو في جنوب الصين، وكان أبوه عسكريا سابقا، ومن أصحاب الإقطاعيات الزراعية الذين يمارسون تسخير الفلاحين.. وفي سن صغيرة عمل ماو في الزراعة على أساس أن ينضم لطابور الفلاحين مثله مثل ملايين الفلاحين الآخرين، ولكن بسبب ثراء الأسرة التي ينتمي إليها فقد تم إرساله إلى المدرسة.. ولعشق ماو للعمل اليدوي فإنه جمع بين الفلاحة والمدرسة.. ففي الفترة الصباحية فلاحا، وفي فترة ما بعد الظهر تلميذا.. وعندما تعلم ماو القراءة جذبته الكتب فابتعد عن العمل كفلاح، ولكن ترسب في داخله حبه للفلاحين وإحساسه بإنتمائه إليهم وبأهميتهم، وهو ما أثر على أفكاره بعد ذلك عندما قاد الثورة وجعل وقود ثورته الفلاحين في القرى وليس العمال في المدن، كما تقول النظرية الماركسية.

كانت الصين في سنوات طفولة ماو تصارع الحكم الإمبراطوري الذي كان يسخر الصينيين ويتعامل معهم كحشرات.. وفي أتون الصراع الدائر في الصين في ذلك الوقت ظهر صن يات سن الذي استطاع أن يوحد القوى الثائرة في الصين، ويوحد ما بين المقاطعات للانقلاب على الإمبراطور..

كانت الصين تنقسم إلى ١٨ مقاطعة، نجح صن يات سن في توحيد ١٢ منها إلى جانبه، وبقيت خمس مقاطعات في الجنوب، وراح يفاوض نائب الإمبراطور - واسمه يوان شيه كاي - على صفقة يتم بموجبها قيام يوان باقناع الإمبراطور بالتنازل عن العرش، وفي هذه الحالة يتخلى صن يات سن ليوان عن الرئاسة.

وفي ١٢ فبراير ١٩١٢ تخلى الإمبراطور عن العرش، وتخلى صن يات سن نتيجة لذلك ليوان عن رئاسة الجمهورية التي كانت تضم ١٣ مقاطعة أصبحت برحيل الإمبراطور تضم كل الصين. ولكن يوان سرعان ما انقلب على الجمهورية ووجه كل جهوده لمحاربة صن ومطاردة أعضاء حزبه مما اضطر صن إلى اللجوء إلى اليابان. واشتعلت حرب أهلية جديدة بين أنصار صن وأنصار يوان.. ورغم وفاة يوان في عام ١٩١٦ فإن موته لم يؤثر على وحدة الصين، بل ازدادت تفككا وانقساما.. ونتيجة لذلك قرر صن أن يعود إلى الصين وأن يعمل على بناء قوة عسكرية منظمة تنطلق من الجنوب، وبالتحديد من كانتون التي كون فيها حكومة عسكرية هدفها إعادة توحيد الصين. وقد ساعدت الثورة السوفيتية - التي نجحت عام ١٩١٧ - صن وقدمت له الدعم العسكري في الوقت الذي راح الشيوعيون ينضمون فيه إلى حزب الشعب (الكومنتانج) الذي أسسه صن، ولعبوا دورا متزايدا في قيادة النضال.. وأوشك صن على تحقيق حلمه ولكنه مات فجأة (عام ١٩٢٥) وخلفه في رئاسة الدولة تشانج كاي تشيك، الذي نجح في توحيد الصين مؤقتا، ولكنه بالاتفاق مع الولايات المتحدة انقلب على الشيوعيين وطردهم من الكومنتانج.

وفي ظل هذه الظروف والتطورات والأحداث نما ماو تسي تونج، الذي كان قد انضم إلى أول مجموعة من الشباب تدرس الماركسية في جامعة بكين.. وفي عام ١٩٢١ - في أثناء حياة صن

وكفاحه من أجل توحيد الصين ـ كونت هذه المجموعة الحزب الشيوعى الصينى، وكان عدد أعضائه ٥٧ عضوا، كان منهم مع ماو ليوتشاوشى ـ الذى تولى فيما بعد رياسة الصين ـ وانقلب عليه ماو، وشواين لاى الذى تولى رياسة الحكومة.

كان ماو قد شهد الثورة فى صباه فانضم إلى صن يات سن فى كفاحه من أجل طرد الإمبراطور، ثم بعد أن كون الحزب الشيوعى انضم مرة أخرى إلى صن لإعادة توحيد الصين، إلى أن جاءتشانج كاى تشيك ووقف موقف العداء من العناصر اليسارية وطاردهم فى عدة مجازر فى شنغهاى وكانتون، فاضطر ماو عام ١٩٢٧ إلى الهرب إلى الجبال، حيث بدأت مرحلة جديدة من نضال ماو الذى كان قد تجاوز سن الثلاثين فى ذلك الوقت.

وفى الجبال ألف ماو فرقة من الشيوعيين كان معظمهم من الفلاحين، فقد آمن ماو بأن الفلاح هو الركيزة الأساسية للثورة، على عكس المفاهيم الماركسية، وذاعت شهرة ماو عندما أرسل تشانج كاى تشيك قوة من ثلث مليون مقاتل للقضاء على ماو وزمرته، ولكن ماو كان قد نجح فى تحويل هذه الزمرة إلى جيش نظامى تمكن من هزيمة قوات كاى تشيك وردها على أعقابها.

وفى عام ١٩٣٩ أعلن ماو إنشاء جمهورية شيوعية فى الجبال، ولكن كاى تشيك لم يتركه فجند له قوات ضخمة انسحب على أثرها ماو من الإقليم الذى أنشأ فيه جمهوريته.. وبعد مسيرة ستة آلاف ميل فى دولة تبلغ مساحتها نحو عشرة ملايين كيلو متر مربع ـ وعرفت مسيرته هذه باسم «المسيرة الكبرى» ـ استقر ماو فى إقليم شانس الذى اتخذه قاعدة للانطلاق إلى تحقيق أهدافه فى تحرير الوطن الصينى من الأجانب، وإقامة نظام اشتراكى يكفل بناء الصين الجديدة.. إلا أن ماو اضطر فى عام ١٩٣٧ ـ عندما غزت اليابان الصين ـ أن يدخل فى جبهة متحدة مع كاى تشيك ضد العدو اليابانى.. وعقب استسلام اليابان فى الحرب العالمية عام ١٩٤٥ دخل ماو، الذى أصبح زعيما منتخبا للحزب الشيوعى، فى مواجهة مع كاى تشيك ومن ورائه الولايات المتحدة.

وكعادته ركز ماو على صغار الفلاحين وعلى الشباب المتعلم فكون منهم جيشا اكتسح جنوب الصين وبدأ الزحف إلى الشمال..

كان تشيك يحكم الصين بالحديد والنار، وكان ماو يمثل الأمل للفلاحين والمواطنين، فأخذت المقاطعات تفتح له أبوابها حتى اضطر كاى تشيك إلى الانسحاب إلى فورموزا (تايوان حاليا وهى جزيرة مساحتها نحو ٢٠ ألف كيلومتر مربع، فى حين تبلغ مساحة الصين ١٠ ملايين كيلو متر مربع) حيث كون دولة الصين الوطنية.

وفى ٣٠ سبتمبر ١٩٤٩ وصل الزحف الأكبر بقيادة ماو إلى بكين، وفى ميدان تيان آن مين ـ أكبر ميادين بكين ـ أعلن ماو على العالم مولد جمهورية الصين الشعبية، التى انتخب ماو فى أكتوبر من نفس العام أول رئيس لها.

لقد انتهت فترة الثائر فى الجبال والقائد العبقرى فى تحريك طوابير الجنود الذين أعدهم من الفلاحين، وانتصرت الثورة وتوحدت الصين لأول مرة فى تاريخها، وانتهت صراعات دامت آلاف السنين، وبدأ الثوار يصبحون حكاما ـ وكثير من الثوار يفقدون توازنهم عندما يجلسون على مقاعد السلطة وتحيط بهم مظاهر الأبهة ـ ولكن ماو كان حريصا، خاصة فى السنوات الأولى، على ألا يذوب فى بلاط السلطة، ويتحول إلى حاكم يمارس السلطة ومظاهرها بصرف النظر عن أى شىء آخر.. كانت الحقيقة التى واجهته أنه إزاء كم من السكان لا مثيل له فى أى دولة أخرى، وأن هذا الشعب فقير وأنه إذا لم يلمس إصلاحات تحققها له الثورة التى ضحى بالملايين من أجلها، فإن وحدته حتما ستتمزق ويدخل فى صراعات وحروب أهلية من جديد.. وبسبب طبيعة ماو الريفية فإنه بدأ أولا بالتركيز على الزراعة على أساس أنها الباب الوحيد لتحقيق احتياجات هذه الملايين من الغذاء.. وقد انتزع ماو الأرض من ملاكها وأعاد توزيعها على صغار الفلاحين، الذين وجد ٣٠٠ مليون منهم أنهم أصبحوا يملكون ١٢٠ مليون فدان.. ولخوف ماو من تفتت الملكية والآثار الخطيرة التى يمكن أن يحدثها ذلك على الإنتاج الزراعى فإنه اتجه إلى نظام التعاونيات والكوميونات بحيث أصبحت هذه الكوميونات هى المسئولة عن مختلف أوجه الحياة فى الريف من إدارية واجتماعية واقتصادية وحتى عسكرية، فقد أصبح كل كوميون كما لو أنه حكومة مستقلة ألغت تماما الملكية الفردية وواجهت مشاكل أفرادها من خلال تعاونهم على حلها..

ولكن ماو وجد أن النهضة الزراعية لن تحقق وحدها تقدم الصين، خاصة بعد أن دخل فى صراع مع الاتحاد السوفيتى وصل إلى حد القطيعة، واتهام كل طرف الآخر بأنه خان المبادىء الشيوعية.

وجد ماو أن صراعه، سواء مع موسكو أو مع واشنطن، يقتضى أن يحقق نهضة صناعية تكنولوجية ركز عليها تركيزا شديدا مما أثر على القطاع الزراعى وتعرض هذا القطاع إلى خسائر كبيرة.

وأطلق ماو على قفزته إلى الصناعة اسم «الوثبة الكبرى»، وقد أدت هذه الوثبة إلى انهيار الإنتاج الزراعى، مما أدى مستقبلا بعد وفاته إلى إضعاف سلطة ماو، والمجىء بخصومه الذين أبعدهم فى فترة الثورة الثقافية.

ومع ذلك يسجل لماو والمجموعة التى اعتمد عليها فى تحقيق الوثبة الكبرى أنه جعل من الصين قوة نووية، ففى عام ١٩٦٤ فجرت الصين أول قنبلة ذرية، وفى خلال ثلاث سنوات بعد ذلك أجرت سبع تجارب نووية، وأصبحت الصين بذلك قوة نووية كبرى.

وكان من بين مشاغل ماو والمجموعة التى اشتركت معه فى الزحف الطويل الذى مكن الثورة من الانتصار على قوات تشانج كاى تشيك، المحافظة على النقاوة الثورية لحزبهم، وحماية المناضلين من إغراءات السلطة، ونتيجة لذلك عمد ماو ومجموعته إلى القيام من حين لآخر بحملات

على نطاق الحزب والشعب تحت عناوين مختلفة.. ففى عام ١٩٥٢ كان عنوان الحملة محاربة الأعداء الثلاثة: الفساد والإسراف والبيروقراطية، وفى عام ١٩٥٥ أصبح عنوان الحملة «مقاومة الانحراف الثقافى»، ثم فى العام التالى ـ ١٩٥٦ ـ كان عنوان الحملة «دعوا مائة زهرة تتفتح».

ولفترة انشغل ماو بعد ذلك بالقفزة الكبرى التى أوجدت الكوميونات الشعبية والقفزة الصناعية والخلافات مع الاتحاد السوفيتى.. وفى هذه الفترة عزلت الصين نفسها عن العالم الخارجى حتى لا تترك المجال ـ حسب تصريحات المسئولين فيها ـ لتسرب الأفكار الرأسمالية والتحريفية، أى السوفيتية، وبذلك جمع ماو عداءه للرأسمالية وللشيوعية السوفيتية فى إناء واحد..

وحتى عام ١٩٦٦ كانت مشاكل الزراعة قد بدأت تصبح نقطة ضعف يمكن من خلالها توجيه الانتقادات إلى ماو وسياسته.. ولكن ماو المدرب والخبير، بدأ بالهجوم على أعدائه والقضاء عليهم من خلال ما أسماه «الثورة الثقافية».

واعتمد ماو فى هذه الثورة على جموع الطلبة والشباب على أساس أنهم قوة كبيرة ضخمة يسهل توجيهها، وفى الوقت نفسه لا يؤثر تفرغها لهذه الثورة على الإنتاج.

وقد قامت هذه الثورة لمواجهة ممثلى البورجوازية الذين تسللوا إلى الحزب وإلى الدولة وإلى الجيش وإلى قطاعات الميدان الثقافى.. وفى أول يونيو ١٩٦٦ أعطى ماو إشارة انطلاق هذه الحرب ضد خصومه بإعلانه الموافقة على إصدار أول جريدة على الحائط كتبتها أستاذة فى جامعة بكين ضد رئيس الجامعة، وعلى الفور تهاوى رئيس الجامعة وسقط.

ومن كل أنحاء الصين توافدت إلى بكين جموع الطلاب والشباب للحصول على بركة القائد الأعلى الذى لا تغيب عنه الشمس ـ ماو.. وأصبح كل شاب وكل فتاة عضوا فى الحزب الأحمر الذى يحمى الثورة ويطبق تعاليم ماو..

وقد كان من حظى أن زرت الصين فى ديسمبر ١٩٦٦ فى عز الثورة الثقافية، وشاهدت الملايين من الشعب الصينى وهم يرتدون جميعا بغير تفرقة بين رجل وامرأة بدلة ماو الشهيرة.. والكتاب الأحمر الذى يضم أقوال ماو التى أدلى بها خلال سنوات الكفاح فى كل يد.. لقد أصبح هذا الكتاب هو إنجيل ذلك الشعب، فليس هناك اجتماع أو عمل أو احتفال يبدأ دون أن يسبقه وقوف أحد الأفراد وقراءته صفحات من هذا الكتاب الأحمر.. وفى خلال ذلك انتشرت المنشورات التى تعلق على الحوائط وتهاجم من يريد ماو التخلص منهم.. ونجحت الثورة الثقافية بالفعل فى إزاحة عدد غير قليل من كبار المسئولين، وكان منهم رئيس الدولة ليوتشاوشى وشياو بنج الذى تولى فيما بعد رحيل ماو السلطة ورسم سياسة الصين الاقتصادية التى أعطتها المكانة التى وصلت إليها اليوم.

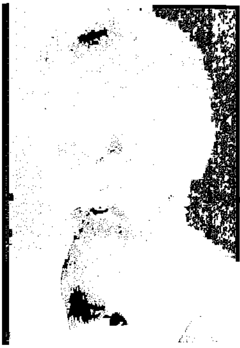
وقد ظلت الثورة الثقافية نظريا إلى أن مات ماو تسى تونج فى عام ١٩٧٦.. وكالعادة بدأ صراع على السلطة بين جبهتين كبيرتين إحداهما ترى الاستمرار فى نفس طريق ماو وثورته الثقافية وأفكاره وسياساته، وأخرى ترى ضرورة عودة الحياة الطبيعية إلى الصين، والمضى فى عمليات التنمية وتحديث الأفكار والسياسات لمواجهة التطورات العالمية.. وهذا الفريق الأخير استطاع أن ينتصر ويفرض رأيه ويقود زعماء الفريق الأول إلى المحاكمة، وعلى رأسهم ما تمت تسميته «عصابة الأربعة» بقيادة أرملة ماو، وهى الزوجة الثالثة لماو، فقد تزوج زوجته الأولى فى سن الرابعة عشرة وقد قتلها أعداؤه فتزوج زوجته الثانية ولكنه طلقها عام ١٩٢٨.. ثم تعرف بعد ذلك على ممثلة كانت فى بداية مشوارها الفنى، اشتهرت بعد ذلك باسم جيانج كينج وظلت إلى جانبه حتى وفاته..

إن قيمة الزعامات تقاس بما أعطته لشعوبها وإلى أى مدى وصل الشعب عند رحيل الزعيم..

ولقد عاش ماو حياة عريضة من الكفاح، ورغم ما نسب إليه من أخطاء فإن الذى لا شك فيه أنه استطاع أن يحفر اسمه فى قائمة الذين غيروا القرن العشرين.. لقد وحد شعبه لأول مرة فى التاريخ.. وعندما مات ماو عام ١٩٧٦ فإنه ترك الصين وهى دولة نووية.. لقد اعترفت بها الولايات المتحدة بعد أن كانت تكابر وتعترف بفورموزا ممثلا للصين فى مجلس الأمن.. لقد ترك دولة تلقى احترام وتقدير العالم.. لقد ترك أصولا تمت مراجعتها لتأخذ الصين طريقها إلى القمة وتصبح الخطر الأكبر الذى سيهدد الولايات المتحدة فى القرن الـ٢١!.

■ زيارة إلى سنوات ماو

- ١٨٩٣: اتفق على أنها سنة مولده فى مقاطعة ريفية لأب ينتمى إلى طبقة ملاك الأرض.
- ١٩٠١: الجمع بين الزراعة والمدرسة فكان فى الصبح فلاحا وبعد الظهر تلميذا.
- ١٩٠٧: زواجه من فتاة تكبره بأربع سنوات (قتلها أعداؤه بعد ذلك عام ١٩٣٠).
- ١٩١١: الانضمام إلى الجيش الثورى بقيادة صن يات سن بهدف توحيد الصين.
- ١٩٢٠: آمن إيمانا كبيرا بالشيوعية.
- ١٩٢١: انعقد المؤتمر الأول للحزب الشيوعى الصينى وانتخب ماو أمينا للمؤتمر.
- ١٩٢٥: ماو يقود الثورة ضد تشانج كاى تشيك الذى خان مبادىء صن يات سن بعد وفاته.
- ١٩٣٧: التحالف مع كاى تشيك لمواجهة اليابان التى غزت الصين.
- ١٩٤٥: بعد الحرب العالمية الزحف الكبير للقضاء على كاى تشيك.
- ١٩٤٩: وصوله إلى بكين وإعلانه الجمهورية الصينية وهروب كاى تشيك إلى فورموزا.
- ١٩٦٦: الثورة الثقافية وقضاؤه على خصومه
- ١٩٧٦: وفاته.



٦ نلسون مانديلا

السجين الذى حرر عبيد إفريقيا.. !

يا أسود ..!!

هل تعرف ماذا تعنى كلمة أسود فى جنوب إفريقيا ؟

تعنى أن تولد فى منطقة لا يسكنها غير ناس مثلك.. سود.. وأن تركب وسائل للمواصلات لا يركبها سوى السود الذين مثلك.. وأن تذهب إلى مدرسة لا يتعلم فيها سوى السود.. هذا إذا كنت أصلا سعيد الحظ وذهبت إلى مدرسة.. وإذا كبرت وأصبحت رجلا فسوف تقف فى طابور للحصول على عمل لا يقوم به فى هذا البلد سوى السود.. وإذا استأجرت منزلا فسوف يكون هذا المنزل فى مناطق لا يسكنها غير السود.. وإذا تجولت ليلا أو نهارا فسوف تجد من يوقفك ويأمرك بالكشف عن تصريح مرورك وإلا تعرضت للاعتقال.. وإلى أن تموت ستظل تخضع للقوانين العنصرية التى تذكرك دوما بأنك أسود.. وأنك مواطن من الدرجة الثالثة أو الرابعة فى هذا البلد الذى تعيش فيه.. إنه بلدك ولكنك لا تستطيع أن تتملك فيه أو أن تدخل برلمانه أو تطمع فى الوصول إلى المشاركة فى وزارته.. لأنك أسود..!!

وعندما ولد روليها لهالا مانديلا فى ١٨ يوليو عام ١٩١٨، فى أحد الأكواخ الطينية بمنطقة ترانسكاى فى جنوب إفريقيا، فلقد كان حتما عليه مثل باقى السود أن يكون له اسمان: اسم إفريقى هو روليها لهالا، واسم غربى له حرية اختياره، وهذه هى الحرية الوحيدة التى يملكها أهله، وقد أطلقوا عليه اسم نلسون.. وعندما انطلقت صرخة نلسون مانديلا فى هذا الكوخ الطينى الذى ولد فيه، لم يكن أحد يدرى أن هذه الصرخة هى لإنسان سوف يغير تاريخ بلده ووطنه ويصبح أول أسود يحكم بلاده..!

لا يمكن فصل تاريخ مانديلا عن تاريخ بلده جنوب إفريقيا الذى وصل إليه البرتغاليون لأول مرة فى القرن الخامس عشر، ولكن الهولنديين جاءوا واستعمروها واكتشفوا بها مناجم عديدة للثروة من ذهب وماس ويورانيوم وبلاتنيوم وفوسفات وحديد وكروم.. إلخ.. وكان طبيعيا أن تجتذب رائحة هذه الثروات الإنجليز ـ سادة الاستعمار فى ذلك الوقت ـ فجاءوا هم الآخرون واستولوا عليها، ولكن الهولنديين عادوا وتمكنوا من استرجاعها من أيدى الإنجليز فى القرن التاسع عشر.. وتجددت المعارك والحروب بين الإنجليز والهولنديين مرة أخرى، وتمكن الإنجليز فى بداية هذا القرن من حسم المعركة لصالحهم وإعلان جنوب إفريقيا جزءا من اتحاد الكومنولث البريطانى.. ولكن الهولنديين الذين خسروا الحرب عسكريا تمكنوا من أن يحققوا بالسياسة ما لم يستطيعوا تحقيقه بالسلاح والحرب.. فقد اعتبروا الأرض التى وضعوا أيديهم عليها ملكا لهم بكل ما عليها وتحتها، سواء أكان الذى فوقها سكانا سودا أم كان الذى تحتها ذهبا وماسا.. وتمكن الخليط الأبيض القادم من أوروبا، رغم قلة العدد، أن يحكم قبضته على أغلبية السكان الأصليين السود الذين اعتبروهم من الحيوانات.. وبلغ التزييف الذى مارسه هؤلاء البيض إلى حد ابتكار لغة جديدة أطلقوا عليها «الأفريكانز» جعلوها اللغة القومية للبلاد بينما هى خليط من الهولندية والألمانية والإنجليزية، وقد فرضوا استخدامها إلى جانب اللغة الإنجليزية.. وعندما ذهبت إلى جنوب إفريقيا فى عام ١٩٩٣ وجدت كل لافتة مكتوبة باللغتين الأفريكانية والانجليزية، أما السود ـ سكان البلاد الأصليون ـ فقد ظلت لهم إلى جانب اللغتين لهجاتهم العديدة يتفاهمون بها بحسب القبيلة التى ينتمون إليها.

عندما بلغ مانديلا سن السابعة ألحقه والده، الذى لم يحظ بتعليم سابق، بإحدى المدارس التابعة لإحدى بعثات التبشير المسيحية، وبعد عامين من دخول المدرسة مات أبوه فأخذته أمه إلى أحد أقارب الأب الذى كان بمثابة نائب ملك شعب الثيميو، الزعيم جونجينتابا، الذى تربى مانديلا فى رعايته.

يحكى مانديلا فى كتابه الذى روى فيه تاريخ حياته أنه، إثر حفل الختان الجماعى الذى كان يتم وفقا لطقوس وعادات قبلية لجميع أفراد القبيلة من الذكور الذين أتموا سن السادسة عشرة، وقف أحد الزعماء المعروفين فى القبيلة يتحدث إلى رجال المستقبل. ويضيف مانديلا إنه لم ينس رغم السنوات ما قاله الرجل، بل على العكس فى سنوات سجنه فيما بعد كان يستعيد ما قاله الرجل ويحول كلماته إلى وقود ينضج به إصراره وتشبثه بالمقاومة.. قال لهم الرجل وهو ينظر إلى صفوفهم: ها أنتم هؤلاء تجلسون يا أولادنا الشباب الأصحاء زهرة أمتنا وفخرها ورجاءها.. ورغم الآمال الكبيرة التى تشعرون بها وأنتم على أعتاب الرجولة فإنها آمال خاوية وهمية ولن تتحقق أبدا.. حيث إن شعبنا وجميع الشعوب السوداء فى جنوب إفريقيا شعب مهزوم. إننا عبيد فى أوطاننا، ومستأجرون فى أملاكنا وأراضينا، وليست لدينا القوة أو السلطة ولا نسيطر على

أقدارنا فى الأرض التى أنجبتنا.. إن أجسادنا وأرواحنا تضيع فى المناجم والحقول، كى ينعم الرجل الأبيض بالصحة والرخاء.. ولذلك سوف تتلاشى آمالكم وطموحاتكم حيث إننا لا نستطيع منحكم أفضل الهبات وهى الحرية والاستقلال.

وكما يقول مانديلا فإنه بالرغم من ذهوله من هذه الكلمات إلا أنها كانت كالبذرة التى سرعان ما أخذت تنمو فى وجدانه.

كان المقرر لو مضت الحياة طبيعية بمانديلا أن يعيش عمره فى أحضان الزعيم جونجينتابا، ولكن حدث أن قرر الأخير تزويجه فأختار له فتاة بمعرفته ليتزوجها ـ وبطريقة غامضة شعر مانديلا برفض أن يملى عليه شخص حتى لو كان الزعيم الذى رباه شيئا لا يرضاه.. فهرب مع ابن عمه الذى كان فى موقف مماثل من اقليم ترانسكاى إلى جوهانسبرج، عاصمة المال والاقتصاد فى جنوب إفريقيا، وحيث قرر استكمال تعليمه بعيداً عن سلطان جونجينتابا رغم قيود حظر الانتقال المعمول بها للسود والتى تمنعهم من التنقل من مكان لآخر بدون تصريح من السلطات العنصرية.

وفى جوهانسبرج استطاع مانديلا أن يحصل على وظيفة كتابية فى إحدى الشركات اليهودية التى تعمل فى المجالات القانونية، وأن يواصل تعليمه الجامعى عن طريق المراسلة فى جامعة جنوب إفريقيا التى نال منها شهادة الليسانس فى القانون عام ١٩٤٢ .

ولكن مانديلا كان يدرك أن هذه الشهادة ليست كافية لتحقيق طموحاته، وأن عليه أن يشارك فى العمل السياسى، وهو ما جعله ينضم إلى المؤتمر الوطنى الإفريقى ـ اقدم تنظيم إفريقى وطنى فى جنوب إفريقيا ـ إذ تم تأسيسه عام ١٩١٢، وينص دستوره على معارضة العنصرية، ويضم فى صفوفه السود من كافة القبائل والجماعات، ويدعو إلى حصول الأفارقة على جميع الحقوق التى يحظى بها المواطنون البيض.

فى أغسطس ١٩٤٣ اشترك مانديلا لأول مرة فى حياته فى مسيرة ضمت عشرة آلاف إفريقى احتجاجا على زيادة سعر ركوب السيارات العامة المخصصة للإفريقين. وبعد مقاطعة لهذه السيارات لمدة تسعة أيام متواصلة اضطرت الشركة المالكة إلى خفض أسعار الركوب مما جعل مانديلا يتأثر تأثرا شديدا بهذه المسيرة، إذ حولته من مراقب سلبى للأحداث، إلى مشارك نشيط فيها..

والتحق مانديلا بجامعة ويتووترسراند للحصول على شهادة تؤهله للعمل فى المحاماة، ولأن هذه الجامعة لم تكن تمارس التمييز العنصرى فقد تعرف مانديلا على العديد من الزملاء البيض والهنود كانت انجلترا قد سمحت لهم خلال استعمارها لجنوب إفريقيا بالوصول إلى هناك، وكونوا مجتمعا كبيرا وصل عدده إلى نحو مليون هندى، كانت امتيازاتهم تقل عن امتيازات الأربعة الملايين البيض وتزيد كثيرا عن حقوق الخمسة والعشرين مليون أسود.

في هذه الفترة عمل منديلا بالمحاماة وتعرف على ايفلين ماس، زوجته الأولى التى انجبت له ولدا وبنتا لم تعش طويلا. وقد انفصل مانديلا عن ايفلين بسبب انشغاله بالسياسة.. وكان مانديلا قد ازداد ارتباطا بالعمل السياسى واحتل دورا بارزا فى المؤتمر الوطنى الإفريقى إذ أصبح أحد أربعة نواب لرئيس الحزب، وبالاضافة إلى عمله السياسى كان يدافع عن قضايا الإفريقيين أمام محاكم البيض. ولكن سرعان ما أدرك مانديلا عقم المقاومة السلبية السلمية عندما استولى البيض على مدينة صوفيا تاون، إحدى المدن المخصصة للسود طبقا لقوانين الفصل العنصرى.. فبدون وجه حق تم طرد السود بحجة توطين العمال البيض المعدمين، وكما يقول مانديلا: إن المناضل من أجل الحرية يضطر إلى التعامل مع مضطهديه بنفس الأساليب التى يمارسونها، وأحيانا يضطر إلى محاربة النار بالنار.

وفى ديسمبر ١٩٥٦ تم القبض على مانديلا مع آخرين وجهت إليهم تهمة التآمر لقلب نظام الحكم، ولكن نظرا لعدم كفاية الأدلة اضطرت المحكمة إلى إطلاق سراح المعتقلين. وفى ١٤ يونيو ١٩٥٨ تزوج مانديلا زوجته الثانية «وينى» التى كانت تحضر جلسات محاكمته والمناقشات السياسية التى يعقدها، وتشترك فى مسيرات الاحتجاج التى تنظمها السيدات السود. وفى هذه الفترة خضع مانديلا لاتهامات عديدة انتهت إلى الحكم عليه عام ١٩٦٤ بالسجن مدى الحياة هو وسبعة آخرين. وفى جزيرة روبن البعيدة أمضى مانديلا ١٨ سنة فى تقطيع الأحجار.

وفى عام ١٩٨٢ تم نقله من سجن جزيرة روبن إلى سجن بولز مور فى مدينة كيب تاون.. وكانت الإغراءات قد بدأت تمارس دورها معه للإفراج عنه مقابل إعلانه نبذ العنف وبراءته من أعمال المؤتمر الوطنى الإفريقى.

وفى الوقت الذى انهار زملاء له أمام هذه الإغراءات وقسوة الحياة التى يعيشونها فى السجون، رفض مانديلا التنازل عن مبادئه وما أعلنه أمام المحكمة من استعداده للموت فى سبيل تحقيق هدفه، وهو ميلاد جنوب إفريقيا حرة خالية من نظام الفصل العنصرى.

وبدلا من أن يكون سجن مانديلا راحة للرجل الأبيض فإنه تحول إلى كابوس دائم له.. ففى ١٨ يوليو من كل عام، وهو ذكرى مولده، كان ملايين السود يتظاهرون فى جنوب إفريقيا فى الوقت الذى يشاركهم السود فى كل أنحاء العالم بالشموع والصلوات. وهكذا أصبح مانديلا رمزا لجنوب إفريقيا.. وانتشر اسمه فى أرجاء العالم رغم أن صورته لم يعد يراها أحد منذ أن دخل السجن فى عام ١٩٦٤..

واحتاج الأمر إلى ٢٨ سنة أمضاها مانديلا وراء القضبان قبل أن يخرج ويرى نور الحياة.. وكانت الضغوط العالمية قد تزايدت على جنوب إفريقيا بسبب سياسة التمييز العنصرى التى تأخذ بها فى الوقت الذى سادت فيه المساواة بين البشر. وكما فعل جورباتشوف فى فك الاتحاد السوفيتى كذلك فعل دى كليرك آخر رئيس أبيض لجنوب إفريقيا، وقد وعد فى بداية رياسته عام

١٩٨٨ بالقضاء على سياسة التمييز العنصرى ومنح المواطنين السود حق الانتخابات ودخول البرلمان والوزارة.. وفي عام ١٩٩٠ تم بالفعل الإفراج عن نلسون مانديلا.. وكان التصور أنه سيخرج من السجن بقلب ملىء بالكراهية والبغض والتطلع إلى الثأر والانتقام.. لكن العالم فوجىء بوجهه الطيب، وكلماته الهادئة التى يدعو فيها شعبه إلى التوحد ومواجهة التطورات الجديدة.. وعندما سأله أحد الصحفيين: هل أنت ممثل عظيم إلى هذا الحد؟ كيف بهذه السهولة استطعت أن تنسى الماضى و٢٨ سنة فى السجن؟ فإنه أجاب بهدوء: إن هناك كثيرين غيرى لديهم من الأسباب ما يجعلهم يعانون من المرارة أكثر مني، ولكن أعدادا آخرين دخلوا السجن مثلى وخرجوا منه بدون مرارة لأنهم رأوا أن التضحيات التى من أجلها عانوا سنوات السجن وعذاباته لم تذهب هباء، وأن الأفكار والمبادىء التى عاشوا من أجلها وضحوا فى سبيلها قد أصبحت على وشك أن تتحقق، وهذا فى حد ذاته كاف جدا لغسل المرارة والحقد من قلوبهم.

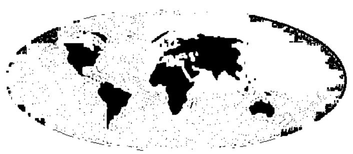
كان البيض يراهنون على فشل السود الذين تعددت أحزابهم فى التوحد، وعلى أن خلافاتهم ورغباتهم فى التزعم سوف تمزقهم.. ومن هنا كان دور مانديلا . وكانت المفاجأة اتفاق ٢٦ رئيس حزب فى جنوب إفريقيا على إجراء الانتخابات يوم ٢٧ أبريل ١٩٩٤. ولأول مرة فى تاريخه يدخل الرجل الأسود لجنة انتخابية ليقول رأيه.. ولأول مرة أيضا يشعر بأنه شريك فى حكم وطنه وأن الوطن وطنه..

وكما توقع الجميع لمانديلا ـ الذى أصبح رمزا وأسطورة يعرفها الملايين فى أنحاء الدنيا ـ حصل مانديلا على أعلى الأصوات... وفى مايو ١٩٩٤ أصبح أول رئيس منتخب انتخابا ديمقراطيا من جميع فئات الشعب وطوائفه فى جنوب إفريقيا الحرة.

لقد استغل البيض جنوب إفريقيا لسنوات طويلة اغترفوا فيها من ثروات الذهب (٤٠٪ من ذهب العالم تنتجه جنوب إفريقيا) والألماس والمعادن العديدة التى ينتجها هذا البلد الذى كان مشهورا بأنه بلد الرجل الأبيض فى القارة السوداء... وقد جاء الدور ليحكم الرجل الأسود بلاده ويعيش حرا فيها.

■ زيارة إلى سنوات مانديلا

- ١٩١٨ : ١٨ يوليو: مولده فى منطقة ترانسكاى فى جنوب إفريقيا .
- ١٩٥٢ : العمل فى المحاماة بعد نيل ليسانس القانون.
- ١٩٥٦ : القبض عليه للمرة الأولى بتهمة الخيانة.
- ١٩٥٨ : زواجه من زوجته الثانية وينى.
- ١٩٦٤ : الحكم عليه فى ١٢ يونيو مع سبعة آخرين بالسجن مدى الحياة.
- ١٩٨٢ : بعد ١٨ عاما أمضاها فى قطع الأحجار تم نقله من سجن جزيرة روبين النائية إلى سجن فى مدينة كيب تاون.
- ١٩٩٠ : فى ١١ فبراير: خروجه من السجن بعد نحو ٢٨ عاما فشل فيها أعداؤه فى إغرائه على إطلاق سراحه مقابل إعلانه نبذ العنف، وبراءته من أعمال المؤتمر الوطنى، أقدم التنظيمات التى كونها السود لمقاومة سياسة التمييز العنصرى.
- ١٩٩٣ : حصوله على جائزة نوبل للسلام بالاشتراك مع فريدريك دى كليرك، الرئيس الأبيض لجنوب إفريقيا
- ١٩٩٤ : مايو: انتخابه رئيسا لجنوب إفريقيا فى أول انتخابات يشترك فيها السود.
- ١٩٩٩ : فى ١٦ يونيو. اعتزل مانديلا الحكم وعاد مواطنا عاديا .





٧ جوزيف ستالين

إمبراطورية بالحديد والنار

جوزيف ستالين.. اسم يعنى الكثير.. يعنى الديكتاتورية والملايين الذين قتلهم وتفاهم وقضى عليهم.. يعنى الإمبراطورية السوفيتية التى امتدت إلى شرق أوروبا ونجح فى تحقيقها.. يعنى معركة ستالينجراد التى هزم فيها هتلر وقواته وكانت بداية الانهيار النازى.. يعنى دولة قوية حكمها بالقهر والنار لكنه وضعها على خريطة العالم، وامتلك القنبلة الذرية محطما احتكار أمريكا لها.. يعنى الحرب الباردة التى دخلها مع المعسكر الغربى، ويعنى الستار الحديدى الذى فرضه على بلاده ويعنى آلاف التماثيل التى أقيمت تكريما له وظلت منصوبة فى أماكنها إلى أن جاء خليفته خروتشوف بعد ٣ سنوات وأمسك معولا هدم به هذه الأسطورة التى صنعها..

وبالفعل كان ستالين أسطورة حققت لبلاده القوة والمجد والمهابة.. وقد مات ستالين وإمبراطوريته فى قمة مجدها وقوتها.. كما زادت خشية العالم منها.. ولذلك وضع اسم ستالين فى قائمة الذين غيروا القرن العشرين.

ومثل لينين، الذى كان اسمه الأصلى فلاديمير ايليتش أوليانوف ولكنه اتخذ اسم لينين للهرب من البوليس، فإن ستالين اسمه الأصلى يوسيف فيساريو نوفيتش دجوجا شفيلى، إلا أنه فيما بعد عندما أصبح فى السلطة اشتهر باسم جوزيف ستالين، الذى يعنى «الرجل الحديدى».

أيضا لم يكن ستالين يعرف اللغة الروسية، فقد ولد عام ١٨٧٩ فى ولاية جورجيا فى مدينة اسمها جورى، وكانت لغته الأصلية الجورجية، وهى لغة مختلفة عن الروسية، ولكنه فيما بعد تعلم الروسية وإن أصبح يتكلمها بلهجة مختلفة.

وقد ولد ستالين فى أسرة فقيرة جدا، فقد كان أبوه يعمل إسكافيا، وهى مهنة أقل من مهنة صانع أحذية، لأن الإسكافى يصلح الأحذية ويقوم بتركيب النعال التى دابت أو خياطة الثقوب فى

الجلد الذى بلى، وفى آخر الليل كان الأب ينفق مكسبه الضئيل على الخمر ثم يعود إلى بيته وهو يترنح، وعندما تعاقبه زوجته فإنه «يفش غله» فى الابن ستالين الذى ينهال عليه ضربا.

وقد استراح ستالين وهو فى سن الحادية عشرة من أبيه الذى مات، وكان من المفارقات أن أم ستالين، وكانت سيدة متدينة تعمل غسالة في البيوت. هذه الأم تمنت لو أن ابنها درس أمور الدين واشتغل كاهنا، ولم تعرف إلا متأخرا جدا أن هذا الابن، الذى أرادته كاهنا، قد أصبح يحارب الدين ويغلق الكنائس ويطارد الكهنة..

وأيا ما كان فقد ألحقت الأم ابنها بمعهد دينى ولكنه لم يستمر فيه طويلا، فقد جذبته الأفكار الشيوعية التى راح ينغمس فى حركاتها السرية، مما كان من نتيجته نفيه إلى سيبيريا خمس مرات فى الفترة من عام ١٩٠٣ إلى ١٩١٢. وفى العام التالى بعد عودته أسس صحيفة «البرافدا» التى ظلت لسان حال الحزب الشيوعى طوال فترة الاتحاد السوفيتي. وفى نفس العام ـ ١٩١٣ ـ أصدر دراسته «الماركسية والمسألة القومية» التى لفتت إليه أنظار لينين، والذى عينه عضوا فى الحزب الشيوعى.. وللمرة السادسة اعتقلته السلطات القيصرية فى يوليو عام ١٩١٣، ونفته إلى سيبيريا حيث بقى هناك إلى أن نجحت الثورة الشيوعية وسقط نظام القيصر فى عام ١٩١٧.

ومنذ ذلك الوقت أخذ نجم ستالين فى الصعود. فعلى إثر عودته من المنفى انتخب عضوا بالمكتب السياسى للحزب، ورغم الدور المتواضع الذى لعبه فى إنجاح الثورة الشيوعية فقد عين فى أول حكومة شيوعية قومسيرا ـ أى وزيرا للقوميات ـ وقد مكنه ذلك من التغلغل فى الحياة الداخلية، والقيام بعدد من التنظيمات الداخلية التى مكنته من نشر سيطرته على الجهاز الحزبى، والوصول عام ١٩٢٢ إلى منصب الأمين العام للجنة المركزية للحزب، وهو منصب على درجة عالية من الخطورة.

كان ستالين عنيفا فى تصرفاته، ورغم أن لينين كان يتميز بالقوة والوحشية فإن عنف ستالين أخافه إلى درجة أن لينين كتب فى وصيته يقول: «لقد ركز الرفيق ستالين فى يديه قوة هائلة عندما أصبح أمينا عاما، ولست متأكدا من أنه سيعرف كيف يستعمل هذه القوة بالحذر الكافى». وأكثر من ذلك نصح لينين فى فترة مرضه بإزاحة ستالين عن منصب الأمين العام وتعيين رجل آخر مكانه، إلا أن موازين القوى داخل الحزب والقوة الاستثنائية التى كان يمتلكها ستالين، بالاضافة إلى قدرته الفائقة على المناورة وطموحه الكبير للسلطة، كل هذا مكنه من القضاء على معارضيه واحدا بعد الآخر، وفرض نفسه الخليفة الأوحد بعد لينين، ثم بعد ذلك الحاكم الأوحد للحزب والدولة.

مات لينين عام ١٩٢٤ وخلفه ستالين الذى كان عليه أن يواجه أكبر خصومه، وهو ليون تروتسكى الذى أسهم بدور كبير فى نجاح الثورة، وكان وثيق الصلة بلينين، وقد عين وزيرا للحرب فى أول وزارة شيوعية، وهى التى عين فيها ستالين وزيرا للقوميات. قام تروتسكى بتنظيم الجيش

الأحمر وقيادته فى الحرب التى مكنت من سيطرة الثورة الشيوعية، وعقب وفاة لينين بدأ الخلاف بين تروتسكى وستالين حول سياسة الحزب. فقد كان تروتسكى يرى ضرورة نشر الشيوعية فى غرب أوروبا، بينما كان ستالين يرى التفرغ للنهوض باقتصاديات روسيا، وتثبيت دعائم النظام الجديد داخلها..

وانحاز الحزب إلى سياسة ستالين.. وفى عام ١٩٢٥ ـ أى فى العام التالى من وفاة لينين ـ طرد تروتسكى من الوزارة ومن المجلس الأعلى، ثم نفى إلى القوقاز ومنها هرب إلى تركيا ثم إلى فرنسا فالنرويج. وانتهى به المطاف فى المكسيك، وهناك اغتيل فى ٢١ أغسطس ١٩٤٠ على يد أتباع ستالين.

ولم يكن تروتسكى هو الخصم الوحيد الذى تخلص منه ستالين وإنما كان هناك خصوم كثيرون تخلص منهم واحدا بعد الآخر، فى الوقت الذى راح يركز فيه السلطة بين يديه حتى أصبح اعتبارا من سنة ١٩٣٠ الحاكم الأوحد والزعيم الأوحد.

لقد شهد القرن العشرون عددا غير قليل من الحكام الذين يمكن أن يطلق عليهم لقب «أسوأ الحكام» بسبب ما ارتكبوه من جرائم فى حق شعوبهم، ويحتل ستالين مكانا بارزا فى هذه القائمة.. لقد أقام ديكتاتورية لا تعرف الشفقة أو الرحمة، وعندما قتل أحد أعوانه عام ١٩٣٤ فإنه استغل الفرصة للقضاء على كل خصومه ومعارضيه أو من يخيل له أنه يعارضه.. ولم يفرق ستالين بين الكبار والصغار.. لقد نفى الآلاف وقتل الملايين وعذب أضعافهم.. وقد باشر كل هذا من خلال ستار كامل أسدله على بلاده، مما جعل الزعيم الإنجليزى تشرشل يطلق وصف «الستار الحديدى» على الاتحاد السوفيتى.

ولكن يسجل لستالين أنه استطاع ـ برغم كل الأخطاء الإنسانية التى ارتكبها ـ أن يحمى الثورة الاشتراكية السوفيتية من أعدائها فى الداخل والخارج، وأن يقيم دولة قوية استطاعت الصمود فى الحرب العالمية ضد هتلر.

كان ستالين يدرك خطر ألمانيا النازية بقيادة هتلر، ولذلك عمد إلى تأخير صدامه معها ووقع مع هتلر فى ٢٣ أغسطس ١٩٣٩ حلفا بعدم اعتداء بلديهما على الآخر.. وبعد ثمانية أيام من توقيع هتلر هذا الحلف قام بغزو بولندا فى بداية عملياته العسكرية، التى اتسعت بسرعة وشملت تقريبا كل أوروبا.. ثم فى يونيو ١٩٤١ قامت القوات الألمانية ـ غير عابئة بالحلف الذى تم توقيعه مع ستالين ـ بغزو أجزاء واسعة من الاتحاد السوفيتى.. وتحت أقدام القوات الألمانية الغازية انهارت مقاومة الجيش الأحمر السوفيتى، إلى أن جاء شتاء عام ١٩٤٢ الذى ركز فيه هتلر على احتلال مدينة ستالينجراد.. وقاد ستالين بنفسه معركة المقاومة ونجح فى إفشال الهجوم الألمانى.. وكان هذا الفشل بداية ترنح النازية بعد الانتصارات العسكرية المتوالية التى حققتها.. ثم هزيمتها.

كان من نتيجة معركة ستالينجراد أن بدأ ستالين يطارد النازية فى دول أوروبا الشرقية مما مكنه من نشر الشيوعية فى هذه الدول، فى الوقت الذى بدأ قادة الحلفاء ينظرون إليه كشريك، وهو ما جعله يحضر المؤتمرات الدولية التى عقدها هؤلاء القادة والتى تم فيها وضع خريطة جديدة للعالم نتيجة للحرب.

شارك ستالين فى مؤتمر طهران الذى عقد فى العاصمة الإيرانية فى نوفمبر ١٩٤٣ بحضور فرانكلين روزفلت رئيس الولايات المتحدة، وتشرشل رئيس وزراء بريطانيا، ثم فى مؤتمر يالطا عام ١٩٤٥ ـ وهى بلدة سوفيتية تطل على البحر الأسود ـ وفى هذا المؤتمر ناقش الثلاثة (روزفلت وستالين وتشرشل) شروط استسلام هتلر، ثم بعد ذلك مؤتمر بوتسدام الذى عقد فى أعقاب استسلام ألمانيا، وتقسيمها إلى أربعة قطاعات احتلال بين أمريكا وروسيا وبريطانيا وفرنسا.

◆◆◆

خرج الاتحاد السوفيتى بزعامة ستالين من الحرب العالمية الثانية قوة عسكرية عظمى رغم العشرين مليون قتيل من السوفيت الذين ذهبوا ضحيتها، كما امتدت سيطرته على كل أوروبا الشرقية التى أسهم الجيش السوفيتى فى تحريرها.. ولقب ستالين بأنه «مهندس الشيوعية».

وكما مارس ستالين الديكتاتورية فى بلاده وقضى على كل معارضة، فإنه فعل ذلك أيضا فى دول المعسكر الشرقى التى شن فى صفوف أحزابها الشيوعية حملة تطهير دموية كبيرة، مستغلا فرصة الحرب الباردة التى دخلها مع المعسكر الغربى.

وقد أطلق هذا الاسم (الحرب الباردة) على الصراع الذى دار بين المعسكرين الشرقى والغربى، والذى يستهدف فيه كل معسكر تقوية نفسه وإضعاف الجانب الآخر بكل الوسائل، ماعدا استخدام القوة المسلحة.

وفى عهد ستالين امتلك الاتحاد السوفيتى عام ١٩٤٩، وفى ظل تصاعد الحرب الباردة، قنبلته الذرية محطما بذلك احتكار السلاح النووى.

وفى الجانب الشخصى تزوج ستالين عام ١٩٠٤، ولكن بعد ثلاث سنوات ماتت زوجته بالسل بعد أن أنجبت ولدهما يعقوب. وقد اعتقل الألمان يعقوب فى خلال الحرب العالمية وأعلنوا استعدادهم لمبادلته بعدد من الأسرى، ولكن ستالين الذى اشتهر بأنه لا قلب له رفض فمات الابن فى أحد سجون ألمانيا. وفى عام ١٩١٩ تزوج ستالين للمرة الثانية ولكن زوجته توفيت سنة ١٩٣٢. وقيل إن ستالين هو الذى قتلها. ومن هذه الزوجة الثانية والأخيرة أنجب ستالين ابنا وبنتا.. أما الابن فقد أصبح ضابطا فى سلاح الطيران السوفيتى، ومثل ملايين السوفيت أدمن الخمر ومات عام ١٩٦٢.. وأما البنت سفلتانا فقد هربت من روسيا إلى أمريكا عام ١٩٦٧.

وفى يوم ٥ مارس ١٩٥٣ فوجىء السوفيت بإعلان وفاة ستالين وقد تصوروا من كثرة ما أطبق على أنفاسهم أنه من النوع الذى لا يموت.. ولكن ـ مثل كل آلاف الملايين الذين ولدوا وسيولدون ـ مات ستالين على فراشه وهو فى قمة مجده وجبروته، وبعد قضائه على مؤامرة استهدفت حياته، وبعد أن بدأ فى اعتقال الآلاف..

وبعد وفاته أقيمت لستالين مراسم جنازة ضخمة، ووضع جثمانه إلى جوار جثمان لينين فى الضريح الذى يقصده كل يوم آلاف السوفيت فى ميدان الكرملين لإلقاء نظرة على الزعيمين.. ومن مارس ١٩٥٣ إلى فبراير ١٩٥٦ ظل ستالين محاطا بآيات التكريم فى عيون ملايين السوفيت، إلى أن وقف نيكيتا خروتشوف، الذى خلف ستالين فى رياسة الاتحاد السوفيتى، وقرأ فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى تقريرا صب فيه الوحل والطين على تاريخ ستالين وسنواته، متحدثا تفصيليا عن جرائمه وتجاوزاته والتصفيات التى ارتكبها، وفى هذا التقرير قال خروتشوف إن ستالين أمر بإعدام ٩٨ عضوا من اللجنة المركزية للحزب الشيوعى من أصل ١٣٩ كان المؤتمر السابع عشر للحزب قد انتخبهم. كما اعدم آلاف الأفراد من الحزب والجيش ونفى مئات الآلاف.. ولم يكشف خروتشوف عن هذا فقط بل تعرض إلى دور ستالين فى الحرب العالمية الثانية، وشكك فى وطنيته وكفاءته، واعتبره مسئولا عن الهزائم المتلاحقه التى حاقت بالجيش السوفيتى فى السنوات الأولى للحرب.. وهكذا تم تدمير ستالين ـ أسطورة السوفيت ـ من الداخل.. ويقال إن خروتشوف، أثناء إلقائه هذا التقرير، تلقى ورقة من أحد الحاضرين كتب فيها بدون أن يوقع اسمه: أيها الرفيق.. وأين كنت أنت طوال هذه السنوات ولم تتكلم إلا اليوم؟ ونظر خروتشوف إلى القاعة قائلا: إننى تلقيت سؤالا يسألنى صاحبه أين كنت، ولكن صاحبه لم يوقعه، وأريد أن يقف صاحب السؤال لأراه.. ومضت دقيقة دون أن يتحرك واحد من مقعده.. وظل الصمت يسيطر على القاعة.. وهنا قال خروتشوف: لقد كنت مكانك يا رفيقى ملتحفا بالصمت كما فعلت اليوم..!

وبعد سنوات من وفاة ستالين ـ الذى ترك بالتأكيد بصمته فى القرن الذى عاشه، انهارت الإمبراطورية التى صنع لها ستالين المجد والقوة.. ولم تجد الشيوعية فى هذه الإمبراطورية من يدافع عنها.. وبدا صحيحا أن الشيوعية هى طريق كفاح طويل ومرير للانتقال من الرأسمالية إلى الرأسمالية.

■ زيارة إلى سنوات ستالين

● ١٨٧٩: المولد باسم يوسيف فيسياريو نوفيتش دجوجا شفيلى، وقد تغير فيما بعد إلى «ستالين».
● ١٨٩٩: طرده من معهد دينى فى مدينة تفليس كانت أمه قد أدخلته فيه ليتخرج كاهنا.
● ١٩٠٢: انغماسه فى الحركة الشيوعية ونفيه إلى سيبيريا.
● ١٩١٣: نشر دراسة (الماركسية والمسألة القومية) التى لفتت نظر لينين إليه فعينه عضوا فى الحزب الشيوعى.
● ١٩١٣: يوليو: اعتقلته سلطات القيصر ونفته إلى سيبيريا حيث بقى حتى سقوط النظام القيصرى عام ١٩١٧.
● ١٩١٧: عُيِّن عضوا فى المكتب السياسى للحزب ثم وزيرا للقوميات.
● ١٩٢٤: خلف لينين وبدأ أكبر عملية تصفية لخصومه.
● ١٩٣٩: وقع معاهدة عدم اعتداء مع هتلر لم يحترمها هتلر، وغزا الاتحاد السوفيتى فى يونيو ١٩٤١.
● ١٩٤٢: قاد معركة الصمود ضد سقوط ستالينجراد وتراجع هتلر مقهورا.
● ١٩٤٥: شارك فى مؤتمر يالطا مع روزفلت وتشرشل، ثم مؤتمر بوتسدام لتقسيم ألمانيا.
● ١٩٤٩: يمتلك القنبلة النووية.
● ١٩٥٣: وفاته فى ٥ مارس.
● ١٩٥٦: نيكيتا خروتشوف يفضح تاريخ حكمه فى تقرير شهير ألقاه بالمؤتمر العشرين للحزب الشيوعى!.





٨ هارى ترومان

بطل رغم أنفه.. !

إنسان غير عادى وأقل من العادى.. هكذا قال كل الذين عرفوه قبل أن يصبح رئيسا لأمريكا.. وما أقل الذين كانوا يعرفونه فى ذلك الوقت.. مع ذلك فإنه منذ تولى رئاسة الولايات المتحدة بغير تخطيط منه أو توقع فإنه واجه عددا من الأحداث غير العادية التى اتخذ فيها قرارات كانت من أبرز القرارات التى غيرت مسار القرن العشرين.. لقد أمر بإلقاء أول وآخر قنبلة ذرية على اليابان، وذهب لينام نوما عميقا.. وهو الذى أعلن الحرب الباردة على الاتحاد السوفيتى والحرب الساخنة على الشيوعيين فى كوريا.. وهو الذى جعل أوروبا تقف على قدميها تعيد بناء ما خربته الحرب العالمية الثانية، كما أنه الذى أقام حلف الأطلنطى الذى وحد الصف الغربى.. وغير ذلك فلقد كان رجل المؤامرات الذى عمل جهده وضد رغبة كل مساعديه لإنشاء دولة إسرائيل، وفى ليلة ١٥ مايو ١٩٤٨ عندما أعلنت إسرائيل عن قيامها، كان أول رئيس فى العالم يعترف بها، وقد أعلن اعترافه بعد ١٠ دقائق فقط من مولد إسرائيل! إنه هارى شيب ترومان.

فى أبريل ١٩٤٥ مات الرئيس الأمريكى المشهور فرانكلين روزفلت، أول وآخر رئيس أمريكى ينتخبه الأمريكيون للمرة الرابعة، فقد بدأ رئاسته عام ١٩٣٣ وكان المفروض أن تنتهى هذه الرئاسة عام ١٩٤٨ ولكنه بعد ١٥ شهرا من بداية رئاسته الرابعة أصيب فى ١٢ أبريل ١٩٤٥ بنزيف مفاجىء فى المخ مات على إثره فى الساعة الرابعة والنصف. ولأول مرة وبعد وفاته تذكر الأمريكيون هذا الرجل الذى يشغل منصب نائب الرئيس، والذى اسمه ترومان، وبدأ ملايين يسألون عن أسمه، فقد كان من النكرات الكبرى التى لا يعرفها أحد. وكان الغريب أنه بعد اعلان وفاة روزفلت، وبينما عرف الشعب الأمريكى بهذه الوفاة، فإنه لم تتح لترومان ـ وهو نائب الرئيس ـ أن يعرف الخبر إلا بعد أن اتصل به البيت الأبيض يطلب حضوره فورا فى أمر عاجل..

ودخل هارى ترومان ليجد زوجة روزفلت تقف داخل المكتب، وقد اتجهت إليه فور مشاهدته ووضعت ذراعها على كتفه قائلة فى حنان: هارى.. لقد مات الرئيس اليوم.

ويقول ترومان فى أحد خطاباته التى بعث بها إلى أمه إنه لم يشعر فى حياته بالارتباك كما شعر فى هذه اللحظة، وبعد لحظات من الصمت الثقيل فتح فمه قائلا: هل من شىء أستطيع أن أفعله؟ وباندهاش قالت مسز روزفلت: هل هناك شىء يمكننا نحن أن نفعله من أجلك. إنك أنت المسئول الآن وأنت الذى تواجه المتاعب. وبعد دقائق كان ترومان يؤدى اليمين ليصبح رئيسا لأمريكا.. وبعد ساعات من توليه الرئاسة كان عليه أن يواجه عديد المشاكل والمواقف والقرارات الصعبة، وكان الغريب أنه لم يكن يعرف أى شىء عمّا يجرى فى الرئاسة، فلم يكن روزفلت يشركه فى أى قرار، وكان أول ما قام به إقصاء كل أعوان روزفلت وزرع أعوان جدد كانوا يستهينون به رغم أنه الذى جاء بهم!

كان أول مواقف ترومان بعد توليه الرئاسة حضور مؤتمر عقد فى مدينة بوتسدام الألمانية، فى حضور رئيس الوزراء البريطانى تشرشل وديكتاتور الاتحاد السوفيتى ستالين، للاتفاق على مستقبل ألمانيا، التى أعلنت هزيمتها بعد ٢٦ يوما من تنصيبه رئيسا لأمريكا، وفى هذا المؤتمر تم الاتفاق على تقسيم ألمانيا إلى غرب، تتولاه الولايات المتحدة، وشرق، يتولاه الاتحاد السوفيتى، مع اتفاق على عدم السماح بأن تعود ألمانيا مرة أخرى دولة موحدة حتى لا تعود الدولة القوية التى يمكن أن تهدد أوروبا من جديد.

وفى نفس يوم وصوله إلى بوتسدام (يوم ١٦ يوليو ١٩٤٥)، وبينما كان مجتمعا مع تشرشل فى انتظار وصول ستالين، تلقى ترومان برقية بالشفرة تحمل أول أنباء عن نجاح تجربة أول قنبلة ذرية فى العالم، وقد جرت فى صحراء المكسيك.

وبعد أيام، وكان ترومان مازال فى بوتسدام، تلقى رسالة أخرى بالشفرة تؤكد نجاح التجربة الثانية ويطلبون القرار.. وعلى الباخرة الحربية التى كان يستقلها جمع ترومان معاونيه، وقد وافقوا على استخدام القنبلة الذرية ضد اليابان فيما عدا قائد الطيران الأمريكى فى ذلك الوقت، الذى كان من رأيه الاستمرار فى قذف اليابان بالقنابل التقليدية حتى تستسلم.. واتجه الجميع إلى ترومان ينتظرون قراره، وقبل أن ينطق بكلمة أعلن عن وصول تشرشل، وكان ترومان قد دعاه لحضور هذا الاجتماع.. وعندما أبلغ ترومان بحكاية القنبلة الذرية أبدى تشرشل حماسه لاستخدامها، ولكن بعد توجيه إنذار إلى اليابان بالتسليم دون قيد أو شرط.. ولكن ترومان لم يأخذ بنصيحة تشرشل وقرر استخدام القنبلة الذرية بصورة مفاجئة، وكتب قراره بخط يده تاركا للعسكريين اختيار الهدف المناسب.. وكان شرطه الوحيد ألا يتم إلقاء هذه القنبلة خلال أيام انعقاد مؤتمر بوتسدام. وبالفعل بعد يومين اثنين من انتهاء مؤتمر بوتسدام ألقيت أول قنبلة ذرية على هيروشيما يوم ٦ أغسطس ١٩٤٥، وبعدها بثلاثة أيام ألقيت القنبلة الثانية على نجازاكى..

وأعلنت اليابان استسلامها.. وقد ذهب ضحية هذا العمل أكثر من ٢٠٠ ألف رجل وامرأة وطفل، مازال اليابانيون يتذكرونهم حتى اليوم، ولكن بالنسبة للأمريكيين فإنهم يتذكرون هذا الحدث على أساس أنه أنقذ من الموت نصف مليون أمريكى كانوا سيموتون، حسب تقديرات العسكريين لو لم يتخذ ترومان قراره بإلقاء القنبلة الذرية وقام بغزو تقليدى لليابان.

ولد هارى ترومان فى ٨ مايو ١٨٨٤، وفى سنوات الدراسة عمل فى تنظيف النوافذ والأرضيات ومحاسبا فى بنك ثم مزارعا.. ورغم حصوله على شهادة القانون من كلية الحقوق فإنه كان يهيىء نفسه للعمل فى الزراعة، وقد ظل بالفعل يعمل بها عدة سنوات إلى أن استدعى للجيش، واشترك فى الحرب العالمية الأولى فى فرنسا، وعند عودته إلى ولاية ميسورى التى ولد بها التقى بزوجته التى لعبت دورا أساسيا فى تغيير حياته.

تقول آن مرجريت، ابنة ترومان الوحيدة: كان أبى فى مظهره يبدو رجلا عاديا، ولكن فى جوهره كان بالتأكيد غير عادى بدليل أنه استطاع إقناع أمى بالزواج منه. فقد كانت جميلة جدا إلى درجة تدير رؤوس شبان المدينة، وكانت غير ذلك أحسن لاعبة كرة فى الولاية، وأحسن لاعبة تنس وأحسن فتاة فى التزحلق على الجليد، ولكن من بين كل الشبان اختارت أمى هارى ترومان، وهذا فى حد ذاته أمر غير عادى لأنه لم يكن يملك أية مواهب فريدة ينافس بها هؤلاء الشبان. وقد كان شرط أمى للزواج منه ألا يعود للعمل فى الزراعة، فقد كانت تكره حياة الفلاحين، وهكذا فإنه بعد ١١ سنة أمضاها فى المزارع قرر أن يبحث عن فرصة أخرى، فدخل ميدان التجارة وفتح مع شريك له اسمه أيدى جاكوبسون محلا تجاريا لبيع ملابس الرجال، ولكن المحل أفلس بعد فترة بسيطة وظل ترومان ١٥ سنة يسدد خسارته، وكان خصومه يقولون عنه عندما رشح نفسه رئيسا لأمريكا بعد انتهاء رئاسته التى أكمل فيها مدة روزفلت: إذا كان قد فشل فى إدارة متجر للملابس فكيف نثق به ونسلمه قيادة أمريكا!

إن هذا المحل الذى أفلس كان له الفضل الأكبر على اليهود الإسرائيليين فى إنشاء دولتهم، فقد كان شريك ترومان - جاكوبسون - يهوديا، وقد استغل زعماء الصهيونية صداقته بترومان وسلطوه عليه، وبالفعل نجح هذا الصديق اليهودى فى ملء رأس ترومان وإقناعه بالوقوف إلى جانب إسرائيل.

أقفز الأحداث وأصل إلى عام ١٩٤٨. وكان ترومان يستعد لترشيح نفسه رئيسا لأمريكا فى الوقت الذى كان حزبه الجمهورى يعارض هذا الترشيح، فقد كان أبناء روزفلت يرون تصحيح هذه الرئاسة التى جاءت بالمصادفة وترشيح الجنرال دوايت إيزنهاور، ولكن ترومان، وقد استغله اليهود استغلالا جيدا بعد أن أفهموه أنهم سيساندون ترشيحه، قرر مساندتهم.. وعلى العكس كان مستشارو ترومان وعلى رأسهم وزير خارجيته جورج مارشال - الذى قال لترومان فى اجتماع حاسم يوم ٢١ مايو ١٩٤٥ إن اليهود لا يحتاجون إلى دولة ولا يستحقون دولة، وهذه

الأرض ليست أرضهم وإنهم يسرقون هذه الأرض، وأن إقامة هذه الدولة سوف يضعنا فى فوهة المدفع العربى ـ ولكن ترومان كان قد قرر مسبقا الاعتراف بدولة إسرائيل، وبالفعل تم إعلان قيام دولة إسرائيل فى السادسة من مساء يوم ١٤ مايو ١٩٤٨ بتوقيت واشنطن، وبعد ١١ دقيقة بالضبط أعلن البيت الأبيض اعتراف الولايات المتحدة بالدولة الجديدة وخلال ساعات اعترفت بإسرائيل بإيعاز من ترومان كل من جواتيمالا ونيكاراجوا وأوروجواى. وفى السابع عشر من مايو، أى بعد يومين أعلن الاتحاد السوفيتي اعترافه بإسرائيل، وتبعته بولندا وتشيكوسلوفاكيا ويوجوسلافيا وجنوب إفريقيا. وكان طبيعيا عندما استقبل ترومان فى البيت الأبيض عام ١٩٤٩ كبير حاخامات إسرائيل أن يقول هذا الأخير: لقد وضعك الله فى رحم أمك لتكون أداة لمولد دولة إسرائيل من جديد بعد ألفى عام..!.

◆◆◆

ما الذى جعل ترومان الذى هوى الزراعة يدخل ميدان السياسة؟ إنه الفشل. فبعد الإفلاس التجارى، الذى لم تكن من نتيجته سوى علاقة الشراكة والصداقة مع جاكوبسون اليهودى، اتجه ترومان إلى استغلال شهادته القانونية ورشح نفسه قاضيا للمنطقة فى ولاية ميسورى، وفاز بأغلبية ٣٠٠ صوت من ١٢ ألفا، وبعد القضاء رشح ترومان نفسه للكونجرس ثم عضوا فى مجلس الشيوخ. وقد التقى بروزفلت لأول مرة عام ١٩٤٠ ليقنعه بأن يترك له دائرة ولاية ميسورى، ورفض روزفلت ولكن ترومان نجح بصعوبة شديدة، وفى خلال ذلك الوقت بدأ روزفلت حملة ضد الفساد الاقتصادى وسيطرة رجال الأعمال، وقد اصطدم روزفلت فى طريقه بمراكز قوى عديدة كان يسيطر عليها رجال المال والأعمال والبنوك، الذين كانوا يعتقدون أن عددا من رجال الكونجرس ـ ومن بينهم هارى ترومان ـ فى جيوبهم، ولكن ترومان فاجأ الجميع بالتصويت على قانون قدمه روزفلت يحرر المحكمة العليا من سيطرة مافيا رجال المال والأعمال. وأكثر من ذلك راح ترومان يقوم برحلات واسعة على معسكرات الجيش، اتهم فى تقاريره عنها وزارة الدفاع بتبديد مئات الملايين من الدولارات من برامج التدريب والدفاع التى اعتمد لها الكونجرس ألف مليون دولار. وقد شجع هذا روزفلت على اختيار ترومان نائبا فى عام ١٩٤٤، وبعد سنة وبضعة شهور أصبح النائب الذى لم يسمع به أحد سواء فى أمريكا أو خارجها، هو الرئيس..

لقد توالت الأحداث الجسام.. مؤتمر بوتسدام، ثم إلقاء القنبلة الذرية فوق اليابان.

وفى مارس ١٩٤٧ أعلن ترومان الحرب الباردة على الاتحاد السوفيتى، عندما استدعى الكونجرس بمجلسيه وألقى خطابا دعا فيه إلى تغيير سياسة أمريكا الخارجية، وتطبيق ما أصبح مشهورا باسم «مبدأ ترومان» الذى يقضى بتقديم المساعدات المادية للدول التى تتعرض للخطر الشيوعى، وكانت اليونان وتركيا أول دولتين تقدم لهما هذه المساعدات، وقد بلغت فى ذلك الوقت ٤٠٠ مليون دولار، وهو مبلغ كبير بحساب تلك الأيام.

وعندما قرأ ترومان عن الخطاب الذى ألقاه فى جامعة هارفارد الجنرال جورج مارشال، مهندس النصر فى الحرب العالمية الثانية، وقد اقترح مارشال أن تساعد الولايات المتحدة الدول الصديقة فى أوروبا لإعادة بناء ما دمر خلال الحرب، فإن ترومان أعجب بالفكرة وحصل على موافقة الكونجرس على «مشروع مارشال» الذى قدمت بموجبه أمريكا إلى أوروبا ١٢ مليار دولار خلال ٣ سنوات لإعادة وقوفها على قدميها.

وفى فبراير ١٩٤٨، بعد استيلاء الاتحاد السوفيتى على تشيكوسلوفاكيا، قاد ترومان دول أوروبا إلى الدخول فى حلف جديد، هو حلف شمال الأطلنطى، الذى اعتبر أعضاؤه الـ١٢ أى هجوم على واحدة منهم هجوما على كل الدول الأعضاء.

وفى نفس السنة واجه ترومان اختبارا جديدا عندما فرض السوفييت حصارا كاملا على برلين، فأمر ترومان بإقامة جسر جوى اشتركت فيه بريطانيا وفرنسا، وقام بتزويد برلين الغربية بـ٢,٣ مليون طن من الطعام والفحم على مدى ١١ شهرا إلى أن تم رفع الحصار.

وفى أبريل ١٩٥١ واجه ترومان الشيوعيين مرة أخرى عندما كلف الجنرال دوجلاس ماك آرثر بقيادة القوات الأمريكية التى دخلت تحت علم الأمم المتحدة لترد غزو الشيوعيين الكوريين فى الشمال لجنوب كوريا، وكان اعتقاد ماك آرثر أن الحرب لن تطول أكثر من نهاية عام ١٩٥١، وأن الأمريكيين سيحتفلون بالنصر فى عيد الميلاد ذلك العام، ولكن هذه الحرب استمرت ثلاث سنوات أخرى.

وهكذا فإن الرجل الذى توقع له الفشل كل خصومه، وأيضا كثير من الذين عرفوه، كتب له أن يعيش حياة حافلة بالقرارات الصعبة خلال فترة إقامته بالبيت الأبيض. وكان الغريب فعلا أن ينجح ترومان فى انتخابات نوفمبر ١٩٤٨ التى رشح نفسه فيها رئيسا ضد منافسه توماس ديوى.. وفى نهاية يوم الانتخاب نام ملايين الأمريكيين بمن فيهم ترومان وهم على ثقة بفشل ترومان ونجاح ديوى، ولكن كان ترومان نفسه أول الذين فوجئوا بنجاحه.

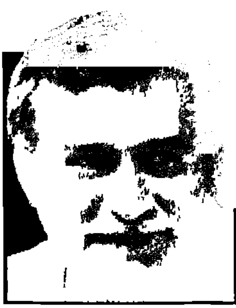
وقد كان ترومان من هواة كتابة الرسائل إلى أمه.. وقد كتب إليها الكثير من الخطابات، وكان من بين ما كتبه فى أحد الخطابات عام ١٩٤٦ لكى يصبح الإنسان رئيسا فعليا لهذه الولايات المتحدة الأمريكية فإنه لابد أن يكون عدة أشياء فى وقت واحد، لابد أن يكون مخادعا كذابا، كما يقول ميكيافيللى، وطاغية مثل لويس الحادى عشر، وجريئا مثل يوليوس قيصر، ومناورا مثل تاليران ـ الوزير الأول لنابليون، وغادرا مثل ريشيليو. وبهذه الصفات المطلوبة لا أعتقد أننى سأكون رئيسا عظيما لأمريكا، وعلى أية حال فإننى أحاول بطريقتى الخاصة، وقد أنجح فى تحقيق شىء يوما ما.

وفى عام ١٩٧٢ مات ترومان عن عمر تجاوز الـ ٨٨ عاما، وقد اختلف المؤرخون عليه.. فبعضهم قال إنه أتفه رئيس شهدته أمريكا، وبعضهم قال إنه من أعظم رؤساء أمريكا، أما الحقيقة فإنه وجد نفسه فجأة فى وسط أكبر الأحداث، واتخذ قرارات غيرت مسار القرن العشرين: إلقاء القنبلة الذرية ـ الحرب الباردة ـ الحرب الكورية ـ مشروع مارشال ـ وغير ذلك مؤامرة دعم إنشاء دولة لليهود فى فلسطين.. ولهذا كان ترومان على حق عندما قال إن التاريخ إما أن يلعنه أو أن يرتفع به إلى مرتبة العظماء، فما أكثر الذين لعنوه من اليابانيين والفلسطينيين والعرب !

■ زيارة إلى سنوات ترومان

- ١٨٨٤: ٨ مايو : الميلاد.
- ١٩٣٤: انتخب عضوا بمجلس الشيوخ وأعيد انتخابه عام ١٩٤٠.
- ١٩٤٤: اختاره الرئيس روزفلت نائبا له.
- ١٩٤٥: ١٢ أبريل : رئيسا للجمهورية.
- ١٩٤٥: ٦ أغسطس : أمر بإلقاء القنبلة الذرية على اليابان.
- ١٩٤٧: مارس : أعلن مبدأ ترومان لمقاومة النفوذ الشيوعى.
- ١٩٤٨: ١٥ مايو : اعترف بقيام إسرائيل بعد ١١ دقيقة من إعلانها.
- ١٩٤٨: نوفمبر : انتخب رئيسا للولايات المتحدة.
- ١٩٥٠: يونيو : أمر القوات الجوية والبحرية الأمريكية بغزو كوريا لطرد الشيوعيين من جنوبها.
- ١٩٦٦: قام بزيارة لإسرائيل حيث أرسى حجر الأساس لمركز السلام بالقدس.
- ١٩٧٢. ديسمبر : مات عن عمر ٨٨ عاما.





٩ ليخ فاونسا

العامل الذى دق أول مسمار فى نعش الشيوعية

عاشت الإمبراطورية العثمانية نحو ٤٠٠ سنة قبل أن يعلن المؤرخون نهايتها وتدخل أرشيف التاريخ.. وفى قرنها الأخير دخلت الإمبراطورية العثمانية مرحلة طويلة من المرض، ظلت تقاوم فيها إلى أن جاءت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨)، التى تحالفت فيها تركيا مع ألمانيا والنمسا، وبدأت هزائم تركيا وانهيارها حتى أعلن مصطفى كمال أتاتورك رسميا فى عام ١٩٢٢ إلغاء السلطنة العثمانية، وبدأت صفحة جديدة من تاريخ تركيا الوحيدة بغير إمبراطورية وهى صفحة مازالت ممتدة حتى اليوم..

٤٠٠ سنة قبل أن تنتهى الإمبراطورية العثمانية، أما الإمبراطورية السوفيتية فإنها لم تعش سوى ٧٠ سنة.. فلقد بدأت هذا القرن وانتهت فيه أيضا.. وبالمقارنة بالإمبراطورية العثمانية فإنها ماتت فى سن الصبا والقوة دون أن تتعرض ـ كما حدث للعثمانية ـ لأية حروب أو هزائم عسكرية.. كما أنها أيضا لم تدخل مرحلة طويلة من المرض كما حدث للإمبراطورية العثمانية قبل أن تموت، وإنما جاءتها النهاية المفاجئة من مرض العصر الخبيث الذى يقتل فى فترة محدودة، وهو مرض يبدأ بخلية واحدة تأخذ فى التضخم والانتشار ولا يشعر صاحبها خلال فترة التضخم والتكاثر بأية أعراض تنبهه، ثم فجأة يحدث بالمصادفة أن تأتى نتيجة التحاليل التى أجراها مؤكدة إصابته بالمرض، فيدخل هو والطب والعلاج سباقا معه ينتهى غالبا بانتصار المرض خصوصا إذا كان قد وصل إلى مناطق معينة فى الجسم.

ومن حق المحللين، أن يكتبوا أسبابا عديدة لنهاية الإمبراطورية السوفيتية، ولكن أهمها فى رأيى تلك الخلية السرطانية التى بدأت فى بولندا بقيادة ليخ فاونسا، الذى كان أول من دق مسمارا فى نعش أكبر وأوسع إمبراطورية فى القرن العشرين.

ولد فاونسا فى عام ١٩٤٣ حين كانت بلاده، بولندا، لاتزال خاضعة للاحتلال النازى الألمانى.. وقد كانت بولندا أول شرارة فى الحرب العالمية الثانية التى بدأها هتلر يوم أول سبتمبر ١٩٣٩ بغزو الأراضى البولندية بدعوى استعادة ميناء دانتزيج البولندى، وهو الميناء الذى غير البولنديون اسمه فيما بعد وأطلقوا عليه اسم جدانسك، وتشاء الظروف أن يكون هذا الميناء نفسه هو الذى شهد الشرارة الأولى فى الحرب ضد الشيوعية.

ولم تكن بولندا قبل احتلال هتلر لها شيوعية، فقد كانت تعتبر من المعسكر الغربى، ولكن مع غزو هتلر لجانبها الغربى تقدمت قوات الاتحاد السوفيتى وكانت موسكو متحالفة فى ذلك الوقت مع ألمانيا واحتلت شرق بولندا.. ولكن فيما بعد انقلب هتلر على الاتحاد السوفيتى وقام بطرد قواته من بولندا وغزا أراضيه، وهو الغزو الذى فشل فيه هتلر، وكان بداية سلسلة الهزائم التى منى بها هتلر وانتهت به إلى الانتحار واستسلام ألمانيا دون قيد أو شرط.

وفى خلال ذلك تمكن الاتحاد السوفيتى من طرد الألمان من بولندا وإقامة حكومة خاضعة للنفوذ الشيوعى، كما مدوا نفوذهم إلى شرق أوروبا وجاء اتفاق يالتا عام ١٩٤٥ بين الرئيس الأمريكى فرانكلين روزفلت والزعيم السوفيتى جوزيف ستالين بحضور ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا، ليكرس تقسيم النفوذ فى عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، ويطلق يد الاتحاد السوفيتى فى شرق أوروبا، ويد الولايات المتحدة فى غرب أوروبا.

ولد فاونسا فى عائلة كاثوليكية بالغة الفقر من الفلاحين، مؤلفة من سبعة أفراد. وفى سن عامين توفى أبوه الذى اعتقله الألمان وأودعوه أحد المعتقلات النازية ثم أفرجوا عنه. بعد عام من وفاة الأب تزوجت أمه من عمه وأقاموا فى منطقة تبعد نحو ١٠٠ كيلومتر من العاصمة وارسو.

كان فاونسا يسير يوميا عدة كيلو مترات للوصول إلى المدرسة برفقة أخته الكبرى، لكنه لم يكن متفوقا فى أية سنة من السنوات، بل كان يتجرع الدروس كالدواء باستثناء مادة التاريخ، التى كان يعتبرها مادته المفضلة.

ورغم زواج الأم من عم الأولاد إلا أنها لم تنشغل عنهم، ولعبت دورا أساسيا فى حياة فاونسا، إذ زرعت فيه حب العمل واحترام الدين فى بلد يحارب نظامه الشيوعى الأديان.

وفى عام ١٩٥٨ (فى سن الخامسة عشرة) دخل فاونسا مدرسة داخلية وخرج بعد ثلاث سنوات حاملا شهادة ميكانيكى زراعى، فعمل فى أحد المصانع قبل أن يطلب للتجنيد، وبعد سنتين فى الخدمة العسكرية (٦٣ ـ ١٩٦٥) تخرج فى الجيش برتبة عريف.

ومثل ملايين الفلاحين الذين اضطرتهم ظروف الاقتصاد أن يهاجروا إلى المدن فقد هاجر فاونسا عام ١٩٦٧ إلى ميناء دانتزيج، الذى أصبح اسمه جدانسك، حيث عمل كهربائيا فى حوض بناء السفن.

كانت الأم وزوجها وثلاثة إخوة غير أشقاء من الأم، قد قرروا الهجرة إلى أمريكا بعد دخول فاونسا الجيش.. وقد حاول فاونسا من ناحيته طويلا إقناع الأسرة بالبقاء وعدم السفر، ولكن الأسرة لم تأخذ برأيه وهاجرت بالفعل حيث أقامت فى ولاية نيوجرسى على الشاطىء الشرقى للولايات المتحدة

وبعد فترة من رحيل الأسرة واستقرارها فى أمريكا داومت الأم على إرسال حوالة نقدية كل شهر بمبلغ عشرين دولارا إلى ابنها، مما جعل خصومه فيما بعد يتهمونه بأنه عميل أمريكى يتقاضى راتبا شهريا من وكالة المخابرات المركزية! وقد تزوج فاونسا مرتين، كانت الأولى عام ١٩٦٦ من بائعة زهور فقيرة مثله، وبعد ثلاث سنوات أخرى اقترن بزوجته التى رافقته حتى اليوم، وكانت زميلة له فى الدراسة، وقد أنجب من زوجتيه ثمانية أبناء.

كان فاونسا فى ذلك الوقت نموذجا للمواطن المتحمس للأفكار الاشتراكية والمتطلع إلى بناء بولندا الجديدة.. وفى عام ١٩٧٠ بدأ التحول فى حياته عندما قررت الحكومة بقيادة جومولكا رفع أسعار (اللحوم)، التى تعتبر خبز البولنديين وطعامهم الأساسى الذى يتناولونه فى جميع الوجبات. وكانت مفاجأة لجومولكا، رئيس بولندا القوى أن يجد معارضا لقراره فى المكتب السياسى للحزب اسمه ادجار جيريك، وأن يجد أيضا ثورة عارمة من الشعب الذى تعود الطاعة والامتثال لقراراته... وأصدر جومولكا قرارا بمواجهة الثورة بالعنف وإطلاق النار، فقُتِل عدد كبير من الضحايا، لكن الثورة على العكس زادت وانتهت بخلع جومولكا، وتولى جيريك الذى عارضه مكانه، وكان أول ما فعله أن ألغى الزيادات التى تقررت على الأسعار واستعاد الهدوء والسيطرة على البلاد.

ومن المظاهرات وحركة الإضرابات التى شهدها فاونسا، أدرك أن هناك وسيلة أخرى ليقول الإنسان رأيه رغم أنه حاول أن يحث زملاءه على الالتزام بالنظام..

ولفترة بعد تولى جيريك اعتقد البولنديون بإمكانية إحداث تغييرات إلى الأفضل، لكن آمالهم مالبثت أن أصيبت بالفشل، فقد عادت الصعوبات الاقتصادية تتزايد خلال سنوات السبعينيات إلى أن جاء عام ١٩٨٠ والمصاعب أسوأ وأسوأ، واضطر الرئيس البولندى جيريك إلى أن يتخذ فى شهر أغسطس نفس القرارات التى سبق أن عارض هو نفسه صدورها قبل عشر سنوات، ومنها قرارات زيادة أسعار عدد من السلع وعلى رأسها اللحم.. وفى يوم ١٤ أغسطس (١٩٨٠) تجمع على غير اتفاق عمال الوردية الصباحية فى ترسانة صن، وقد راحوا يعبرون عن سخطهم واحتجاجاتهم على هذه الزيادة فى الأسعار واختفاء اللحوم، وكان من الممكن أن تنتهى هذه التجمعات ويتفرق العمال ويعودون إلى عملهم، خاصة بعد أن شرح لهم مندوب من الحزب الشيوعى الظروف القاسية التى تعيشها البلاد.. ولكن وفى نفس اللحظة التى كانوا يستعدون فيها للتفرق اقتناعا بما قاله مندوب الحزب، وقف هذا الشاب ليخ فاونسا ـ الذى يميزه شاربه

الغليظ الذى يملأ وجهه - ويمتد على جانبى فمه.. وما كاد يتحدث حتى أشعل النار التى انطفأت بين زملائه، وحولهم من شبه رماد إلى كتلة من الجمر الحارق..

كان الشاب الذى ولد وتعلم وكبر وعمل فى بولندا الشيوعية وتعلم الالتزام بالأفكار الشيوعية قد تحول إلى بركان من الثورة..

وكان أغرب ما فى فاونسا أنه كان من العمال، ولم يكن من المثقفين الذين لديهم الأفكار والحجج التى يخترقون بها دروع الصلب التى يقيمها النظام الشيوعى من خلال جواسيسه وعملياته القمعية التى لا تعرف رأفة ولا شفقة.. فإذا كان طبيب الولادة يضحى بالطفل من أجل حياة الأم، ففى الشيوعية يتم التضحية بأى فرد أو أفراد من أجل حياة المجتمع..! وتتناقل وكالات الأنباء العالمية خبر هذا الشاب، فاونسا، الذى حرك جموع العمال فى جدانسك، وتمتد شرارة النيران إلى كل بولندا، ولكن تظل جدانسك بؤرة التوجيه ويظل ليخ فاونسا المحرك.. ويتوقع كثيرون أن تتدخل موسكو وترسل قواتها لوأد الحركة البولندية العمالية، كما فعلت من قبل مع المجر عام ١٩٥٦، ولكن العالم يفاجأ بظهور هذا الشاب فاونسا على شاشة التليفزيون وهو يوقع مع نائب رئيس وزراء بولندا فى ذلك الوقت ما أطلق عليه (اتفاق جدانسك)، الذى كان أغرب ما فيه أن مادته الأولى تعطى العمال البولنديين حق إنشاء وتكوين اتحادات مستقلة !

اتحادات مستقلة؟! كلمتان ترددتا عبر كل بولندا وخارج بولندا.. فالشيوعية أساسها وجود حزب واحد شيوعى له كامل السيطرة على العمال.. وكل اللجان والنقابات والاتحادات الموجودة تدور وتتصل بالحزب، وأبدا لا يمكن أن يكون هناك تجمع عمالى يعمل مستقلا عنه.

ومن المؤكد أن الحكومة البولندية لم تنظر بعين الجدية إلى هذا الاتفاق، الذى تصورت أنها بمجرد توقيعه سوف يتم تهدئة الثورة العمالية المستقلة، وبعد ذلك يمارس الحزب الشيوعى دوره، ويتم القبض على المحرضين والزعامات وتقليم أظافرهم، ويستعيد الحزب سيطرته على كل الأمور من جديد..

ولكن الذى حدث فى بولندا كان مختلفا.. فما كاد يعلن عن هذا الاتفاق حتى اتجه ملايين العمال إلى تكوين حركة جديدة اسمها (تضامن) تعبيرا عن أنها تضم العمال مع المثقفين مع عدد من رجال الكنيسة الذين بدءوا يقوون مواقفهم بعد أن تم لأول مرة فى تاريخ الفاتيكان تنصيب بابا من بولندا.

كان الموقف غريبا.. فالعمال البولنديون ما كادوا يستشعرون أن ثقبا تم حفره فى الجدار الشيوعى حتى راحوا يوسعونه ويمرون منه.

وهكذا ما إن قامت حركة العمال التى أشعلها ليخ فاونسا، والتى انتهت إلى اتفاق جدانسك وبعد ذلك إنشاء حركة تضامن بقيادته، حتى وجدت بولندا، ومعها الاتحاد السوفيتى وكل الدول الشيوعية.. وجدوا أنفسهم فى مأزق سقطوا فيه.

فقد كان طبيعيا أن ينظر الشيوعيون فى العالم إلى بولندا ثم يعيدون النظر إلى موسكو، عاصمة الشيوعية فى العالم، ويسألون كيف تسكت ولا ترد؟؟ كيف لا تقوم بحملة تخرس وتسكت هذه الألسنة، وتخنق هذه الحركات المتمردة التى وصلت إلى حد إنشاء حركة جماهيرية داخل بلد شيوعى منفصل عن الحزب الشيوعى البولندى ؟ إن انفصال بولندا عن الحزب الشيوعى يعنى أنها سوف تأتى بأفكار أخرى غير الأفكار الشيوعية، ويعنى أكثر أن أفرادها يمكن أن يخوضوا الانتخابات وينتصروا على الشيوعيين، وأن تخرج بولندا بذلك عن المنظومة الشيوعية فكيف تسكت موسكو على ذلك؟!

من المؤكد أنه لو حدث هذا الذى حدث فى بولندا قبل ١٥ أو ٢٠ سنة، لكانت الدبابات السوفيتية قد سحقت كل قادة الثورة البولندية كما حدث فى المجر.. ولكن فى عام ١٩٨٠ كان الأمر قد أصبح مختلفا.. فقد كان أسوأ ما كشفه ليخ فاونسا بما فعله فى بولندا أنه كشف عن ضعف موسكو، وعدم قدرتها على مزيد من تحمل أعباء الدول الشرقية.. ذلك أنه كان على موسكو ـ كى تتدخل فى بولندا ـ أن تحل مشاكل بولندا الاقتصادية وتقدم لها المساعدة.. ولكن المشكلة أن بولندا كانت قد اقترضت ألاف الملايين من الدولارات من الغرب، وكان أى تدخل سوفيتى سيجعل الغرب يطالب بديونه المستحقة، وهو ما لم تكن موسكو تستطيع سداده.. بالاضافة إلى ضعف القيادة السوفيتية فى ذلك الوقت ـ بريجنيف وبعده أندروبوف ـ وبالتالى كان من الضرورى السكوت.

ولكن ليخ فاونسا لم يسكت، ولا العالم الغربى هو الآخر سكت.. لقد وجدوا فيه الخلية السرطانية التى يمكن أن تتضخم وتنتشر وتسمم الجسم الشيوعى وتقضى عليه...

وإذا كانت المواقف والظروف الكثيرة تخلق البطل رغما عنه فقد دفعت الظروف فاونسا كى يأخذ دور البطولة لانتفاضة عمالية أجبرت الحكومة على تغيير زعاماتها، فأجبر جيريك على الاستقالة، وأصبحت بولندا لفترة وكأنها محكومة من ثلاث قوى: الحزب الشيوعى والحركة العمالية (تضامن) وكبير أساقفة بولندا الذى استمد قوته من بابا روما البولندى الأصل.. لكن هذا التوازن لم يدم طويلا. فنتيجة لتدخلات موسكو السياسية منعت السلطات البولندية حركة تضامن واعتقل زعيمها ليخ فاونسا عدة شهور.. وأعلنت الأحكام العرفية فى البلاد.. ومن ناحيته صب الغرب المزيد من الزيت على النار المشتعلة، فمنح فاونسا جائزة نوبل للسلام عام ١٩٨٣، ومنحته جامعة هارفارد الأمريكية الدكتوراه الفخرية.

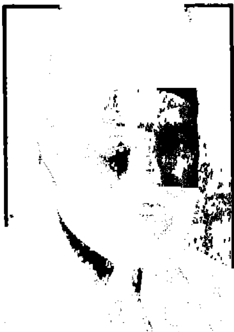
ولم تنجح جهود المقاومة فى إسكاته... فالخلية السرطانية أخذت تتكاثر وتنتشر.. ومثل عصا موسى التى التهمت كل أعمال السحرة كذلك التهمت حركة تضامن ما عداها، واستطاعت أن تعود ومعها فاونسا الذى أصبح أول رئيس لجمهورية بولندا بالانتخاب الحر فى ديسمبر ١٩٩٠.. ولمدة ثلاث سنوات قاد فاونسا بلاده، إلا أنه فى عام ١٩٩٣ ـ وكان قد سمح بوجود الحزب

الشيوعى ـ فقد تمكن هذا الحزب من التحالف مع المزارعين وتولى الحكم.. وأبعد فاونسا عن السلطة.. إلا أنه فى أكتوبر ١٩٩٧ انهار تحالف المزارعين مع الحزب الشيوعى الذى خسر الانتخابات، وحققت حركة تضامن فوزا ساحقا ولكن برئاسة جديدة غير فاونسا، الذى أعلن أخيرا عن تأليف حزب جديد.

وحاليا فإن فاونسا تجاوز الخامسة والخمسين، وهى سن يمكن فى عالم السياسة أن تقوده إلى حكم بلاده.. وسواء حدث ذلك أم لم يحدث فسوف يسجل لفاونسا أنه كان أول من دق مسمارا فى نعش أكبر إمبراطوريات القرن العشرين.. وأغرب ما فى الموضوع أنه لم يخطط لذلك.. فالظروف دفعته.. والضعف الكامن فى البناء السوفيتى، والذى لم يكن منظورا للكثيرين، ساعد على تحقيق هذه النهاية إلى أن جاء آخر اسمه جورباتشوف حفر اسمه هو الآخر فى قائمة الذين غيروا القرن العشرين عندما كتب شهادة وفاة الإمبراطورية السوفيتية!

■ زيارة إلى سنوات فاونسا

- ١٩٤٣: الميلاد فى ٢٩ ديسمبر.
- ١٩٦١: تخرجه فى مدرسة الهندسة الزراعية بمدينة ليبنو.
- ١٩٦٧: كهربائى فى حوض بناء السفن بمدينة جدانسك.
- ١٩٦٩: زواجه الثانى من زوجته الحالية السيدة دانوتا.
- ١٩٧٦: أبعد عن حوض بناء السفن بسبب نشاطه الاجتماعى بين العمال.
- أغسطس ١٩٨٠: أعيد للعمل بحوض بناء السفن، وبعد أيام من عودته أشعل مظاهرات الاحتجاج والثورة على زيادات الأسعار التى قررتها الحكومة.
- ٢٤ سبتمبر ١٩٨٠: وقع تسجيل نقابة «تضامن» رسميا فى بولندا كأول نقابة مستقلة فى بولندا الشيوعية.
- ديسمبر ١٩٨١: أعتقل بعد فرض الأحكام العرفية حتى ١١ نوفمبر ١٩٨٢.
- ١٩٨٣: حصل على جائزة نوبل للسلام.
- ٩ ديسمبر ١٩٩٠: أول رئيس لجمهورية بولندا بالانتخاب الحر.
- ١٩٩٣: خسارة «تضامن» فى الانتخابات وخروجه من الرئاسة، وبعد ذلك عاد حزب «تضامن» إلى الحكم عام ١٩٩٧ برئاسة جديدة.



١٠ حسن البنا

مدرس الإبتدائى الذى أنشأ أكبر حركة دينية

هذا رجل اختلف عمن سبقوه فى الدعوة إلى الإسلام.. فهو لم يكتف بنشر أفكار الدين ومبادئه وتحريض الناس على الالتزام بتعاليمه ومكارم أخلاقه، ولكنه اعتمد بالأساس فى نشر دعوته على بناء حركة منظمة تبدأ من القرية وتنتشر فى المدينة، ثم تذهب إلى كل مصر لتخرج من مصر إلى بعض أنحاء العالم العربى والإسلامى.. وفى الخارج تصنع الحركة تأثيرها كما صنعته فى مصر.. لكن بعض الذين فى الخارج لا يكتفون بقبول أفكارها كما صاغها مؤسسها رغم ما فيها من استخدام للعنف والقوة، ولكنهم يضيفون إليها بحيث يصبح العنف أساسا بعد أن أعطوه اسم «الجهاد»..

ورغم أن هذا الرجل رحل عن الدنيا فى سن الـ ٤٢، وهى سن صغيرة بالنسبة لما فعله، فلقد استمر تأثيره وإشعاعه بعد موته طويلا، وأقوى مما كان.. لقد خرجت من عباءة افكاره وتنظيمه حركات أخرى كثيرة صبغت وجه الإسلام الذى رفعت راياته بالدم والدمار وعمليات الاغتيال.. وهكذا وضع حسن البنا توقيعه على القرن العشرين باعتباره واحدا من الذين أثروا وصنعوا أحداثه.

اسمه الكامل حسن أحمد عبدالرحمن البنا، ويضيفون إلى ذلك لقب الساعاتى وهو لقب أضيف إليه نتيجة أن والده أحمد البنا، وكان يعمل مأذونا وإماما لمسجد القرية إلا أنه مارس أيضا مهنة اصلاح الساعات، فكان أن لقبوه بالساعاتى على غرار إعطاء لقب المهنة إلى اسم صاحبها فى ذلك الوقت، مما جعلنا نسمع عن عائلات النجار والجزار والحداد والسقا والجناينى.. إلخ.

وقد ولد حسن البنا عام ١٩٠٦ بالمحمودية محافظة البحيرة، من أب أنجب خمسة أبناء، كان هو أكبرهم، وفى سن الثامنة دفع به أبوه إلى كتاب القرية حيث تتلمذ على يد أزهرى شديد التدين ترك بالتأكيد أول تأثير على أفكاره. وفى سن الثانية عشرة (فى عام ١٩١٨) دخل حسن البنا المدرسة الإبتدائية، حيث عرف طريقه لأول مرة إلى الاشتراك فى واحدة من الجماعات التى قامت على أفكار مؤسسيها، الذين كانوا يريدون المشاركة فى تحرير مصر من الاحتلال الإنجليزى، فاتجه تفكيرهم إلى إعداد المصرى إعدادا سليما خلقيا حتى يستطيع المشاركة فى واجبه الوطنى.

كانت أول جماعة ينضم إليها حسن البنا جماعة أسمها «جماعة السلوك الاجتماعى» التى استهدفت ترويض نفوس أعضائها من التلاميذ لإلزامهم التحلى بالأخلاق الحميدة فى سلوكهم اليومى.

ورغم أن حسن البنا سرعان ما أصبح رئيسا للجماعة، إلا إنه اكتشف ضعف تأثيرها فأسس مع عدد من زملائه الأكثر حماسا جمعية أخرى أخذت اسم «جماعة النهى عن المنكر»، وكان هدفها فرض الالتزام بتعاليم الدين على سكان المدينة، وتوجيه خطابات تهديد إلى من لا يلتزمون بهذه التعاليم.

إن أى بطل لابد أن تصنعه الظروف التى عاش فيها.. ورغم أنه كان فى المحمودية إلا أنه تأثر بثورة ١٩١٩ التى انتشرت وسارت مظاهراتها فى كل مصر.. ومثل ملايين المصريين سار التلميذ حسن البنا فى مظاهرات ١٩١٩، وربما كان تفكيره أن هذه المظاهرات لابد أن يعقبها نيل مصر استقلالها ورحيل قوات الاحتلال البريطانى عنها، فلما شاهد أن مثل ذلك لم يحدث راح حسن البنا يعيد التفكير.

ومن المدرسة الإبتدائية انتقل حسن البنا إلى مدرسة المعلمين فى محافظة البحيرة، لكنه فى سن السابعة عشرة (١٩٢٣) تعرض لحادث آخر أثر على تفكيره تأثيرا كبيرا، ففى ذلك العام ترك مدرسة المعلمين إلى دار العلوم.. ولكن هذه المرة فى القاهرة.

كانت القاهرة فى ذلك الوقت تعكس التغيرات الكثيرة التى شهدتها مصر فى تلك السنوات.. ففجأة بعد أن كانت مصر محرومة من العمل السياسى أدت ثورة ١٩١٩ إلى ظهور عدد كبير من الأحزاب السياسية المختلفة الاتجاهات، وصدور كثير من الصحف المتنوعة، وازدهار الحركة المسرحية، وزيادة إقبال آلاف البيوتات على تعليم أبنائهم.

وفى خلال ذلك كان المجتمع القاهرى قد تعرض لرياح جديدة نتجت عن الاحتلال الانجليزى لمصر، ومقاومته وضعف سلطة الاستانة، التى كانت تتبعها مصر، وظهور حركة اتاتورك العلمانية فى تركيا، وعودة عدد غير قليل من الذين سافروا من المصريين فى بعثات إلى الغرب حاملين معهم أفكار هذا الغرب المتقدم.

هكذا فإن المجتمع المصرى وجد نفسه يواجه مجموعة متنوعة من الصراعات التى انطلقت فى وقت واحد.. صراع بين القوى المحافظة ودعاة حركة التنوير.. وصراع بين المصفقين لأفكار الحضارة الغربية والرافضين لها.. وصراع بين الذين استهوتهم الاتجاهات العلمانية والذين يدعون إلى الحفاظ على الدين.

فى هذه الدوامة من الصراعات، وفى السنة النهائية بدار العلوم طُلب إليه كتابة مقال مدرسى موضوعه: «تحدث عن الآمال الكبيرة التى تراودك بعد اتمام دراستك، وبين كيف ستعد نفسك لتحقيق هذه الآمال» ويكتب حسن البنا أفكاره قائلا: إننى اعتقد ان شعبى ابتعد عن أهداف إيمانه نتيجة للمراحل السياسية التى مر بها، والتأثيرات الاجتماعية التى تعرض لها وتحت تأثير الحضارة الغربية والفلسفة المادية والتقاليد الافرنجية.. وهكذا فقد أصبح إيمان الشباب فاسدا وسادت بينهم مشاعر الشك والحيرة، وبدلا من الإيمان تفشى الإلحاد. وينهى الشاب حسن البنا مقاله بإعلان عزمه أن يكون ناصحا ومعلما، وأن يكرس نفسه لتعليم الأطفال بالنهار وآبائهم بالليل، مبصرا إياهم بأهداف الدين والمصادر الأصلية لرفاهيتهم وسعادتهم فى الحياة. وهو يتعهد أن يبذل لهذه المهمة اقصى ما يمكنه من مثابرة ونكران ذات، ومن فهم ودراسة واهبا لذلك جسدا يشوق لمواجهة المصاعب وروحا نذرها لله. ثم يختم مقالته بعبارة: هذا عهد بينى وبين ربى.

وفى الإسماعيلية، التى عين حسن البنا مدرسا فى إحدى مدارسها فى ١٩ سبتمبر ١٩٢٧، يبدأ تنفيذ العهد الذى قطعه على نفسه. يقف فى المساجد واعظا، ويدخل المقاهى محدثا، ويزور القرى دون أن يعرفها أو يعرف أى واحد فيها، لكنه لا يعدم من العثور على رجل يرتسم فى وجهه الإيمان فيبدأ بالحديث معه.. ويجتذب الحديث الكثيرين الذين تأسرهم شخصية البنا وحديثه.

وفى الإسماعيلية تسفر اتصالاته عن إقامة علاقات قوية مع ستة من العاملين بالمعسكرات البريطانية: نجار وحلاق ومكوجى وجناينى وسائق وعجلاتى، ويمنحه هؤلاء الستة عهدا بأن يكونوا معه جندا لرسالة الإسلام.. ويبحثون عن اسم لجماعة يؤسسونها.. ويرد عليهم حسن البنا: نحن إخوة فى خدمة الإسلام، ومن ثم فنحن «الإخوان المسلمون» وهكذا بدأت حركة الإخوان المسلمين فى الإسماعيلية عام ١٩٢٨.

كان حسن البنا بالتأكيد طرازا فريدا فى قدرة الدخول إلى قلوب الناس بقوة حديثة وبساطته وتواضعه.. وفى زمان لم تكن هناك وسيلة للقاء الناس غير الذهاب إليهم، فقد وضع حسن البنا لنفسه برنامجا يزور فيه ملايين المصريين فى قراهم. ومن خلال رحلاته العديدة التى قام بها على امتداد ١٥ سنة زار أكثر من ألفى قرية.. وامتدت حركة الإخوان حتى شملت تقريبا كل مصر ووصل عدد شعبها إلى ٤٠٠٠ شعبة.. وقد ساعده انتقاله إلى القاهرة مدرسا بمدرسة عباس بالسبتية على مد نشاطه إلى قلب العاصمة.

كان صاحب عقلية تنظيمية فريدة، وقد نجح فى بناء جماعته على أساس هرمى بما يجعله المسيطر الوحيد عليها والموجه لنشاطاتها، وفى الحلمية، حيث كان المركز العام للجماعة، تعود حسن البنا على لقاء أفراد الجماعة وكل من يحب الحضور فى لقاء اسبوعى كل يوم ثلاثاء، ليحدثهم عن أمور الدعوة وتاريخ الإسلام.. وكما يقول الذين حضروا هذه اللقاءات فلقد كان الآلاف يحتشدون فى فناء المركز العام، ثم يطلع عليهم الإمام «فى جلبابه الأبيض» وعباءته البيضاء وعمامته الجليلة، بينما الحناجر تنطلق زاعقة: الله أكبر.. الله أكبر ولله الحمد.

ومنذ البداية الزم حسن البنا ـ وقد أصبح اسمه المرشد العام ـ كل أعضاء الجماعة بالسمع والطاعة والصمت. وتنتقل الجماعة خطوة أبعد بانشاء حركة الجوالة التى تصبح أول تنظيم خاص يقيمه حسن البنا، وتؤسس الجماعة عدة شركات وتمد نشاطها إلى مجالات أخرى.. مستشفى ومطبعة ومجلة تصبح بعد ذلك الصحيفة اليومية للجماعة.

ويمتد نشاط الجماعة إلى المرأة وإلى الجيش وإلى الشرطة، وتصبح الجماعة سياسية ولكن بغير برنامج سياسى، فقد عمد البنا إلى الحديث عن العناوين دون التفصيلات.. «القرآن دستورنا، والرسول زعيمنا، والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا». وكان عندما يزداد الضغط عليه للحديث عن برنامجه يعلن «إنه عندما تكون لدى الكلمة وتجىء الظروف المناسبة فسوف نتكلم عما يمكن عمله فى ضوء الواقع الذى نجده، وحتى يحدث هذا فلن ندخل أنفسنا فى ضباب التفاصيل».

كان الواضح أن رجل الدين أصبح يتطلع إلى الحكم والسلطة ويعمل للوصول إليهما بالقوة، وحتى لو استدعى الأمر الانقلاب.

وينتهز البنا فرصة القضية الفلسطينية ومقاومة الاحتلال الإنجليزى، ويشكل تنظيما سريا يؤدى أعضاؤه القسم على المصحف والمسدس.. وتمتد الحركة إلى خارج مصر إلى بعض الدول العربية.. وتجذب إعجاب عدد غير قليل من العسكريين الذين كانوا يبحثون عن القيام بدور وطنى مثل جمال عبد الناصر وأنور السادات وحسين الشافعى وحسن إبراهيم وخالد محيى الدين وغيرهم.

ويصبح الإخوان قوة كبيرة كان من الضرورى أن تصطدم مع كل الوزارات والنظم التى حكمت مصر، خاصة بعد أن أصبح لها جهازها السرى الذى تم حشد ترسانة سلاح ضخمة من أجله، وتدريب عدد كبير من رجاله علنا لاستخدام هذا السلاح بحجة الاستعداد لحرب فلسطين.

اصطدمت الجماعة أولا «بالوفد» الذى رأى فيها تنظيما خطيرا يهدد الحياة السياسية متسترا بالدين. فمنع الوفد اجتماعات الجماعة، ولكن فى مرحلة تالية جاءت حكومة أخرى وسمحت لهم بممارسة هذه الاجتماعات، وإن قصرتها على المركز العام حتى يمكن إحكام رقابتها.

ومن الظلام يخرج أفراد الجهاز الخاص إلى النور لممارسة عملياتهم ضد المنشآت الأجنبية الإنجليزية واليهودية.. ويصدر أحد المستشارين، وهو المستشار أحمد الخازندار، أحكاما بالسجن على بعض الذين ثبت قيامهم بهذه الأعمال الإرهابية، وإذا بأفراد من النظام يقومون باغتيال المستشار الخازندار وهو خارج من باب بيته يوم ٢٢ مارس ١٩٤٨..

بدأ استعراض القوة وممارسة التهديد فى أعلى صوره، وتدخل حكومة الحزب السعدى برياسة محمود فهمى النقراشى فى صدام مع الجماعة تتكرر فيه حوادث التدمير والنسف التى يرتكبها أعضاء الجماعة، فيصدر النقراشى قرارا بحل الجماعة يوم ٨ ديسمبر ومصادرة كل أموالها وممتلكاتها.. ولكن بعد ثلاثة أسابيع من هذا القرار يقوم شاب من اعضاء النظام الخاص اسمه عبد المجيد حسن بالتنكر فى زى ضابط بوليس، ويقتل النقراشى وهو فى طريقه لركوب مصعد وزارة الداخلية متجها إلى مكتبه حيث كان يجمع النقراشى بين رئاسة الوزارة ووزارة الداخلية.. وإذا كان السادات قد اغتيل بعد ذلك بـ ٣٣ سنة فى وسط جنوده، فلقد سبقه اغتيال النقراشى وزير الداخلية وسط وزارته وحرسه ! وخلف إبراهيم عبد الهادى النقراشى فى رئاسة الوزارة وشهدت السجون زحاما بالمعتقلين من الإخوان، وعمليات التعذيب التى تمارس معهم، لكن لا يتم اعتقال حسن البنا أو القبض عليه.. ويكون الملك فاروق قد استشعر خطورة وجود حسن البنا عليه. وفى مساء ١٢ فبراير ١٩٤٩ يتم اغتيال حسن البنا أمام مبنى جمعية الشبان المسلمين التى كان يزورها مع صهره عبد الكريم منصور المحامى، فعند خروجهما استقلا سيارة أجرة كانت فى الانتظار، وما أن ادار سائق التاكسى مفتاح البنزين حتى تقدم رجل مثلهم يرتدى الملابس البلدية، وفتح باب السيارة من الجهة التى يجلس فيها حسن البنا وأطلق النار عليه.. وتاه القاتل بعد ذلك فى زحام العاصمة.. وقيل: إن حسن البنا تحامل على نفسه وخرج من السيارة يقول: قتلونى.. هاتوا الإسعاف.. ونقل المرشد الى مستشفى قصر العينى حيث أعلن عن وفاته.. ولكن وفاة المرشد العام لم تقض على الحركة التى وضع بذورها وأقامها ووضع نظامها وأجهزتها.

ولم تنته الصدامات بين الجماعة ونظم الحكم، وبعد قيام ثورة يوليو فى عام ١٩٥٢ فإن الثورة قامت بعد عدة شهور بحل جميع الأحزاب واستثنت جماعة الإخوان المسلمين.. ولكن الصدام عاد قويا بين الثورة والجماعة عندما جرت محاولة على يد أحد أفراد الجماعة لاغتيال جمال عبد الناصر فى ميدان المنشية فى أكتوبر ١٩٥٤. وتم اعتقال الآلاف من أعضاء الجماعة ومحاكمة عدد منهم وتنفيذ الإعدام فيهم.

ولفترة تجمد نشاط الجماعة فى مصر، ولكن أفكارها كانت قد انتشرت فى الخارج.. لقد أصبح للجماعة فروع فى عدد من الدول العربية والإسلامية.

وفى باكستان ـ التى قامت على أساس دينى، انفصلت فيه كتلة المسلمين فى شبه القارة الهندية عن الهنود السيخ ـ تلقف عضو تأثر كثيرا بحركة الإخوان أفكار المرشد العام وأعاد

صياغتها.. وفي كراتشي أصدر هذا العضو «أبو الأعلى المودودى» جريدة أسماها «ترجمان القرآن» كانت تعبر عن فكر الإخوان المسلمين وتدعو إلى عودة للأحوال النقية الأولى للإسلام ولكن المودودى قام بتطوير الأفكار وخرج بضرورة (الجهاد).. وتلقف الفكرة سيد قطب، وهو واحد من قيادات الإخوان فى مصر، فقام بتنظيرها.. وأصبحت أفكار سيد قطب هى المحرك الذى دفع بعض جماعات الإخوان المسلمين إلى التخطيط فى عام ١٩٦٥ لعدد من العمليات الانقلابية والاغتيالات.. ومرة ثانية دخلت الثورة فى صدام مع الجماعة.. فكانت الاعتقالات والمحاكمات وأحكام الإعدام.

ولم تنته الأحداث.. فبعد رحيل جمال عبد الناصر جاء السادات، وحاول استخدام افراد الجماعة فى صورتها الجديدة فى معركته ضد اليساريين.. ولكن كما هى العادة انتهى الأمر، ليس فقط بالصدام بين الجماعة والسادات، وإنما بقيام بعض افرادها العسكريين باغتياله اثناء حضوره الاحتفال بالعيد الثامن لحرب أكتوبر يوم ٦ أكتوبر ١٩٨١.. وكان ذلك سطرا فى حكاية طويلة شهدت الكثير من الأحداث والمفاجآت.. بدأها رجل محدود الدخل لم يكن يملك سوى راتبه المحدود من عمله كمدرس، ولكنه استطاع أن يؤسس أكبر حركة إسلامية فى العالم الإسلامى، ويترك بصمته على أحداث القرن العشرين، وربما أيضا على القرن الحادى والعشرين.

■ زيارة إلى سنوات حسن البنا

- ١٩٠٦: أكتوبر: المولد فى مدينة المحمودية محافظة البحيرة.
- ١٩١٤: يدخل كتاب المدينة.
- ١٩١٨: يدخل المدرسة الإبتدائية ويكون أول جمعية بالمدرسة اسمها جماعة السلوك الاجتماعى.
- ١٩١٩: يشترك فى المظاهرات التى قامت فى مدينته فى إطار ثورة ١٩١٩ التى شملت كل مصر.
- ١٩٢٢: يدخل مدرسة المعلمين لكنه لا يبقى فيها غير سنة ينتقل بعدها إلى دار العلوم فى القاهرة.
- ١٩٢٧: يعين مدرسا للغة العربية بمدرسة ابتدائية فى الإسماعيلية.
- ١٩٢٨: يعلن فى الإسماعيلية قيام جماعة الإخوان المسلمين.
- ١٩٣٣: ينتقل إلى القاهرة ـ ويشكل أول مكتب إرشاد عام للجماعة برئاسته.
- ١٩٤٧: ترتكب الجماعة عمليات تدمير واسعة ضد المنشآت الأجنبية فى القاهرة، وتقتل المستشار أحمد الخازندار لأنه حكم على بعض المتهمين بالسجن.
- ١٩٤٨: يصدر محمود فهمى النقراشى قرارا بحل جماعة الإخوان المسلمين.
- ١٩٤٨: بعد ثلاثة أسابيع يتم اغتيال النقراشى على يد أحد أفراد الجماعة.
- ١٩٤٩: ١٢ فبراير : اغتيال حسن البنا وهو يركب سيارة تاكسى أمام جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة.



١١ جول ريميه

بسببه كان هذا الجنون على كأس العالم!

فى كل مرة تنطلق فيها صفارة أى حكم معلنة بداية أى مباراة فى بطولة كأس العالم لكرة القدم سيتذكر واحد على الأقل من الملايين الذين أصبحوا يشاهدون مباريات هذه البطولة، وينفعلون استمتاعا بها، أسم هذا الرجل الذى كافح وجاهد لإقامة هذه البطولة.. سيتذكر الفرنسى «جول ريميه» الذى بفضله أصبح العالم يجتمع معا فى سهرة واحدة.. فى متعة واحدة.. للفرجة على هذه المعركة الشريفة التى تتنافس فيها الفرق، التى كان لها شرف الوصول إلى نهائى الكأس وحلم الفوز به.

الغريب أن جول ريميه، الذى حارب من أجل تنظيم كأس العالم لكرة القدم، لم يمارس لعبة الكرة، فقد كان من عشاق ألعاب القوى والسلاح، ولكنه كان فى الوقت نفسه شغوفا بكرة القدم، وكان أهم من ذلك يرى فى الرياضة جانبها الأخلاقى والاجتماعى، ولهذا فإنه فى سن الرابعة والعشرين أسس نادى «ريستار» فى فرنسا.

وبسبب حماسه الشديد لكرة القدم – رغم أنه لم يمارس اللعبة – فإنه عندما شكلت لجنة لإدارة بطولة الدورى الفرنسى عام ١٩١٠ – وكانت هذه اللجنة نواة اتحاد كرة القدم الفرنسى – اختير ريميه رئيسا لها، وبعد ذلك اختير رئيسا للاتحاد الفرنسى عام ١٩٢١ بعد الحرب العالمية الأولى. ومنذ ذلك الوقت كرس جهوده للمناداة بتنظيم بطولة للعالم يشارك فيها اللاعبون الهواة والمحترفون معا، وذلك لزيادة المتعة والمنافسة التى كانت تخلو إلى حد ما من مباريات الدورات الأوليمبية، التى كانت قد بدأت لأول مرة فى اليونان عام ١٨٩٦. لكن كرة القدم لم تبدأ فى الأوليمبياد إلا منذ عام ١٩٠٨. إلا أن هذه المنافسة الأوليمبية ظلت مقصورة على اللاعبين الهواة (حتى اليوم مازالت الدورات الأوليمبية تقتصر على الهواة) فى الوقت الذى كانت فيه بعض الدول

الأوروبية قد اعتمدت نظام الاحتراف، فتخلف نجومها عن خوض الدورات الأوليمبية التى لم تعد الميدان المثالى لكرة القدم.

لهذا كافح جول ريميه من أجل مناصرة الاحتراف وإنشاء بطولة يتنافس فيها الهواة والمحترفون معا.. وقد تصادف فى أوليمبياد ١٩٢٤ أن اشتركت فرق أمريكا الجنوبية فى هذه الدورة، وفاز فريق أوروجواى عن جدارة بالميدالية الذهبية فى هذه البطولة التى أقيمت فى باريس.

واستغل جول ريميه الموقف وبدأ يغرى دول أمريكا الجنوبية لتأييد دعوته، وبالفعل نجح ريميه فى الحصول على موافقة أوروجواى على استضافة بطولة للعالم فى كرة القدم فى حالة ما إذا تمت الموافقة على إقامة هذه البطولة.

وهو ما أمكن بالفعل تحقيقه، ولكن فى عام ١٩٣٠، بعد أن اتفق على إقامة المسابقة كل أربع سنوات. وقد تم تكليف أوروجواى بتنظيم البطولة للمرة الأولى بعد ما تعهدت بتغطية مصاريف السفر والاقامة، وبناء ملعب يتسع لـ ١٠٨ آلاف متفرج أطلقت عليه اسم سنتيناريو (أى المئوى بالإسبانية)، لأن عام ١٩٣٠ كان يوافق العيد المئوى لاستقلال أوروجواى. وبسبب هذه المناسبة سحبت المجر وإيطاليا وإسبانيا وهولندا والسويد طلباتها بتنظيم البطولة.

ومنذ عام ١٩٣٠ من تاريخ أول دورة ــ تم تنظيم ١٥ بطولة عدا البطولة السادسة عشرة التى أقيمت يوم ١٠ يونيو الماضى فى فرنسا.. وبسبب الحرب الغيت البطولة عامى ١٩٤٢ و١٩٤٦.

لقد بدأت البطولة الأولى فى أوروجواى (١٩٣٠)، ثم كانت الثانية فى ايطاليا (١٩٣٤) ثم فى فرنسا (١٩٣٨)، ثم فى البرازيل (١٩٥٠) ثم فى سويسرا (١٩٥٤)، ثم فى السويد (١٩٥٨)، ثم شيلى (١٩٦٢)، فإنجلترا (١٩٦٦)، فالمكسيك (١٩٧٠)، فألمانيا الغربية (١٩٧٤)، فالأرجنتين (١٩٧٨)، فإسبانيا (١٩٨٢)، فالمكسيك (١٩٨٦)، فإيطاليا (١٩٩٠)، فالولايات المتحدة (١٩٩٤)، وأخيرا فرنسا (١٩٩٨)، وهى آخر بطولة تقام هذا القرن.. ومنذ بدأت منافسات البطولة جرت المنافسة للحصول على الكأس الذهبية التى أطلق عليها اسم «جول ريميه» الجندى الذى كافح لجعل هذه البطولة حقيقة. والغريب أن الإنجليز، رغم أنهم من أوائل الذين لعبوا الكرة بل إنهم ينسبون إلى أنفسهم تاريخها، إلا أنهم كانوا من الذين عارضوا هذه البطولة، وإلى حد الحرب، وذلك بسبب إحساسهم بالغطرسة باعتبار أنهم أصحاب أول مباريات للكأس، وأول مباريات للدورى فى العالم فى بلادهم.. وعندما دخلت كرة القدم الدورات الأوليمبية فإنهم حصلوا على بطولتها فى دورتى ١٩٠٨ و١٩١٢، ولم تستطع دولة أن تهزمهم على أرضهم أو حتى خارجها.. وهكذا تصور الإنجليز أنهم أبطال فى لعبة لا منافس لهم فيها، ولا يستحق واحد آخر ادعاء منافستهم إلى أن جاءت دورة أوليمبياد بلجيكا عام ١٩٢٠، وفى أول دور للبطولة، تمكن فريق النرويج المغمور من أن يهزم منتخب إنجلترا ٣/صفر. وقد أغضبت الهزيمة الإنجليز إلى حد أنهم

رفضوا الاشتراك فى دورتى ٢٤ و٢٨، ثم انسحبت الاتحادات البريطانية المشرفة على شئون اللعبة من الاتحاد الدولى عام ١٩٢٨.. وظلت إنجلترا بعيدة عن عضوية هذا الاتحاد العالمى حتى عام ١٩٤٨ ـ بعد نهاية الحرب العالمية ـ وحتى بطولات كأس العالم لم تشترك إنجلترا فى البطولات الثلاث الأولى (عام ١٩٣٠ و١٩٣٤ و١٩٣٨)، ولكنها بدأت الاشتراك اعتبارا من البطولة الرابعة عام ١٩٥٠.. وقد برر الإنجليز انسحابهم على أساس أنه لم يكن هناك تحديد واضح فى الدورات الأوليمبية بين اللاعبين المحترفين والهواة، مما جعل بعض الدول تتلاعب وتشرك عددا من المحترفين فى المباريات الأوليمبية المفروض أنها للهواة، مما يعكس ـ فى رأى الإنجليز ـ أن هذه البطولات لم تلق التنظيم الجيد الذى يستحق أن تشترك فيه.

ولكن ـ وبصرف النظر عن الإنجليز ـ فقد شهدت جميع البطولات حماسا شديدا ومنافسات قوية للفوز بكأس جول ريميه، وهى كأس صنعها الفنان الفرنسى إبيل لاتور من الذهب الخالص لفتاة تحمل إكليل الغار. ووزن هذه الكأس ٤ كيلوجرامات، وطولها ٣٠ سنتيمترا. وفى ذلك الوقت ـ عام ١٩٣٠ ـ تكلفت ٤٠ ألف جنيه أسترلينى.

وكان من شروط المسابقة أن يحتفظ بالكأس للأبد من يفوز بها ثلاث مرات، وهو ما حدث للبرازيل التى فازت فى بطولات ١٩٥٨ و ١٩٦٢ و١٩٧٠ وأصبحت الكأس ملكا للبرازيل. لكن هذه الكأس التى حازتها البرازيل سرقت من خزينة الاتحاد البرازيلى لكرة القدم، وفشل البوليس فى العثور عليها، وبعد أن تأكد أن الذين سرقوها قاموا بصهرها وبيع ذهبها قام الاتحاد البرازيلى عام ١٩٨٤ بصنع نسخة طبق الأصل من هذه الكأس!

◆ ◆ ◆

لقد كان من نتيجة بطولة كأس العالم ونجاحها وتسابق الدول إلى الاشتراك فيها أن قويت، إلى حد كبير، شوكة تنظيم الاتحاد الدولى لكرة القدم المشهور باسم (الفيفا)، والذى يعد حاليا أقوى تنظيم عالمى.

وقد بدأ هذا الاتحاد فى ٢١ مايو ١٩٠٤ من سبع دول فقط (فرنسا وبلجيكا والدانمرك وهولندا وأسبانيا وسويسرا والسويد)، ولكنها سرعان ما أخذت تتزايد، فوصل الأعضاء عام ١٩١٤ إلى ٢٤ دولة، ثم ٣١ دولة عام ١٩٢٣، وهو العام الذى انضمت فيه مصر إلى عضوية هذا الاتحاد.. وفى عام ١٩٣٨ وصل عدد الأعضاء إلى ٥١ دولة، وفى عام ١٩٧٧ قفز العدد إلى ١٤٦ ثم إلى ١٥٨ دولة فى عام ١٩٨٧، وفى عام ١٩٩٦ وصل عدد الدول أعضاء الاتحاد إلى ١٩٦ دولة أى ـ تقريبا ـ كل العالم.

هذه الدول هى التى يتم تنظيم التصفيات بينها للوصول إلى كأس العالم كل ٤ سنوات.. لكن الأهم هو سيطرة الاتحاد الدولى (الفيفا) على كل شئون الكرة فى الدول الأعضاء.. أى فى كل العالم.

وعندما يصدر الاتحاد الدولى تعديلا فى أى شرط من شروط اللعبة، فإنه يصبح قانونا ساريا على كل العالم... وعندما يوقف الاتحاد الدولى لاعبا أو حكما أو إداريا أو يشطب واحدا من أى من هؤلاء، فإن قراراته تنفذ على الجميع.. وهو ما يوضح إلى أى حد تبلغ قوة هذا «الفيفا». وقد ساعد على هذه القوة انتشار اللعبة وشعبيتها البالغة، خاصة بعد أن نقل التليفزيون مبارياتها ومنافساتها الفرق المشتركة فى دورات كأس العالم وبطولاتها.. وكانت أول مباراة ينقلها التليفزيون عام ١٩٣٨ فى نهائى كأس انجلترا.. كما شاهد العالم من انجلترا أيضا أول مباريات يتم نقلها بالتليفزيون الملون وكان ذلك فى عام ١٩٦٨.

◆ ◆ ◆

ولابد أن يسجل للإنجليز ولجامعة كامبريدج على وجه التحديد أنها كانت صاحبة الفضل فى وضع أول قانون لكرة القدم وكان ذلك فى العام ١٨٦٣.

وقد أختلف المؤرخون على تاريخ كرة القدم.. وهل كان الإنجليز أو الصينيون أو الايطاليون أو غيرهم، ولكن الثابت أنه فى يوم ٢٦ أكتوبر ١٨٦٣، قام أستاذ بجامعة كمبريدج بوضع أول قانون للعبة التى راحت تنتقل من بلد إلى بلد، ومن قارة إلى قارة حتى أصبحت دول العالم جميعا تلعبها، بل وأيضا تعشقها إلى حد الجنون.

ورغم أن مواد كثيرة من القانون الأول للعبة مازال ساريا حتى اليوم، إلا أن هذا القانون شهد الكثير من التعديلات التى واكبت التغيرات التى حدثت فى المجتمع العالمى والاحتياجات التى بدت.

وعلى سبيل المثال فقد كان المرمى فى بداية القانون يحده من أعلى حبل مشدود، ولكن فى عام ١٨٧٥ ظهرت عارضة المرمى الخشبية لأول مرة.

وفى عام ١٨٧٨ استخدم الحكام لأول مرة الصفارة لإدارة المباريات. وحتى عام ١٨٨٢ لم تكن عرقلة المهاجم داخل منطقة الجزاء تحتسب ضربة جزاء بل «فاول» عادى، وقد أدى ذلك إلى تكرار عرقلة المهاجمين فتم إدخال تعديل احتساب ضربة الجزاء.

وكانت رمية «التماس» تلعب بالقدم على أساس أن اللعبة كرة قدم فأصبح اللاعب يقوم باستخدام يديه فى رمية التماس اعتبارا من عام ١٨٨٣، والغريب أنه يجرى حاليا التفكير فى إعادة استخدام القدم لمن يشاء فى رمية التماس.

وفى سنة ١٨٩١ تم إدخال تعديل بالغ الأهمية على إدارة المباراة، فقد كان حاملو الراية هم أصحاب الكلمة فى هذه الإدارة، ولكن التعديل جعل حكم الملعب هو صاحب القرار الأول والأخير.. وحاليا تجرى دراسة أن يكون هناك حكم رابع عدا حاملى الراية وحكم الملعب يختص بزمن المباراة على طريقة «الميقاتى» فى مباريات كرة السلة.

وفى عام ١٩٣٣ ظهرت لأول مرة أرقام اللاعبين على الفانلات التى يرتدونها، ثم أصبحت أخيرا على «الشورت»، كما بدأ منذ كأس العالم ١٩٩٦ كتابة اسم كل لاعب على فانلته بحيث يكون واضحا للحكم مرتكب الخطأ وتوجيه إنذاراته إلى اللاعب الذى يستحق.

وقد حدث فى إحدى المباريات التى كان حكمها يتحدث الإنجليزية وطرفاها يتحدثان الإسبانية، أن قام الحكم بانذار أحد اللاعبين، وكانت طريقة الإنذار فى ذلك الوقت (عام ١٩٦٨) تقتضى أن يستدعى الحكم اللاعب ويوجه إليه الإنذار شفويا.. ولكن الفريق احتج بأنه لم يعرف أن لاعبه أخذ إنذارا لأن الحكم تحدث إليه بالإنجليزية، ولم يفهم منه اللاعب ماذا كان يريد أن يقوله له لأنه لا يتحدث غير الإسبانية. ونتيجة لهذا الخلاف ظهرت ابتداء من عام ١٩٦٩ فكرة استخدام البطاقات الصفراء والحمراء التى يخرجها الحكم.. الصفراء يرفعها الحكم فى وجه اللاعب الذى ينذره، والحمراء يرفعها للاعب الذى يطرده، وذلك دون حاجة إلى استخدام أى كلام.. وبذلك أصبحت هناك لغة عالمية اسمها لغة البطاقات أو الكروت.. ومن بين الاقتراحات المعروضة حاليا إدخال بطاقة ثالثة زرقاء يرفعها الحكم فى وجه اللاعب الذى يبدر منه سلوك سيىء يستحق عليه الطرد وحرمان فريقه منه، وإنما يستوجب إبعاده من الملعب واستبداله بلاعب آخر.

وكل هذا يعنى أن التعديلات مازالت مستمرة، خصوصا بعد أن أقبل عليها الأمريكيون عقب استضافتهم بطولة كأس العالم رقم ١٥ عام ١٩٩٤..، الأمريكيون لم يكونوا يحبون كرة القدم التى نعرفها لأن أهدافها قليلة، وهم يحبون الإثارة والسرعة وهو ما يجدونه فى كرة القدم الخاصة بهم، وفى كرة السلة وهوكى الجليد والملاكمة.. ولكن أخيرا انضم الأمريكيون إلى عشاق كرة القدم، وبدأوا يعيدون التفكير فى أنواع «البهارات والتوابل» التى يضيفونها إلى اللعبة كى يجعلوها أكثر إثارة وسرعة وحيوية.

ولقد أصبح كل شىء جاهزا لبطولة العالم ١٩٩٨ التى بدأت فى فرنسا يوم العاشر من يونيو. فهناك عشر مدن أقيمت فيها مباريات هذه البطولة التى افتتحت بمباراة البرازيل واسكتلندا فى سان دونى واختتمت يوم ١٢ يوليو بالمباراة النهائية فى باريس.

من يفوز بهذه البطولة ؟

عندما سئل بيليه الذى اعتبر أحسن لاعب فى تاريخ الكرة عن اسم المنتخب الذى يتوقع أن يحمل كأس البطولة رقم ١٦. قال بدون تردد: البرازيل.

وبيليه يعمل حاليا وزيرا للرياضة فى بلاده البرازيل، والغريب أنه رغم عبقريته كلاعب كرة إلا أنه فشل فى توقعاته، ففى عام ١٩٩٤ توقع بيليه أن تلعب كولومبيا بقيادة نجومها فالديراما ورينكون واسبريا وفالنسيا واسكوبار دور الحصان الأسود فى هذه البطولة، التى استضافتها

الولايات المتحدة، بل أكثر من ذلك أكد أن كولومبيا ستكتسح كل من يقف فى طريقها إلى أن تصل إلى النهائيات.. ولكن كانت المفاجأة فى خروج كولومبيا من الدور الأول للمسابقة.. وشهد فريق كولومبيا مأساة عندما سجل نجمه اسكوبار هدفا فى مرماه، وبعد أيام أطلق أحد المواطنين النار على اسكوبار وقتله!

وبعد ذلك فى بطولة كأس الأمم الأوروبية عام ١٩٩٦ توقع بيليه أن تفوز بها انجلترا، لكنه تلقى صفعة جديدة بخروج الانجليز من الدور نصف النهائى للبطولة بركلات الترجيح أمام الفريق الألمانى.

ولهذا تتفاءل دول أخرى بان تفوز هى بالكأس وليست البرازيل، التى حصلت مرة واحدة على هذه الكأس خلال المرات التى أقيمت فيها على أرض أوروبية وكان بيليه وقتها فى سن السابعة عشرة وهو الذى قاد بلاده لإحراز هذه البطولة فى السويد.

ولكن أيا كان الفائز فسوف يظل اسم جول ريميه مرتبطا بهذه البطولة التى أصبحت تجذب أكبر عدد من المشاهدين.. إنها المتعة التى يستشعرها ملايين الناس فى كل انحاء العالم.

■ زيارة إلى سنوات كأس العالم

- ١٩٢٦: نجح جول ريميه فى إقناع مجموعة من الدول بتنظيم بطولة لكأس العالم يشترك فيها اللاعبون المحترفون.
- ١٩٣٠: أول بطولة للكأس فى أوروجواى وفازت بها أوروجواى ولم تشترك فيها انجلترا التى كانت قد انسحبت من الاتحاد الدولى للكرة.
- ١٩٤٢ و١٩٤٦: توقفت البطولة بسبب الحرب العالمية الثانية.
- ١٩٥٠: تم استئناف البطولة واشتركت فيها انجلترا.
- ١٩٦٦: اقيمت البطولة فى لندن ونقلت إليها الكأس لتسليمها للفائز لكنها سرقت قبل بداية البطولة ثم عثر عليها الكلب البوليسى بيكلاس مدفونة فى إحدى الحدائق تحت شجرة!.
- ١٩٧٠: فازت البرازيل بكأس العالم للمرة الثالثة واحتفظت بالكأس للأبد، إلا أنها سرقت من خزينة الاتحاد البرازيلى، وتم صهرها وبيع ذهبها فقام الاتحاد البرازيلى بصنع كأس مشابهة للمسروقة.



١٢ شارل ديجول

الرمز الحى لشرف وروح أمة

لم تعرف فرنسا خلال القرن العشرين قائدا وزعيما بحجم شارل اندريه مارى جوزيف ديجول الشهير بشارل ديجول.. فبفضله حافظت فرنسا على شرفها فى مواجهة الاحتلال الألمانى.. فالألمان احتلوا فرنسا، وقائد الجيش الفرنسى أعلن استسلامه، ولكن فى نفس اليوم هرب ديجول إلى لندن حيث أعلن من هناك حركة تحرير فرنسا، وفرض نفسه على الأحداث التى صنع بها تاريخا جديدا لفرنسا فى القرن العشرين.

كان لا يحب الحديث عن طفولته، وإن كان يعتقد أنه لولا ذلك الطفل الذى ولد فى الثانى والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٨٩٠ لما كانت فرنسا.. قالها كثيرا: «أنا فرنسا وفرنسا أنا».. وعندما فاجأ الجميع بهروبه فى نفس اليوم الذى كان قائد الجيش الفرنسى يعلن استسلامه لهتلر، وذهب إلى لندن، فلقد كان من بين ما قاله لتشرشل رئيس وزراء بريطانيا: إذا لم أكن أنا فرنسا، فبالله ماذا أفعل فى مكتبك؟! ولم يكن ديجول يملك فى ذلك الوقت سوى شعلة أمل صغيرة أمسك بها وسط الظلام الدامس الذى ساد بلاده، ولكنه استطاع أن يحولها إلى واقع جديد حافظ به على شرف بلاده، خصوصا عندما استطاع أن يشترك بقوات فرنسية فى عملية تحرير فرنسا، ويقصر مهمة تحرير باريس العاصمة على الفرنسيين وحدهم.

كان أبوه استاذا للتاريخ فى أحد المعاهد الدينية، فلما أغلق هذا المعهد أصبح عاطلا، لكنه رغم ذلك قرر تعليم ابنه تعليما خاصا فارسله إلى بلجيكا، حيث ظهر لديه حلم الانتظام فى صفوف الجيش.. واستطاع بالفعل الالتحاق بمدرسة (سان سير) العسكرية، ولكن دون أن يلفت إليه الانظار، فقد كان مثل الكثيرين من زملائه طالبا عاديا يحترم النظام. وبعد تخرجه بعام واحد اشتعلت نيران الحرب العالمية الأولى فى عام ١٩١٤.. وفى العمليات الحربية التى اشترك فيها

جرح ديجول ثلاث مرات خلال عامي ١٩١٤ و١٩١٥، ثم في عام ١٩١٦ أبيدت الفصيلة التي كان يقودها ديجول وأسره الألمان.. ولكن قائده أبلغ عن إبادة كل الفصيلة دون أن يعرف أن الألمان أسروه، وأبلغ عائلته بقتله.. وبعد عامين من الأحزان عليه فوجئت به الأسرة يعود إلى الحياة، وكانت الحرب قد انتهت. وخلال الفترة التي أعقبت عودته إلى صفوف الجيش ظل ديجول يتنقل في المناصب ولكن دون أن يلفت إليه الأنظار، إلى أن وقعت أحداث الحرب العالمية الثانية.

في ٣١ أغسطس ١٩٣٩ فاجأ هتلر العالم بجيوشه تكتسح بولندا وتحتلها.. حدث ما كان يتوقعه الكثيرون بسبب إغماض العين عما كان يفعل هتلر.. وفي اليوم التالي لدخوله بولندا وجهت بريطانيا وفرنسا إنذارا شكليا إلى هتلر تطلب إليه سحب قواته.. ولم يفعل هتلر بالطبع فكان أن أعلنت كل من بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا مساء الثالث من سبتمبر ١٩٣٩، معتمدتين على خط ماجينو الدفاعي الذي أقامته هيئة أركان حرب الجيش الفرنسي على الحدود الفرنسية الألمانية.

نسب هذا الخط إلى أندريه ماجينو، الذي تولى وزارة الحربية الفرنسية عامي ١٩٢٩ و١٩٣٠، وخلال هذين العامين ركز جهوده في التوصل إلى أسلوب دفاعي في فن التحصينات، فأقام هذا الخط الدفاعي على طول الحدود الشرقية لفرنسا من حدود سويسرا إلى حدود بلجيكا، مرورا بألمانيا.. وربما كان هذا الخط الدفاعي صالحا في الوقت الذي بدأ التفكير فيه، أما بعد التطور الذي أدخله هتلر إلى قواته بتطوير سلاح الطيران فقد تخلف الخط الدفاعي عن قدراته.

لم يكترث هتلر بالتهديدات البريطانية الفرنسية، ومضى في تنفيذ خططه، فقام بتصفية مقاومة الجيش البولندي وأحتل الجزء الأكبر من بولندا تاركا لقوات ستالين في الاتحاد السوفيتي التقدم إلى شرق بولندا واحتلال نحو ربع أراضيها، وبعد أن أنهى هتلر هذه المهمة في بداية صيف عام ١٩٤٠، استدار إلى التهام بلجيكا وفرنسا بطريقة أذهلت الفرنسيين الذين فاجأهم هتلر بسلاح طيرانه القوي، وخلال أيام كان خط ماجينو الدفاعي الذي اعتمدت عليه فرنسا قد انهار..

□ ١٧ يونيو ١٩٤٠: يوم الأحداث

كان يوم ١٧ يونيو ١٩٤٠ هو يوم الأحداث الحارة مثل الجو الحار الذي ساد فرنسا.. ففي ذلك اليوم أعلن رئيس الحكومة الفرنسية بول رينو استقالته معلنا عن استسلامه لهتلر.. وفي نفس اليوم أذاع قائد الجيش الفرنسي الماريشال فيليب بيتان بيانا على الشعب الفرنسي قال فيه: لقد وجهت الليلة نداء إلى الخصم (يقصد ألمانيا) أسأله عما إذا كان على استعداد لكي يتفاوض معنا – بين عسكريين وعسكريين – عن وسائل إنهاء الحرب. وكان هذا البيان بصريح العبارة إعلانا بالاستسلام.. استسلام فرنسا أمام هتلر..

وأصبحت الصورة واضحة أمام ديجول، الذى كان قد عين وكيلا لوزارة الحربية فى ٥ يونيو. كانت الصورة أمامه جيشا تنهار دفاعاته.. وقيادة لا تملك روح المقاومة وعلى استعداد للاستسلام، وهو ما حدث بالفعل.

وفى صباح نفس يوم الأحداث: ١٧ يونيو ١٩٤٠، توجه ديجول إلى مكتبه فى مدينة بوردو، وهى المدينة التى كانت حكومة بول رينو قد انتقلت إليها من باريس.. وحدد ديجول مواعيد مقابلاته بعد الظهر، وكان من بينها موعد مع جنرال بريطانى اسمه سبيرز كان فى زيارة فرنسا.. وقرر ديجول - رغم ظروف الحرب - أن يودع الجنرال البريطانى حتى المطار.. وعلى باب الطائرة وقف ديجول ينتظر إدارة الطائرة محركاتها حتى بدأت فعلا تستعد للتحرك، ثم فجأة قفز الى داخلها وأغلق بابها وطلب إلى قائدها أن يطير إلى لندن وسط دهشة رجال الأمن فى المطار.

كان ديجول يمثل فى ذلك الوقت فرنسا الجديدة.. فرنسا المقاومة.. فرنسا الرافضة لهزيمة إرادتها بعد أن هزمت قواتها.. ولم يكن ممكنا لديجول أن يقاوم من داخل فرنسا، حيث كان العدو الألمانى والاستسلام الفرنسى ممثلا فى الماريشال بيتان الرافض لأى مقاومة..

وفى اليوم التالى لوصوله إلى لندن استمع الفرنسيون إلى صوت ديجول يتحدث إليهم من راديو لندن يعلن عليهم بداية الأمل.. فالهزيمة لم تصبح بعد نهائية.. وفرنسا ليست وحيدة وإنما لها إمبراطورية واسعة تقف من ورائها، ويمكنها بالتضامن مع بريطانيا الاستمرار فى الحرب.. «إننى أنا الجنرال ديجول موجود الآن فى لندن، وادعو جميع الضباط والجنود الفرنسيين الموجودين حاليا بالأراضى البريطانية إلى أن يتصلوا بى سواء بأسلحتهم أو بدونها، كما أدعو المهندسين والعمال الفنيين فى صناعة الأسلحة الموجودين بالأراضى البريطانية، أو الذين ينتظر وجودهم بالأراضى البريطانية أن يتصلوا بى أيضا..» واختتم ديجول بيانه بقوله: «مهما يحدث فإن شعلة المقاومة الفرنسية يجب ألا تخمد.. وهى لن تخمد..»

ولكن الأمور فى داخل فرنسا كانت تتخذ طريقا آخر.. ففى ٢٢ يونيو ١٩٤٠ وقع الماريشال بيتان اتفاقية هدنة مع المانيا، ثم بعد ذلك اتفاقية هدنة مع ايطاليا.. وكون بيتان حكومة جديدة مقرها فيشى، بعد أن أصبحت باريس مقر القيادة الألمانية.. ونتيجة لذلك اعتبر بيتان الجنرال ديجول خارجا على دولته.. وأمام الخطب الملتهبة التى كان يوجهها استدعاه بيتان للعودة إلى باريس، ولكنه بالطبع رفض، فكان أن قرروا محاكمته غيابيا أمام محكمة فرنسية بتهمة الهروب من الخدمة، وفى ٢٤ يوليو أصدرت حكومة بيتان قرارا بتجريده من جنسيته، ومصادرة أملاكه فى فرنسا، وبعد ذلك بنحو أسبوع صدر حكم بإعدامه فى الوقت الذى لم يتوقف فيه عن توجيه نداءاته المتكررة إلى الشعب الفرنسى من راديو لندن، يدعوه بها إلى الصمود أمام العدو الألمانى وأمام الحكومة الخائنة العميلة بقيادة بيتان.

كان ديجول، من الناحية الواقعية، يعتبر لاجئا سياسيا انهزمت بلاده أمام الألمان، ولكنه استطاع من خلال خطبه الملتهبة التى كان يكتبها بنفسه أن يمثل رمزا عظيما لمقاومة أمة.. كان على حد تعبير ونستون تشرشل، رئيس وزراء بريطانيا، قد غادر فرنسا فى طائرة صغيرة حاملا معه فى هذه الطائرة الصغيرة شرف فرنسا.. وخلال ثلاث سنوات استطاع ديجول حث الدول الإفريقية التابعة لفرنسا على الانضمام إلى دعوة المقاومة التى اطلقها، وأن يبنى حركة فرنسا الحرة.. وفى يونيو سنة ١٩٤٣، وبعد أن نجحت قوات الحلفاء فى تحرير شمال إفريقيا من الغزو الألمانى، نقل نشاطه إلى الجزائر، حيث شكل هناك حركة جديدة لتحرير الوطن تحولت إلى حكومة مؤقتة للجمهورية الفرنسية.

كان الأهم من ذلك نجاح ديجول فى جمع شمل قوات فرنسية استطاعت أن تشترك فى عملية عبور المانش صباح يوم ٦ يونيو ١٩٤٤ مع سفن الجنود الأمريكيين والبريطانيين والكنديين، متقدمين نحو الشاطىء الفرنسى بقيادة الجنرال الأمريكى دوايت ايزنهاور.

وهكذا سجل ديجول أول انتصار له فى معركة تحرير بلاده بإشراكها ضمن القوات التى قامت بالعبور إلى الأرض الفرنسية وتحريرها، وبعد ذلك نجح ديجول فى إقناع ايزنهاور بإعطاء الفرقة الفرنسية وحدها شرف تحرير باريس، بالاشتراك مع رجال المقاومة السرية، وهو ما تحقق بالفعل.. وبذلك سجل ديجول أن العاصمة الفرنسية قد حررها الفرنسيون.. وفى يوم ٢٥ أغسطس ١٩٤٤ استقل الجنرال ديجول سيارته من مدينة رامبوييه، حيث كان يتابع سير المعركة، واتجه إلى باريس ليدخلها بعد غيبة دامت أربع سنوات وسبعين يوما.

كان ديجول حريصا على أن يستمد شرعيته من الشعب الفرنسى، ولهذا فإنه أعلن بعد دخوله باريس أنه سيتوجه فى اليوم التالى (٢٦ أغسطس ١٩٤٤) إلى قبر الجندى المجهول فى ميدان ليتوال حيث قوس النصر.. وعندما ذهب ديجول فى الساعة الثالثة بعد الظهر كانت باريس كلها هناك تحيط به وتعلن دعمها له، وبما لا يدع مجالا للشك فى أن هذا الشعب الفرنسى قد اختار ديجول رئيسا مؤقتا لجمهورية جديدة فى فرنسا، وهكذا بدأ ديجول رئاسة الجمهورية الرابعة لفرنسا الحرة.

يصف ديجول الأوضاع فى فرنسا فى ذلك الوقت فيقول: كان هناك كل شىء فيما عدا الدولة.

كان لديجول فكره ورؤيته لفرنسا ما بعد الحرب، ولكنه اصطدم مع الشيوعيين والاشتراكيين الذين أصبحوا يمثلون الأغلبية فى الانتخابات التى جرت يوم ٢١ أكتوبر ١٩٤٤ لاختيار ممثلى الشعب فى البرلمان.. ونتيجة لهذا الصدام قرر أن ينسحب رافضا مطلب الشيوعيين بالحصول على ثلث الوزارات، وفى مقدمتها وزارة الخارجية.. وفى ٢٠ يناير ١٩٤٥، بعد تسعة أسابيع من توليه الرئاسة، استدعى ديجول وزراءه وقال لهم وهو يرتدى بدلته العسكرية التى دخل بها

باريس: لقد انتهت مهمتي باجتماع الجمعية الوطنية التى اختارها الشعب، وعلى الأحزاب أن تتحمل مسئوليتها.

وهكذا انسحب ديجول من موقعه الرئاسى ومن كل المواقع بعد أن قرر اعتزال الحياة السياسية.

كان أهم ما يؤمن به هو معرفة متى يدخل ويجيء ويظهر، ومتى يخرج ويذهب وينسحب.

وفى هذه المرة انسحب ولكن ليعود مرة أخرى بعد ١٣ سنة، بعد أن أصبحت عودته مطلبا ضروريا لإنقاذ فرنسا مرة أخرى..

كانت الأمور قد تطورت فى فرنسا نتيجة اشتعال الثورة الجزائرية، ومطالبة الجزائريين بتحرير بلادهم من الاستعمار الذى بدأ فى عام ١٨٣٠، وانقسام الفرنسيين تجاه هذا المطلب.. ووصل الأمر بالفرنسيين إلى حد تدبير مؤامرة لاختطاف خمسة من زعماء الثورة الجزائرية كانوا فى طريقهم بالطائرة من الدار البيضاء فى المغرب إلى تونس، وقد أمكن بالاتفاق مع قائد الطائرة هبوط الطائرة فى مطار الجزائر، وخرج الزعماء الخمسة - أحمد بن بيلا ومحمد خضير ومصطفى الاشرف ومحمد بوضياف وحسين آيت أحمد - ليجدوا أنفسهم فى الأسر الفرنسى. وتصور الفرنسيون أنهم بذلك اخمدوا نار الثورة الجزائرية باعتقالهم قادة هذه الثورة، ولكن على العكس ازدادت الأمور تعقيدا والثورة اشتعالا وأصبحت حركة تحرير شاملة أيدتها مصر.

وهكذا بدأ الفرنسيون الباحثون عن إنقاذ فرنسا يتجهون إلى الرجل الذى أنقذ بلادهم من الألمان، لينقذهم هذه المرة من أنفسهم.. واستطاع عدد من الضباط الفرنسيين الاستيلاء على الحكم في الجزائر، وتوجيه الدعوة إلى ديجول لإنقاذ فرنسا عام ١٩٥٨.. وفى هذه المرة وجد ديجول أن أمامه دورا يقتضى تدخله.. ولكن على عكس توقعات الكثيرين أدرك ديجول أن تحرير الجزائر لابد أن يتحقق، وأنه من الغباء الوقوف فى وجه التاريخ، ورغم أن الضباط الذين جاءوا به كانوا من أنصار استمرار الاحتلال الفرنسى للجزائر، وقد تصوروا أن ديجول سيؤكد نظريتهم فى التمسك بالجزائر، فإن ديجول - التزاما بالرؤية الأمينة الصادقة - تخلى عنهم، وتحيز لاستقلال الجزائر الذى تحقق بالفعل فى عام ١٩٦٢.

كان ديجول هنا قائد المبادىء التى التزم بها، والتى وضحت خلال فترة رئاسته لفرنسا فى الفترة من ١٩٥٨ الى ١٩٦٩. ونتيجة لهذه المبادىء أقام ديجول علاقات جيدة مع بلدان العالم الثالث، واعترف بالصين الشعبية، على عكس رغبة الولايات المتحدة، واستنكر سياسة أمريكا فى فيتنام.. وخلال أزمة ١٩٦٧ أعلن أنه سيقف ضد من يطلق الرصاصة الأولى، وبالفعل فإنه قرر الوقوف ضد إسرائيل عندما تأكد له أنها التى بدأت بالعدوان يوم ٥ يونيو ١٩٦٧، وأصدر ديجول قرارا بتحريم إرسال أسلحة إلى إسرائيل.. ورغم ما كان بينه وبين ألمانيا فى سنوات الحرب

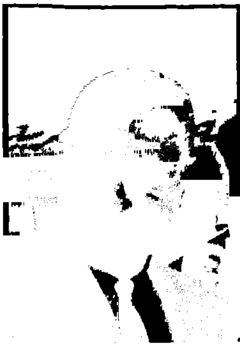
العالمية الثانية فإنه، فى إطار التغيرات الجديدة التى حدثت، قام بدعم علاقات فرنسا مع ألمانيا الغربية.. وحاول أن يجعل لأوروبا استقلالها، فعمل على إبعاد بريطانيا عن السوق الأوروبية المشتركة باعتبارها رأس جسر أمريكى فى أوروبا الغربية، وتقرب من دول شرق أوروبا وقام بزيارتها. وفى خلال ذلك تكاتف اعداء ديجول ـ وعلى رأسهم الشيوعيون ـ وحاولوا اغتياله أكثر من مرة تجاوزت ١٨ مرة نجا منها بأعجوبة غريبة.. وثار عليه الطلبة لعدم نجاح سياسته الاجتماعية ولكنه استطاع حسم الموقف لصالحه من خلال انتخابات تشريعية أعطته أغلبية كبيرة، فى الوقت الذى خسرت فيه أحزاب اليسار والوسط أكثر مقاعدها، وكان ذلك فى يونيو عام ١٩٦٨.. وبدا أن الأمر قد استقر طويلا لديجول، ولكن بعد نحو عام واحد، فى مايو ١٩٦٩، استفتى ديجول الشعب على نظام جديد لتقسيم فرنسا إلى عدة مناطق.. ولم يفهم الشعب المقصود من هذا التقسيم فرفضه ١٢ مليونا وقبله ١٠,٥ مليون فرنسى.. وفى ضوء هذه النتيجة اعتبر ديجول أن نتيجة الاستفتاء كانت أمرا له بالاستقالة، وبالفعل فى نفس ليلة نتيجة الاستفتاء (٢٧ مايو ١٩٦٩) أصدر ديجول بيانا جاء فيه: إننى أتوقف عن ممارسة مهامى كرئيس للجمهورية، وإن هذا التوقف يصبح نافذا ابتداء من اليوم عند الظهر..!

وغادر ديجول قصر الإليزيه إلى مسكنه الخاص بعد أن قرر أن يعود المواطن العادى ديجول.. عاد إلى العزلة التى عاش فيها إلى أن مات فى عام ١٩٧٠.

وحتى اليوم فإن الفرنسيين يعتبرونه أهم زعيم ظهر فى فرنسا فى العصر الحديث، ومن عمالقة العالم الذين غيروا التاريخ فى القرن العشرين.

■ زيارة إلى سنوات ديجول

- ١٨٩٠: ٢٢ نوفمبر : الميلاد.
- ١٩١٢: تخرج فى كلية سان سير العسكرية ليخدم فى الفرقة ٣٣ مشاه.
- ١٩١٤: اشترك فى الحرب العالمية الأولى وأصيب ثلاث مرات
- ١٩١٦: وقوعه فى أسر الألمان بعد إبادة فصيلته، وقد أبلغت أسرته بمقتله إلى أن عاد إليها بعد إعلان الهدنة فى ١١ نوفمبر ١٩١٨.
- ١٩٤٠: ١٧ يونيو : يوم تاريخى ركب الطائرة إلى لندن حيث قاد من هناك معركة مع الاحتلال الألمانى وقدر له أن يعود إلى فرنسا مرة أخرى بعد تحريرها.
- ١٩٤٤: تولى رئاسة الحكومة الفرنسية ولكنه اصطدم بالشيوعيين فاعتزل بعد أسابيع، وظل فى الاعتزال إلى أن عاد للحكم فى عام ١٩٥٨.
- ١٩٦٩: اعلن استقالته للمرة الثانية والأخيرة بعد فشله فى الحصول على تأييد الشعب فى استفتاء حول تقسيم فرنسا إلى مناطق، وفى العام التالى - ١٩٧٠ - توفى فى قريته.



١٣ جمال عبد الناصر

وضع مصر فى قلب العرب.. ووضع العرب فى قلب العالم..

عندما صدرت التعليمات إلى الصاغ جمال عبد الناصر بالسفر إلى فلسطين للاشتراك فى الحرب التى بدأت فى منتصف مايو ١٩٤٨ ضد الإسرائيليين لم يكن هناك واحد ـ حتى جمال عبد الناصر نفسه ـ يعرف أن هذه المهمة ستكشف عن مولد واحد من أهم الرجال الذين أثروا فى بلدهم وفى وطنهم العربى الكبير فى القرن العشرين.

كان جمال عبد الناصر ـ الذى ولد فى ١٥ يناير ١٩١٨ من عائلة تمتد جذورها إلى قلب الصعيد وريفه (قرية بنى مر) ـ قد تلقى دراسته الإبتدائية بمدرسة النحاسين والثانوية بمدرسة النهضة فى القاهرة، ثم فى عام ١٩٣٧ التحق بالكلية الحربية وتخرج فيها برتبة «ملازم ثان» بسلاح المشاة... وفى مشواره العسكرى نقل عبد الناصر إلى السودان، فلما قامت الحرب العالمية الثانية نقل إلى الإسكندرية ومنها إلى العلمين، ثم مدرسا بالكلية الحربية، وفى عام ١٩٤٢ اجتاز امتحان كلية أركان الحرب بامتياز عظيم مع درجة الشرف.

كان موضوع اهتمامه فى كلية أركان الحرب هو الأمن القومى، وقد وجد أن هناك من وضع حدودا لأمن مصر القومى تتجاوز خطوطها الدولية.. فالفيلد مارشال اللنبى، المندوب السامى بمصر فى الفترة من ١٩١٩ إلى ١٩٢٥، والذى سبق له أن اشترك مع القوات البريطانية فى عدة حروب كان آخرها غزو فلسطين ضد تركيا (من ١٩١٧ إلى ١٩١٩) واستيلاؤه على القدس ودمشق وحلب، وضع تصورا لأمن مصر القومى يبدأ من خط غزة ـ بير سبع، أما القائد العسكرى إبراهيم باشا فقد كان يرى أن أمن مصر القومى يبدأ من شمال الشام.

وعندما ذهب جمال عبد الناصر إلى فلسطين استطاع بكتيبته السادسة التى كان هو أركان حرب لها، أن يصد هجوما يهوديا مباشرا كان يستهدف السيطرة على عراق المنشية وعراق سويدان.

وفى منطقة الفالوجا حاولت القوات اليهودية إرغامه على الاستسلام بالحصار ولكنه نجح فى مقاومة الحصار حتى انتهت الحرب وعاد إلى مصر.

فى خلال ليالى هذا الحصار فى فلسطين نبتت بذور الأفكار التى حملها جمال عبد الناصر وظلت تنمو داخله حتى تمكن من تحقيق حلمه فى ثورة تحقق آمال الشعب.

كان من هذه الأفكار التى آمن عبد الناصر بها - وخصوصا بعد لقائه مع أطراف عربية اشتركت هى الأخرى فى حرب فلسطين - اتفاقه مع اللنبى ومع إبراهيم باشا فى أن أمن مصر القومى يبدأ من خارج خط الحدود المصرية فى العمق العربى..

وكان من بين هذه الأفكار أيضا ضرورة أن تكون هناك قوة مخلصة داخل الجيش، تسيطر على الجيش وتحوله إلى أداة تغيير لصالح الجماهير التى أصابها اليأس من الملك والأحزاب.

لقد كان من نتيجة ذلك ظهور تنظيم الضباط الأحرار، وفى ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ تمكن هذا التنظيم من تحقيق ما حلم به عبد الناصر فى الفالوجا من السيطرة على الجيش، وتحويل هذا الجيش إلى أداة تغيير قامت بطرد الملك، وضرب الإقطاع الزراعى وحل الأحزاب والتركيز بعد ذلك على إنهاء الاحتلال البريطانى لمصر، والذى بدأ عام ١٨٨٢، وفى يونيو ١٩٥٤، وبعد مفاوضات مضنية، وقع عبد الناصر اتفاقية جلاء القوات البريطانية عن مصر بعد أكثر من ٧٠ سنة احتلال... وكان التصور أن يتفرغ عبد الناصر لمعركة تنمية بلاده داخليا، ولكن القوى الدولية تحالفت لفرض إرادتها عليه، فكانت سلسلة معاركه التى ألهمت العديد من الدول الأخرى وجعلته رمزا عالميا للوطنية والمقاومة، ونارا أشعلت الثورات فى الدول الإفريقية الكثيرة التى كانت تعانى فى ذلك الوقت من الاستعمار.

كانت سنة ١٩٥٥ بالذات نقطة تحول فى تاريخ جمال عبد الناصر، ففى هذه السنة دخل معركة «حلف بغداد» وكسر احتكار السلاح، وظهر لأول مرة على المسرح فى باندونج، ودعا إلى اتفاقية دفاع عربى مشترك. وفكر فى بناء السد العالى، وقدم المساعدة للمقاومة الجزائرية.

وفى معركة حلف بغداد الذى وقعته العراق وتركيا وانضمت إليهما بريطانيا وباكستان وإيران، وعرف باسم حلف بغداد نسبة إلى مقر الحلف، واجه عبد الناصر فى هذه المعركة بريطانيا وأمريكا اللتين أرادتا دفع مصر لتكون حلقة فى سلسلة يحاصران بها الاتحاد السوفيتى، ومنع انتشار النفوذ الشيوعى والشيوعية فى منطقة الشرق الأوسط حيث الثروة

البترولية التى جذبت اهتمام أمريكا والغرب. وكان منطق عبد الناصر البسيط أنه لا يستطيع أن يحارب خطرا على بعد خمسة آلاف ميل من حدوده، ويغمض عينيه عن خطر آخر فى إسرائيل على مسافة بضعة أميال.. وفى مواجهة حلف بغداد طرح عبد الناصر ميثاق دفاع عربى مشترك، مستلهما فكرته من قناعته بأن أمن مصر القومى يقع خارج حدود مصر، وأن الوطن العربى كله يجب أن يكون قوة مشتركة للدفاع عن كياناته ودوله.

واستطاع عبد الناصر إسقاط حلف بغداد، وإعلان ميثاق الدفاع العربى الذى كان أول تجسيد لفكرة القومية العربية.

وفى أبريل ١٩٥٥ سافر جمال عبد الناصر إلى مدينة باندونج الإندونيسية، حيث التقى مع رؤساء ٢٩ دولة إفريقية وآسيوية لبحث الأهداف المشتركة بينهم.

وقبل أن يذهب عبد الناصر إلى باندونج كان قد خاض أول معاركه ضد إسرائيل، عندما استطاعت إسرائيل أن تقنع الرئيس الإندونيسى أونو بالاشتراك فى المؤتمر باعتبارها دولة آسيوية، وكان من رأى أونو أن عدم اعتراف الدول العربية بإسرائيل لا يعنى منع اشتراكها فى المؤتمر. ورفض عبد الناصر حضور إسرائيل ولكن بن جوريون ضغط على رئيس إندونيسيا الذى تبنى وجهة النظر الإسرائيلية. وبعد اتصالات مكثفة أعلن عبد الناصر فى رسالة بعث بها إلى نهرو أنه إذا حضرت إسرائيل فإنه لن يحضر هو. ورجحت وجهة نظر عبد الناصر ورضخت الدول التى كانت تؤيد دعوة إسرائيل لأنها أدركت أنه إذا تغيب عبد الناصر فإن كل الدول العربية الأخرى ستتغيب معه مما يعنى فشل المؤتمر قبل أن يبدأ.. وكان ذلك بداية العزلة الدولية التى نجح عبد الناصر فى فرضها على إسرائيل.

وفى عام ١٩٥٥، فى ٢٧ سبتمبر فاجأ عبد الناصر العالم عندما أعلن أنه عقد صفقة سلاح تستوردها مصر من تشيكوسلوفاكيا. وكانت الصفقة فى حقيقتها مع الاتحاد السوفيتى، وكانت كل الدول العربية قبل هذه الصفقة تعتمد على الغرب فى حصولها على السلاح، وعندما ألحت مصر على أمريكا لتمدها بالسلاح ماطلت أمريكا، وكان على عبد الناصر أن يترك مصر مجالا مفتوحا لإسرائيل وغاراتها، أو أن يتجه إلى شراء السلاح الذى يحمى به بلده من الطرف الآخر.. وكان من نتيجة الرفض الأمريكى أن ذهب عبد الناصر إلى موسكو، فأصبح المارد الشيوعى الذى كان الغرب يخاف منه وخطط حلف بغداد لمحاصرته فى داخل حدوده.. أصبح هذا المارد لأول مرة فى داخل منطقة الشرق الأوسط.

وفى عام ١٩٥٦ تصاعدت معارك عبد الناصر من أجل بناء السد العالى، ودخلت واشنطن فى مواجهة سافرة معه لم تكتف فيها بإعلان سحب تمويلها لمشروع بناء السد، ولكن الأهم من ذلك إهانة مصر وإعلان أن اقتصادها لا يستطيع تحمل إقامة مثل هذا المشروع، وأنها – أى أمريكا – لا تستطيع أن تشجع مصر على ارتكاب هذه الجريمة.. جريمة بناء السد.

ورد عبد الناصر الإهانة بصفعة قوية أعلن بها تأميم قناة السويس.

وكانت هذه أول مرة تجرؤ فيها دولة صغيرة على تحدى الغرب الذى سبق له أن واجه عملا مماثلا فى إيران عام ١٩٥١، عندما تجرأ الدكتور محمد مصدق، رئيس وزراء إيران، على تأميم البترول الإيرانى الذى كانت تمتلكه الشركات الاحتكارية الأمريكية والبريطانية والفرنسية، ونجحت هذه الدول فى التآمر على محمد مصدق والقضاء عليه، واستعادة مركزها فى إيران وبترولها المؤمم.

واعتبر رئيس الوزراء البريطانى أنتونى إيدن فى ذلك الوقت قرار التأميم موجها ضده شخصيا بعد أن انتصر عليه عبد الناصر فى معركة حلف بغداد، وقضى على الحلف فى مهده.. واعتبر جى موليه رئيس وزراء فرنسا أن هذا القرار موجه أيضا ضده بصفة شخصية بعد أن قدم عبد الناصر مساعداته للثورة الجزائرية، التى كانت تناضل لتحرير بلادها من الاستعمار الفرنسى.. واعتبر الأمريكيون عبد الناصر عدوا شخصيا للأيديولوجية الرأسمالية التى تقودها، لأنه وضع للسوفيت الشيوعيين قدما فى الشرق الأوسط.

وكان من الضرورى فى تحالف تقوده هذه القوى أن يختنق جمال عبد الناصر فى قبضته، ولكن معركة تأميم قناة السويس التى انتهت بمؤامرة العدوان الثلاثى بين بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، انتهت فى الوقت نفسه بانتصار سياسى ضخم حققه عبد الناصر ودفعه إلى المسرح العالمى.. لقد أصبح رمزا عالميا لنضال الشعوب وللقومية العربية.. وكان من نتيجة ذلك أن جاءه السوريون فى العام التالى ١٩٥٧ يعرضون عليه وحدة مع مصر يرأسها.

وفى فبراير ١٩٥٨ أعلنت دولة الوحدة بين مصر وسوريا.. ولعبت هذه الوحدة وما لقيه عبد الناصر من استقبال الشعب السورى الذى حمل عبد الناصر وهو داخل سيارته، دورا مؤثرا فى مسيرة عبد الناصر..

لقد أصبح قائد حركة الجيش قائدا للثورة، ورئيسا لمصر، وها هو ذا يصبح زعيم القومية العربية.

إن البطل يصنع الأحداث وتصنعه الأحداث.. وهناك من يرجع ظهور عبد الناصر إلى الظروف المختلفة التى ظهر فيها فوق المسرح.. فالدول أغلبها كانت تعانى من الاستعمار وتبحث عن التحرر.. وبريطانيا وفرنسا خرجتا من الحرب العالمية مطحونتين اقتصاديا، فى الوقت الذى خرجت فيه الولايات المتحدة من عزلتها لتبحث عن دور ولترث القوى المنسحبة، وكان هناك أهم من ذلك الاتحاد السوفيتى. قوة عالمية كبرى انعزلت عن الدنيا إلى أن جاءت الحرب العالمية الثانية ودفع بها هتلر إلى الأضواء.. ولكن دول الغرب، وعلى رأسها أمريكا، بعد انتصارها فى هذه الحرب حاولت أن تفرض حصارا على الاتحاد السوفيتى لتمنع انتشار عقيدته خارج المساحة التى احتلها فى أوروبا.

وفى وسط هذه الظروف ظهرت فى وقت واحد زعامات خاصة، حدث أن التقت معا وكونت نوعا من التفاهم والتقارب رغم اختلاف السن والظروف.. نهرو وتيتو وشواين لاى وتكروما

وسيكوتوري وعبد الناصر، الذى حارب معهم معركة عدم الانحياز، وتأثر بهم وفى الوقت نفسه أثر عليهم.

وفى وسط هذه الظروف استطاع عبد الناصر بمهارة أن يناور فى المساحة بين القوتين العظميين، وقد كان يتمنى بالتأكيد أن يقف بينهما محققا بالفعل ما أسماه الحياد الإيجابى الذى يمنعه من الانحياز إلى أيهما، ولكن لا يمنعه من أن يقول رأيه فى أية قضية.

وحتى بداية الستينيات كان نجم عبد الناصر قد لمع عربيا وعالميا بسبب المتغيرات التى أحدثها فى مصر وفى أمته.. لقد أخذ عبد الناصر بلده مصر إلى العالم العربى، ثم أخذ بلده والعالم العربى إلى وسط العالم بعد أن نجح فى كسر العزلة التى كانت مفروضة على المنطقة.

ولكن سنوات الستينيات جاءت ومعها أحداث أخرى غير التى شهدتها الخمسينيات.. فالوحدة العربية التى تحققت مع سوريا فى الخمسينيات انتهت بالانفصال فى الستينيات.. وكان من نتيجة هذا الانفصال تأثر عبد الناصر نفسيا، واتخاذه قرارات التأميم والحراسات التى فرضها فى مصر فى أعقاب الانفصال لتحاشى قيام البورجوازية المصرية بتدبير انقلاب ضد الثورة، كما حدث من البورجوازية السورية التى نجحت فى ضرب الوحدة.

وكان من نتيجة الانفصال أيضا دور مصر فى ثورة اليمن، الذى بدأ بإرسال عدد محدود من المستشارين وكتيبة من ٦٠٠ عسكرى.. ثم انتهى الأمر إلى ارسال فرقتين تعدادهما ٦٠ ألف عسكرى لمساندة وإنقاذ الكتيبة المكونة من ٦٠٠ عسكرى. !

وبينما شاهدت سنوات الخمسينيات انتصار عبد الناصر الكبير فى معركة تأميم قناة السويس رغم العدوان العسكرى الإسرائيلى على سيناء، فقد شهدت الستينيات هزيمة يونيو ١٩٦٧ التى كانت لها آثارها البعيدة والعميقة فى الصراع العربى الإسرائيلى.. وبعد أن كان الحلم العربى قبل هذه الهزيمة استعادة كل فلسطين من إسرائيل اقتصر هذا الحلم بعد يونيو ١٩٦٧ على استعادة الأراضى التى احتلتها إسرائيل فى سيناء والجولان والضفة الغربية!

وكان من نتيجة هذه الهزيمة تجنيد الموارد المصرية لإعادة بناء القوات المسلحة التى انهارت، فتوقفت خطط التنمية قبل أن تستكمل تنفيذ مشروعاتها.. وانحسر جهد ثورة يوليو فى محاولة استرداد ما ضاع.. وزاد نفوذ الاتحاد السوفيتى فى المنطقة نتيجة الاعتماد الكامل عليه فى توريد السلاح.

ولكن يسجل لعبد الناصر أنه، رغم الهزيمة، استطاع بجهد خارق أن يعيد بناء القوات المسلحة، وأن يبعث الثقة فيها عن طريق حرب الاستنزاف التى أكد بها روح المقاتل.

ورغم أن عبد الناصر كان يبدو متين البنيان بقوامه الفارع البالغ ١٨٢ سنتيمترا، وعينيه البارقتين بلمعان غريب يصعب على من يواجهه أن ينظر إليهما طويلا، إلا أن صحته أخذت تتدهور خلال السنوات الأخيرة بسبب معاناته من التهاب الشريان السكرى، الذى اضطره للعلاج

مرتين فى الاتحاد السوفيتى، وإلى التوقف عن التدخين بعد أن كان يدخن ما بين ٦٠ و٨٠ سيجارة يوميا.

وفى شهر سبتمبر ١٩٧٠ اشتعلت أزمة بين الأردن والفلسطينيين ودعا عبد الناصر الزعماء والقادة العرب للقاء فى القاهرة لمواجهة هذه الأزمة. ونجح عبد الناصر فى إطفاء النيران المشتعلة. وفى يوم الأثنين ٢٨ سبتمبر أنهى المؤتمر اجتماعاته، وودع عبد الناصر ضيوفه وكان آخرهم أمير الكويت. وقال عبد الناصر إنه ذاهب ليرتاح بعد المجهود الكبير الذى بذله فى اجتماعات المؤتمر على مدى ستة أيام متواصلة.. وما إن وصل عبد الناصر إلى بيته القريب من المطار فى منشية البكرى حتى فاجأته الأزمة التى فشلت معها كل الجهود.. ومات عبد الناصر.

وفى نهر من البشر ودع الشعب المصرى عبد الناصر فى جنازة سارت من مقر مجلس قيادة الثورة قرب شيراتون الجزيرة إلى المسجد الذى دفن فيه فى منشية البكرى..

ورغم مرور السنوات على رحيل عبد الناصر فلقد ظل الغائب الحاضر فى شعبه وأمته.. ومثل ما يحدث لكل الزعامات التاريخية الكبيرة بعد رحيلها فلقد اختلفت الآراء حول تقييم سياسات عبد الناصر والناصرية.. ولكن الذى لم يختلف أحد عليه هو طهارة عبد الناصر، ودوره المؤثر فى إيقاظ حلم القومية العربية، ووضعه لمصر فى قلب العالم العربى والعالم العربى فى قلب الدنيا.

■ زيارة إلى سنوات عبد الناصر

- ١٩١٨: ١٥ يناير: مولده.
- ١٩٣٨: تخرجه فى الكلية الحربية برتبة ملازم ثان.
- ١٩٤٠: نقل إلى السودان ورقى إلى رتبة ملازم أول.
- ١٩٤٢: منح رتبة يوزباشى (نقيب) وعين مدرسا بالكلية الحربية.
- ١٩٤٨: تخرج فى كلية أركان حرب.
- ١٩٥٢: ٢٣ يوليو: نجاح تنظيم الأحرار الذى كونه فى السيطرة على الجيش والسلطة.
- ١٩٥٣: ١٨ يونيو: عين نائبا لرئيس الوزراء ووزيرا للداخلية.
- ١٩٥٤: ١٧ أبريل: أصبح رئيسا للوزراء.
- ١٩٥٥: أبريل: سفره إلى باندونج.
- ١٩٥٦: انتخابه رئيسا للجمهورية فى ٢٣ يونيو.
- ١٩٥٦: إعلانه تأميم قناة السويس يوم ٢٦ يوليو.
- ١٩٥٧: ٢٢ فبراير: رئيسا للجمهورية العربية المتحدة مع سوريا.
- ١٩٦٢: اعلن قيام الاتحاد الاشتراكى.
- ١٩٦٧: ٩ يونيو: أعلن تنحيه عن الحكم إثر الهزيمة العسكرية، ولكنه تراجع أمام ضغط الشعب.
- ١٩٧٠: آخر مؤتمر قمة عربى اشترك فيه لبحث الأزمة بين الأردن والمقاومة الفلسطينية انتهى بتوقيع اتفاق القاهرة.
- ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠: وفاته بعد أن انتهى من توديع كل ضيوفه فى المؤتمر.

١٤ محمد أنور السادات

طريق السلام يبدأ بالحرب

لم يعرف التاريخ العربى شخصية اختلف عليها معاصروها كما اختلفوا على محمد أنور السادات.. فهناك فريق يتهمه بالخيانة وآخر يصفه بالبطولة.. فريق يتهمه بأنه خان عبد الناصر وآخر يقول إنه صحح ما كان يجب أن يصححه عبد الناصر.. فريق يقول إنه باع مصر وآخر يقول إنه أعاد لمصر أرضها المحتلة، وحقق مالم يحققه زعيم عربى آخر.. فقد انتصر على إسرائيل لأول مرة فى الحرب وفى السلام أيضا.

ومن المؤكد أن هذا الخلاف ما كان يحدث حول أنور السادات لو لم يكن هذا الذى اختلفوا عليه قد أحدث من الأعمال والآثار ما غير القرن العشرين.. فالخلاف على أنور السادات فى مصر وبين العرب وفى العالم ما كان يحدث لو لم يترك أنور السادات آثاره فى القرن العشرين.. لقد تأثر هذا القرن طويلا بالصراع العربى الإسرائيلى، وعندما تسلم أنور السادات راية القيادة بعد موت جمال عبد الناصر عام ١٩٧٠ كانت إسرائيل تحتل كل سيناء، وكانت علاقات مصر مع الولايات المتحدة مقطوعة فى الوقت الذى كانت فيه مصر منفتحة على الاتحاد السوفيتى ودول الأيديولوجية الشيوعية.. وكان الاقتصاد المصرى يعيش فى سجن القطاع العام، والعمل السياسى محصورا فى تنظيم الاتحاد الاشتراكى الواحد، وبعد ١١ سنة، عندما رحل أنور السادات عن عالمنا عندما اغتيل فى اثناء الاحتفال بعيد نصره العظيم فى السادس من أكتوبر ١٩٨١، كانت إسرائيل قد انسحبت من سيناء، وكانت علاقات مصر مع الولايات المتحدة فى قمتها، بينما كانت علاقات مصر مع معظم الدول العربية مقطوعة، ومع الاتحاد السوفيتى شبه مجمدة.. وكان القطاع الخاص قد بدأ يبحث عن دور فى مشروعات التنمية، بينما دخل الاتحاد الاشتراكى أرشيف التاريخ وظهرت بعض الأحزاب والصحف الحزبية.. وكل هذا فى ١١ سنة حكمها أنور السادات.

ومثل عبد الناصر فلقد ولد السادات في عام ١٩١٨، ولكن في قرية ميت أبو الكوم بمحافظة المنوفية التي أصبحت فيما بعد من أشهر القرى المصرية وذلك بسبب ذهاب السادات إليها عندما أصبح حاكما، واحتفاله بعيد ميلاده يوم ٢٥ ديسمبر في هذه القرية عن طريق حديث تليفزيوني كان يحرص على تسجيله في هذه المناسبة ويتحدث فيه عن ذكرياته عن طفولته وشبابه وسنوات العمل الثوري والحكم، فلقد كان السادات يبدو مفتونا بشخصه، وهو ما ينعكس في الكتاب الذي كتبه عن سيرته الشخصية عام ١٩٧٨، وجعل له عنوان «*البحث عن الذات*».

كان والد أنور السادات أول من حصل على الشهادة الابتدائية في ميت أبو الكوم، وكانت هذه الشهادة قديما ذات قيمة كبيرة، فقد كان يطلق على صاحبها لقب الأفندي.. ولهذا قال السادات بعد ذلك في حديث عن أبيه إنه رغم أنه أصبح بالقرية فيما بعد مهندسون وأطباء وأساتذة جامعات إلا أنه عندما يأتي ذكر الأفندي يعرف الجميع أنه والد السادات.

ولقد اهتم السادات أفندي بتعليم ابنه محمد، فبدأ بإدخاله الكتاب حيث تعلم القرآن ومبادىء الحساب، ثم مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية، ثم عندما نقل والده إلى القاهرة أكمل تعليمه الابتدائي في مدرسة السلطان حسين، وبعدها التحق بمدرسة فؤاد الأول حيث حصل على الشهادة الثانوية. يقول السادات عن هذه الأيام، في مرحلة التعليم الثانوي كنت أعيش تحت خط الفقر، فقد كان والدي بدخله المحدود يعول أسرة مكونة من ١٣ ولدا وبنتا، وكان مصروف يدي مليمين في اليوم، وبهذا المبلغ الضئيل كنت اشتري كوبا من الشاي باللبن واشربه وأنا أحس أنني أسعد إنسان في العالم.

حصل محمد أنور السادات على شهادة الثانوية عام ١٩٣٦ في سنة بالغة الأهمية، ففي هذه السنة أبرم مصطفى النحاس باشا مع الإنجليز معاهدة ١٩٣٦، التي كانت تمثل خطوة على طريق نيل مصر استقلالها وتحريرها من الاحتلال الإنجليزي الذي بدأ عام ١٨٨٢. واستعدادا لهذا الاستقلال المنشود تم التوسع في الجيش المصري مما مكن لأبناء الطبقة المتوسطة والفقيرة دخول الكلية الحربية بعد أن كان القبول فيها مقصورا على أبناء الطبقة العليا. وفي فبراير عام ١٩٣٨ تخرج أنور في الكلية الحربية وأصبح ضابطا في الجيش في الأورطة الرابعة مشاة بمنطقة المكس بالإسكندرية، وفي يوليو من نفس العام نقل إلى منقباد ثم إلى سلاح الإشارة بمنطقة المعادي، ثم إلى الصحراء الغربية بمرسى مطروح، ثم عاد إلى المعادي ثم مرة أخرى إلى الصحراء الغربية، ثم في يونيو ١٩٤١ نقل إلى سلاح الحدود وعين في كتيبة إشارة السلاح بالجبل الأصفر حتى يوم ٧ أكتوبر عام ١٩٤٢، وهو اليوم الذي ترك فيه خدمة الجيش وظل مبعدا عنه حتى ١٥ يناير ١٩٥٠، فاعيد إلى الخدمة برتبة يوزباشي، والحق بسلاح الإشارة، وظل عاملا في القوات المسلحة إلى أن فوجيء المصريون به واحدا من أعضاء مجلس قيادة الثورة.

كان المعتاد فى ضابط الجيش التزامه بالعسكرية وابتعاده عن الحياة السياسية والاحتفاظ بأفكاره الخاصة لنفسه، وهو مالم يفعله محمد أنور السادات، فمنذ بداية عمله العسكرى بدأ يشتغل بالسياسة، فالتقى بحسن البنا مرشد جماعة الإخوان المسلمين، وأعجب به وتأثر به، وتأثر أكثر بالفريق عزيز المصرى رئيس أركان حرب الجيش المصرى الذى كان يكره الإنجليز، ولا يعلق الآمال على الأحزاب السياسية، وعندما بدأت الحرب العالمية انحاز عزيز المصرى إلى الألمان، ونجح الإنجليز فى استصدار أمر من الحكومة المصرية بإحالته إلى المعاش.. ولكن السادات ازداد تعلقا به وشارك فى عملية الهدف منها تهريب الفريق عزيز المصرى للاتصال بالألمان فى العراق، وقبض على السادات ولكن التحقيق معه لم يتوصل إلى أى دليل يدينه، فعاد لعمله فى عام ١٩٤١.. وجاء حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ ليضيف علامة مهمة فى حياة السادات، ففى هذا اليوم حاصر الانجليز بدباباتهم قصر عابدين، وأنذروا الملك بضرورة أن يعهد بتشكيل الوزارة إلى مصطفى النحاس باشا منفردا، فقد كانت القوات الألمانية بقيادة روميل تهدد باكتساح الصحراء الغربية والوصول إلى القاهرة، وأرادت القيادة الإنجليزية الاطمئنان إلى وجود حكم صديق لها فى مصر لا يتصل بالألمان، فكان اختيارها لمصطفى النحاس القيام بهذا الدور، وقد قبل النحاس تأليف الوزارة وهو ما أغضب السادات وعددا من زملائه الذين كانوا قد بدأوا فى تكوين تنظيم للضباط الأحرار..

وكراهية فى الإنجليز وفى الوفد، اتصل السادات سرا بالألمان لترتيب تعاونه معهم استعدادا لدخولهم بعد ذلك إلى القاهرة.. وكشفت المخابرات البريطانية الاتصال فصدر قرار بمحاكمته عسكريا طرد على إثره من الجيش فى أكتوبر ١٩٤٢، بعد أن أمضى ٤ سنوات وبضعة شهور فقط فى القوات المسلحة. ولم يصبح السادات حرا، فبموجب قانون الأحكام العرفية الذى صدر بمناسبة حالة الحرب التى تمر بها البلاد تم اعتقاله، وبعد أن أمضى أكثر من سنتين متنقلا من معتقل سجن الأجانب إلى معتقل ماقوسة القريب من المنيا إلى معتقل الزيتون، نجح فى الهرب وظل أكثر من سنة متخفيا. وقد عمل أول الأمر شيالا على عربة لورى لحساب متعهد للجيش البريطانى فى الاسماعيلية، ثم عمل فى نقل احجار الدبش من المراكب الآتية فى النيل، ثم مع مقاول لنقل الرخام، وفى سبتمبر ١٩٤٥ – بانتهاء الحرب العالمية وسقوط الأحكام العرفية – خرج أنور السادات إلى الحياة مرة ثانية، وكان أول عمل قام به بعد ان استرد حريته دخول جمعية سرية لتحرير مصر من الخونة كما كان يراهم أنور السادات. يقول أنور السادات فى كتابه «البحث عن الذات»: كان على رأس هؤلاء فى نظرنا مصطفى النحاس باشا رئيس حزب الوفد الذى سقط من نظرنا منذ أن فرضه الانجليز بقوة السلاح فى ٤ فبراير ١٩٤٢، وباتفاق مع شاب اسمه حسين توفيق كان يمارس قتل الجنود الإنجليز فى المعادى قبل أن ينضم إلى جمعية السادات السرية تم ترتيب إلقاء قنبلة يدوية على موكب مصطفى النحاس، لكن القدر انقذ النحاس

فاتجه التفكير إلى اغتيال أمين عثمان الذى تولى وزارة المالية طوال حكم النحاس، والذى كان يفاخر بعلاقته بالمندوب السامى البريطانى. ونجح حسين توفيق بالفعل فى تحقيق الاغتيال وقبض على توفيق، وتم التوصل إلى السادات وقبض عليه، وقدم إلى المحاكمة، ولكنه نجح فى الافلات وحكم ببراءته. وكان الغريب بعد كل هذه الحياة الحافلة بالعمل السياسى والثورى والهروب والمعتقلات، أن ينجح أنور السادات فى العودة مرة ثانية إلى الجيش. ولم يكن سرا أنه استطاع أن يفعل ذلك من خلال استغلال عملية كان يقوم بها بعض أعوان الملك فاروق فى ذلك الوقت لتشكيل تنظيم فى الجيش يدين بالولاء الكامل للملك أطلق عليه تنظيم «الحرس الحديدى».. هذا التنظيم الذى كان يمثل عيون الملك فى الجيش كان أنور السادات عضوا مهما فيه، ولكن الأغرب من ذلك كله أنه فى الوقت نفسه كان عضوا فى تنظيم «الضباط الأحرار» الذى شكله جمال عبد الناصر فى الجيش للانقلاب على الملك!! وكان أنو السادات نفسه هو الذى ألقى أول بيان صافح أذان المصريين صباح يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢، والذى أعلن فيه قيام الثورة.

وعلى امتداد السنوات من ١٩٥٢ حتى رحيل جمال عبد الناصر فى سبتمبر ١٩٧٠، استطاع السادات أن يحافظ على مكانه إلى جانب جمال عبد الناصر، رغم تخلى ناصر عن عدد كثير من زملائه الذين قاموا معه بالثورة.. وربما كان سبب ذلك ابتعاد السادات عن المناصب التنفيذية فلم يشغل منصب الوزير (وزير دولة) سوى شهور قليلة عام ١٩٥٤ وبعدها أصبح رئيسا لتحرير جريدة «الجمهورية» ثم مشرفا على المؤتمر الإسلامى فرئيسا لمجلس الأمة، ثم فى ديسمبر ١٩٦٩ عين نائبا أول لرئيس الجمهورية، وبعد أقل من سنة مات عبد الناصر فاختير السادات ليخلفه وكان تخطيط الذين أيدوه من أعوان عبد الناصر أنه رئيس مؤقت، ولكن السادات - صاحب التاريخ الحافل الطويل فى العمل السياسى - نجح فى اصطياد كل خصومه فى ضربة واحدة يوم ١٥ مايو ١٩٧١ بعد أقل من ٨ شهور من توليته الرئاسة.. واعتبارا من ذلك التاريخ انتهى السادات من فترة الصراع مع خصومه على السلطة وبدأ محاولة استعادة سيناء المحتلة.. وفى البداية حاول السادات أن يفعل ذلك عن غير طريق الحرب، ولكن الأمريكان الذين حاول وساطتهم لم ينجحوا فى تحقيق أمله، كما أن الإسرائيليين كانوا أيضا يحتقرون شأنه. وفى ظروف بالغة الصعوبة راح السادات يعد للحرب.. فأعاد تنظيم العلاقات المصرية العربية وتوحيد الصف العربى، واتفق مع الرئيس السورى حافظ الأسد على بداية المعركة . وفى يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ فاجأت مصر العالم كله بعبور قواتها المسلحة قناة السويس، وسيطرتها بعد ٦ ساعات فقط على أقوى وأصعب خط دفاعى عرفته العسكرية، وقد اقامته إسرائيل ليكون خطا أبديا فاصلا بينها وبين مصر، ولكن القوات المصرية ركبت الخط خلال ٦ ساعات. وانتهت حرب أكتوبر بتحرير جزء من أرض سيناء. وكان على السادات أن يكمل بالجهد السياسى تحرير باقى الأرض، وهو ما فعله بمبادرته الفريدة التى زار فيها القدس، وخاطب الإسرائيليين من قلب الكنيست، وأعلن اعترافه

بإسرائيل كحقيقة واقعة ضمنت القوتان العظميان بقاءها وحمايتها ووجودها. وبذلك كان اعتراف السادات بإسرائيل كأمر واقع وليس لأسباب لها أية علاقة بالدعاوى التاريخية التى تدعيها إسرائيل..

كان من آثار حرب أكتوبر ١٩٧٣ أن أيد العرب مصر وساهموا فى المعركة بخفض إنتاج البترول، أما عندما زار السادات القدس فقد رفض العرب الزيارة منذ أول يوم.. ولم يكن ممكنا عمليا للسادات، بعد أن قفز قفزته التاريخية التى شاهدها العالم منقولة على الهواء بواسطة الأقمار الصناعية، أن يتخلى عن استكمالها لمجرد أن العرب خذلوه، كما لم يكن طبيعيا أن تقدم إسرائيل للسادات، بعد أن أصبح بغير غطاء عربى، كل مطالبه وإنما على العكس كان وضع السادات فرصة لهم.. مع ذلك نجح السادات فى التوصل إلى اتفاق ينهى احتلال إسرائيل لسيناء، ويزيل المستوطنات اليهودية التى اقامتها فيها إسرائيل، وهو مالم تفعله إسرائيل من قبل أو بعد.

ولقد كانت فكرة السادات أن الولايات المتحدة هى القوة الأساسية التى تعتمد عليها إسرائيل فأراد أن يخترق هذه العلاقة، بل أكثر من ذلك أراد إقامة علاقة متوازية.

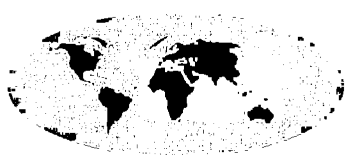
وفى المجال الداخلى حاول السادات تحرير الاقتصاد المصرى من أسر القطاع العام، وإطلاق الفرصة أمام القطاع الخاص، ولكن كان سوء حظه أن عددا كبيرا من الذين جاءوا تحت مظلة الانفتاح من القطاع الخاص كانوا من الذين بحثوا عن منافعهم الذاتية، حتى ولو كان على حساب مصلحة الأغلبية.

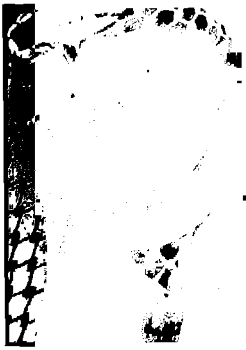
وفى محاربته للشيوعيين الذين نموا فى مصر فى عصر عبد الناصر وكبروا، ارتكب السادات خطأ كبيرا عندما سمح للجماعات الإسلامية الممنوعة من أيام عبد الناصر بالعودة إلى الشارع السياسى.. كان تكتيكه أن تقوم هذه الجماعات بالقضاء على خصومه الشيوعيين، ثم يستدير بعد ذلك للقضاء على هؤلاء الإسلاميين. ولكن على غير ما يتوقع سارت الأمور إلى أسوأ، واضطر السادات إلى القيام فى ٥ سبتمبر ١٩٨١ بعمليات اعتقال شملت نماذج وافرادا من كل الاتجاهات.. من اليمين والوسط واليسار. وبعد شهر واحد من هذه الاعتقالات جاءت النهاية بصورة درامية عندما رتب عدد من العسكريين الذين اشتركوا فى الاحتفال الذى أقيم بمناسبة يوم السادس من أكتوبر (١٩٨١) للوقوف بسيارتهم أمام مكان المنصة التى كان يجلس فيها السادات وكبار الضيوف، وقفزوا من السيارة وأطلقوا الرصاص عليهم وألقوا القنابل.. وفى ثوان قليلة انتهى المشهد وانتهت حقبة رجل ظل وسيبقى موضوع خلاف بين المؤرخين.. وأيا كان الخلاف فإنه سيظل مسجلا للرجل أنه كان القائد الذى حقق أول انتصار عسكرى على إسرائيل،

وأنه انهى احتلال إسرائيل لبلاده، وأنه وضع بذرة الانفتاح الاقتصادى ومساهمة القطاع الخاص فى تنمية بلاده، وأنه غرس شجيرة للديمقراطية فألغى التنظيم السياسى الواحد، وسمح بتعدد الأحزاب وصدور الصحف التى يمكن أن تقول «لا» للحاكم.

■ زيارة إلى سنوات السادات

- ١٩١٨: ٢٥ ديسمبر : المولد فى قرية ميت أبو الكوم محافظة المنوفية
- ١٩٣٨: التخرج فى الكلية الحربية وتعيينه فى سلاح الإشارة برتبة ملازم ثان.
- ١٩٤٢: طرده فى القوات المسلحة بعد ٤ سنوات أمضاها فى الجيش لم يتوقف خلالها عن العمل السياسى، ومحاولة الاتصال بالألمان للترتيب معهم ضد الإنجليز.
- ١٩٤٢: أكتوبر : اعتقاله عقب طرده من الجيش وتنقله بين ٣ معتقلات.
- ١٩٤٤: هربه من المعتقل وظل نحو سنة يعمل حمالا فى نقل الأحجار.
- ١٩٤٥: تأسيس جمعية سرية كان من بين أفرادها حسين توفيق الذى رتب معه محاولة فشلت لاغتيال مصطفى النحاس، ومحاولة نجحت لاغتيال أمين عثمان.
- ١٩٥٠: عودته إلى الجيش واشتراكه مع عبد الناصر فى ثورة يوليو.
- ١٩٦٩: نائبا أول للرئيس جمال عبد الناصر.
- ١٩٧٠: تولى رئاسة مصر بعد رحيل جمال عبد الناصر فى ٢٨ سبتمبر.
- ١٩٧٣: ٦ أكتوبر : حرب أكتوبر، أول انتصار على إسرائيل.
- ١٩٧٧: نوفمبر زيارته التاريخية إلى القدس.
- ١٩٧٩: اتفاقية السلام مع إسرائيل.
- ١٩٨١: ٦ أكتوبر : اغتياله اثناء حضوره الاحتفال بذكرى حرب أكتوبر.





١٥ ياسر عرفات

ملحمة كفاح لتحقيق نصف حلم..!

حفر المهاتما غاندى مكانا له فى القرن العشرين بسبب الكفاح الصامت الهادىء الذى قاد به شعبه فى مواجهة أكبر إمبراطورية فى زمانه كانت تحتل بلاده الهند، ونجح فى تحريرها.

ووضع نلسون مانديلا بصمته على أوراق القرن العشرين بسبب نموذج الكفاح الفريد الذى استطاع به أن يحرّر الإفريقى الأسود صاحب جنوب إفريقيا الأصلى من الأبيض القادم الذى تحوّل إلى مالك، وحوّل أصحاب الأرض والوطن إلى عبيد فى خدمته يَمنّ عليهم بإحسانه، وبعد سنوات طويلة أصبح لجنوب إفريقيا رئيس أسود من أبنائها لأول مرة.

وفيما يلى نقدم نموذجا ثالثا من نماذج الكفاح الطويل التى شهدها القرن العشرون، واستطاع صاحبها أن يحجز لنفسه مكانا فى تاريخ أحداثها، رغم أن كفاحه لم ينته إلى النهاية التى سبقه إليها غاندى أو مانديلا لاختلاف الظروف والأسباب التى جعلت الكفاح الفلسطينى أصعب كثيرا وأطول من كفاح أى شعب آخر.. ولكن حتما ستأتى النهاية يوما.. وسيكون لشعب فلسطين دولته.. سواء كان على رأسها ياسر عرفات أو غيره..

وياسر عرفات يُعرّفه البعض بأنه رئيس منظمة تحرير فلسطين، ويُعرّفه بعض آخر بأنه رئيس دولة فلسطين، ويُعرّفه فريق ثالث بأنه الرجل الذى ينافس القطط فى تعدد الروح، ونجاته من الموت اغتيالا وحربا وحوادث عدة مرات، ويُعرّفه فريق رابع بأنه أول قائد فلسطينى وضع يده فى يد قائد إسرائيلى وكان هذا السلام باليد بين إسحاق رابين هو - كما أطلق عليه - «سلام القرن». ولكن جزء آخر يُعرّف ياسر عرفات بأنه الرئيس الطائر.. فلم يحدث أن استخدم قائد ثورة أو مكافح الطائرة كما استخدمها ياسر عرفات، إلى درجة يمكن القول فيها إن الظروف فرضت عليه

فى بعض الأوقات أن يظل طائرا متنقلا من بلد إلى بلد داعيا لقضية بلده، هاربا فى الوقت نفسه من محاولات الأغتيال العديدة التى كانت تتربص به وتطارده.

اسمه الحقيقى محمد عبد الرءوف عرفات القدوة، ولكنه اشتهر أولا بياسر عرفات ثم بالاسم الحركى الذى تعود كل قائد فلسطينى أن يختاره لنفسه، وقد اختار عرفات لنفسه اسم «أبو عمار».

ولقد ولد عرفات فى فلسطين عام ١٩٢٩م وإن كان هناك من يقول إنه ولد فى القدس، أما عرفات نفسه فيحكى عن نفسه قائلا للكتورة رشيدة مهران، التى رافقته فترة طويلة لتكتب عنه كتابها: «ياسر عرفات الرقم الصعب». يقول عرفات: نشأت فى فلسطين إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية - لم أكن (أعيش) عند والدى وإنما عند أخوالى عائلة أبى السعود، وتربيت عندهم فى القدس وكنا نسكن داخل الحرم (فى القدس القديمة) بجوار باب المغارية. وهكذا قد لا يكون عرفات قد ولد فى القدس ولكن المؤكد أنه انتقل للحياة فيها مع أخيه فتحى، ليعيشا مع خالهم سليم أبو السعود، وذلك بعد وفاة والدته عام ١٩٣٣ وهو فى سن صغيرة.. وبدلا من أن تصافح عيناه وجه أمه كما هى العادة فإنها صافحت قبة مسجد الصخرة والمسجد الأقصى وبيوت القدس العربية فوق التلال والهضاب.. وفى حياة الانتداب البريطانى التى كانت تعيشها فلسطين، والثورة السياسية التى كانت بين الشعب الفلسطينى فى ذلك الوقت نتيجة للأعمال التى تمارسها الوكالة اليهودية التى كانت تنظم وتدير شئون الاستيلاء على الأرض الفلسطينية بمساعدة وتأييد السلطة البريطانية، بدأت اهتمامات عرفات بالشئون السياسية والعسكرية تظهر بوضوح، بل وغير ذلك مظاهر القيادة، فقد كان يجمع حوله زملاءه فى المدرسة ويدربهم على المشية العسكرية.

يحكى عرفات ويقول: انشغلت عن الدراسة بالانضمام إلى الجيش الفلسطينى الذى تكوّن بإشراف الهيئة العربية الفلسطينية العليا بقيادة عبد القادر الحسينى. كان أملى أن أكون مقاتلا فى هذا الجيش. ولكن وقبل أن يكمل السابعة عشرة قرر أبوه الانتقال مع كل أفراد الأسرة للحياة فى القاهرة، هربا من الضغوط السياسية والمالية التى كان يواجهها من السلطات الإنجليزية التى كانت تتولى مهمة الانتداب على فلسطين.

وفى القاهرة دخل عرفات كلية الهندسة، ولكن فى عام ١٩٤٨، تنفيذا لقرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين، اشتعلت المقاومة الفلسطينية وبدأت الصهيونية تدخل فى مجابهات مسلحة، كان من بينها احتلال قرية «القسطل» وهى أول قرية يحتلها اليهود الصهيونيون فى مارس - أبريل ١٩٤٨، وبعدها سقطت قرى أخرى من بينها «دير محسن وخلدة» مما أحدث هزة كبيرة فى الشعب الفلسطينى.. وتولى عبد القادر الحسينى - أحد رموز المقاومة الفلسطينية فى ذلك الوقت - قيادة هجوم على القسطل، ونجح مع رجاله فى اختراق الحصار اليهودى ودخل القسطل مما أثار حماس المتطوعين الذين تدفقوا للاشتراك فى الهجوم، ونجحوا فى اقتحام القرية

وتحريرها ولكنهم اكتشفوا استشهاد عبد القادر الحسينى، مما ترك واقعا أليما عند المهاجمين الفلسطينيين، وأربك صفوفهم لعدم وجود من يضبط حركتهم، ونتيجة لذلك لم يستمر عدد كبير فى المرابطة داخل القرية الأمر الذى سهل على اليهود إعادة احتلالها يوم ١٩ أبريل ١٩٤٨.

وفى القاهرة التى وصلتها الأخبار تأثر ياسر عرفات كثيرا بما حدث. فاستدعى الطلبة الفلسطينيين زملاءه فى الجامعة، وقرروا إحراق كتبهم والعودة إلى فلسطين للالتحاق بصفوف زملائهم المقاتلين. وبالفعل عاد عرفات إلى فلسطين وعلى لسانه يقول: تركت القاهرة والتعليم وتوليت مهام كبيرة رغم صغر سنى، مثل جمع الأسلحة ومطاردة العدو وجمع استخباراته والقتال، كان هذا الجيش يعرف باسم «جيش الجهاد المقدس».

وجاءت نتائج الحرب التى خاضتها الجيوش العربية بما لا يرضى، فعاد عرفات وزملاؤه إلى القاهرة، وفى مفترق طرق وقف عرفات، فقد نصحه أحد أقربائه بالسفر إلى الولايات المتحدة ليبتعد عن السياسة ومشاكلها ومتاعبها ويتفرغ لإنهاء دراسته، وبالفعل قام باجراءات السفر اللازمة، لكن مشاعره تجاه الوطن المحتل جعلته يعدل عن السفر إلى أمريكا ويقرر البقاء فى مصر لاستكمال تعليمه فى كلية الهندسة، ويفكر وهو طالب فى انشاء رابطة للطلاب الفلسطينيين لتكون مركزا من مراكز الاتصال الفلسطينى والعربى ويتم اختياره رئيسا لها.. وعندما تقوم ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى مصر، يقدم ياسر عرفات وزملاؤه وثيقة مكتوبة بالدم إلى محمد نجيب، قائد الثورة في ذلك الوقت، يطالبون فيها ألا ينسوا القضية الفلسطينية.

ولا يتوقف عرفات عن النضال الوطنى بعد تخرجه والعمل مهندسا فى إحدى مؤسسات البناء المصرية فيدخل الكلية الحربية فى مصر ويتخرج برتبة ضابط مهندس.. ثم فى عام ١٩٥٧ يسافر للعمل فى الكويت فى «دائرة التعمير الوطنية».. ولكن مشاعر عرفات الوطنية تستمر به إلى أن يصل إلى محطة كفاح مهمة فى حياته هى انشاء حركة «فتح» التى اشتقت اسمها من كلمة حتف مقلوبة، وهى (كلمة حتف) اختصار اسم حركة التحرير الوطنى الفلسطينى.. وقد نشأت فكرة هذه الحركة أثر هجوم غادر قامت به القوات الإسرائيلية على غزة صباح ٢٧ فبراير ١٩٥٥م، فقد اشعل هذا الهجوم والضحايا الذين أسفر عنهم روح الثأر فى نفوس عدد من الفلسطينيين، ومنهم ياسر عرفات.. وهذا الهجوم على غزة هو الذى كان من آثاره أيضا اتجاه جمال عبد الناصر إلى الاتصال بالاتحاد السوفيتى للتعرف على إمكانيات تزويد مصر بالسلاح، وهو ما أسفر بالفعل عن صفقات السلاح السوفيتية لمصر، التى كان لها تأثيرها الواسع فى المنطقة وفى العالم..

ونعود إلى حركة «فتح» فنجد أنها بدأت حركة سرية منذ عام ١٩٥٨، ولكنها لم تعلن عن نفسها حتى مطلع عام ١٩٦٥ حين قام الجناح العسكرى للحركة واسمه (العاصفة) بإصدار أول بيان عن عملية لها فى الأرض المحتلة، وعن اعتمادها مبدأ الكفاح المسلح وسيلة لتحرير فلسطين.

وكان قد سبق صدور هذا البيان إنشاء «منظمة تحرير فلسطين» التى فيما بعد ارتبط ياسر عرفات بها ارتباطا قويا.

وقد بدأت قصة منظمة التحرير عندما دعا الرئيس الراحل جمال عبد الناصر القادة العرب إلى أول قمة عربية عقدت فى فندق فلسطين فى ١٣ يناير ١٩٦٤.

كان سبب الدعوة مواجهة الموقف الخطير الناجم عن عزم إسرائيل تحويل نهر الأردن.. وكان من بين القرارات التى أصدرها المؤتمر إنشاء كيان فلسطينى يعبر عن إرادة شعب فلسطين ويقيم هيئة تطالب بحقوقه لتمكينه من تحرير وطنه وتقرير مصيره.

وانتهت الاتصالات بإنشاء منظمة تحرير فلسطين التى عقدت أول مؤتمر لها فى القدس ٢٨ مايو ١٩٦٤، واختارت أحمد الشقيرى رئيسا لها . وفى العام التالى (١٩٦٥) كشفت حركة فتح عن وجهها وبدأ نشاطها يزداد فى شكل عمليات فدائية خاصة فى أعقاب حرب ١٩٦٧ التى احتلت فيها إسرائيل ثلاث دول عربية، وأعطتها نتائجها الإحساس بالقدرة على أن تمارس أى عمل فى المنطقة.

ورغم بداية فتح فى نهاية الخمسينيات فإن اسم ياسر عرفات - وقد أصبح معروفا باسم «أبو عمار» - لم يتردد وتتناقله الألسن إلا عندما أعلنت حركة فتح فى مارس ١٩٦٨ اعتماده ناطقا رسميا باسمها، وقد تم ذلك فى أعقاب معركة شرسة وعنيفة استخدم فيها الجيش الإسرائيلى حشدا من قواته المدرعة وجنوده (١٥٠٠ جندى)، وطائراته الهليكوبتر لاجتياح نهر الأردن إلى الضفة الشرقية للقضاء على قواعد الفدائيين التابعين لفتح. وعلى امتداد ١٥ ساعة بدأت فجر ٢١ مارس ١٩٦٨، دخل الفدائيون الفلسطينيون فى مواجهة عنيفة مع الجيش الإسرائيلى أسفرت عن ٩١ شهيدا فلسطينيا ومقتل ٣٠ إسرائيليا و١٠٠ جريح ـ كما أعلنت بياناتهم الرسمية. ولم يستطع الإسرائيليون تحقيق هدفهم وانسحبوا.

لكن شهرة ياسر عرفات زادت بالتأكيد عندما استقال أحمد الشقيرى من رئاسته لمنظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٩ وخلفه أبو عمار الذى أصبح منذ ذلك الوقت معروفا فى كل أنحاء الدنيا بزيه العسكرى الكاكى، والشال ذى المربعات السوداء والبيضاء الصغيرة الذى يلف به رأسه ورقبته، وهو زى لم يحدث أن قام عرفات باستبداله أو الظهور بغيره منذ ذلك التاريخ حتى اليوم.

◆◆◆

تختلف إسرائيل كدولة عن كل دول العالم من حيث أنها أول دولة تنشأ بقرار دولى أصدرته الأمم المتحدة فى نوفمبر ١٩٤٧ ودخل حيز التنفيذ فى ١٥ مايو ١٩٤٨، لقد كان من نتيجة هذا القرار استلاب أرض يعيش فوقها شعبها وإعطاؤها لناس آخرين تم استيرادهم وجمعهم من دول

كثيرة كانوا يعيشون فيها، ولعلها رغبة العالم فى التخلص من وجودهم بينهم وإرسالهم إلى مكان يعيشون فيه، ومن سوء الحظ أن جاء هذا المكان فلسطين.

وساعد على استفحال المشكلة، الأهداف التوسعية لدى المغتصب الإسرائيلى وشهوته المتفتحة فى قتل الفلسطينيين وطردهم واحتلال قراهم وأراضيهم.

وهكذا فإنه عندما تسلم ياسر عرفات علم القيادة وكانت إسرائيل قد احتلت ما احتلته فى حرب ١٩٦٧، فلقد كان على عرفات أن يواجه نوعا مختلفا من الكفاح الذى لم يسبق أن قام به المهاتما غاندى أو نلسون مانديلا.. كان على عرفات أن يحارب داخل وخارج فلسطين، وأن يثير انتباه العالم على أساس أن القرار الدولى الذى أسس دولة إسرائيل قد ربط بينها وبين العالم، الأمر الذى جعل للقوى الكبرى ولدول العالم دورا فى الصراع.

لقد حارب الفلسطينيون على كل الجبهات واضطروا للفت الأنظار إلى القيام بعمليات ذهب ضحية بعضها أبرياء لا علاقة لهم بالصراع، مثل ضحايا خطف الطائرات وبعض العمليات الأخرى.

ولكن على الجانب الآخر ارتكب الإسرائيليون عشرات المذابح واغتيال القيادات حتى يمكن القول إن العذاب الأكبر لياسر عرفت كان فى افتقاد الأصدقاء والأعوان والرفاق الذين بدأ معهم الكفاح، ودبرت إسرائيل اغتيالهم.. وقد دبرت إسرائيل لعرفات نفسه عديد المحاولات ولكنه نجا منها جميعا.

كان من نتيجة قوة فتح أن دخلت فى صدام مع الأردن عام ١٩٧٠ وتعرضت للهجوم من جانب الجيش الأردنى، الأمر الذى عقد من أجله جمال عبد الناصر القمة العربية، والتى مات فى أعقابها مباشرة، ونتيجة لاتفاق القاهرة خرجت فتح إلى لبنان ولكن مرة أخرى حدث الصدام فى لبنان بين الفلسطينيين وبعض اللبنانيين، وساعدت إسرائيل على زيادة الأزمة ثم دخلت المعركة سافرة ضد ياسر عرفات وقواته على امتداد ٤ سنوات من ١٩٧٨ إلى ١٩٨٢، ومرة أخرى يضطر عرفات إلى مغادرة بلد عربى ليذهب إلى تونس التى بقى فيها إلى أن عاد فى أعقاب توقيع اتفاق أوسلو فى ١٣ سبتمبر ١٩٩٣ إلى وطنه المغتصب، ولكن فى مساحة صغيرة هى غزة وأريحا. ومنذ عام ١٩٧٤، الذى وقف فيه ياسر عرفات لأول مرة خطيبا فى مقر الأمم المتحدة، حتى توقيع اتفاق أوسلو فى عام ١٩٩٣، على امتداد نحو ٢٠ عاما تعرض عرفات لأقسى أنواع المطاردة من إسرائيل والكراهية من أمريكا.. واعتبرت منظمة التحرير الفلسطينية منظمة إرهابية، ولكن أطفال الأرض المحتلة فاجأوا إسرائيل والعالم كله بانتفاضة الحجارة التى أشعلوها فى عام ١٩٨٦، وغيرت مفاهيم القيادات الإسرائيلية التى تصورت أنها فى ذلك الوقت - بعد ٢٠ سنة من الاحتلال والقمع - قد دفنت الهوية الفلسطينية وولد جيل جديد مختلف خلال سنوات الاحتلال، فإذا بها

تفاجأ بأن هذا الجيل الذى لم يعرف إلا الاحتلال، جاء أقوى وأعنف فى الحفاظ على شخصيته الفلسطينية.. واعتبرت الانتفاضة عرفات رئيسا لها بوصفه رئيس المنظمة الفلسطينية. ورغم ذلك فإنه عندما دعا الرئيس الأمريكى السابق جورج بوش أطراف الصراع إلى مؤتمر مدريد فى عام ١٩٩١ تم استبعاد منظمة التحرير كطرف مستقل، وأصرت إسرائيل على أن يحضر الفلسطينيون ضمن وفد أردنى، وبشرط ألا يكون من بين من يمثلون الفلسطينيين شخص واحد ينتمى إلى عرفات.. لكن ماهى إلا فترة قليلة حتى أدرك الإسرائيليون، كما اعترف بذلك شيمون بيريز فى كتابه (الشرق الأوسط الجديد)، أنه من العبث إضاعة الوقت دون الاعتراف بالأمر الواقع، وهو أن عرفات هو الموجه لكل الفلسطينيين.. فكان أن تمت الاتصالات السرية التى انتهت باتفاق أوسلو وباعتراف إسرائيل بالمنظمة وبياسر عرفات، الذى وقف فى ساحة البيت الأبيض أمام إسحق رابين وبحضور الرئيس الأمريكى بيل كلينتون ليتصافحا.

ولكن سلام القرن لم يكن نهاية كفاح عرفات، والذى كتب له أن يحضر هذا الاتفاق فى أوسلو.. فقبل شهور (فى ٨ أبريل ١٩٩٢) تعرض عرفات لحادث سقوط طائرته وتحطمها فى الصحراء الليبية، لكنه نجا بأعجوبة.. وقبل ذلك في أول أكتوبر ١٩٨٥ ـ خلال اقامته في تونس ـ تم إطلاق صاروخ سقط فى وسط غرفة نومه.. واضطر عرفات أن يسكن طائرة تجوب به أنحاء الأرض وأن يكسب تأييد العالم.. وخلال ذلك وبعده تعرض عرفات لمحاولات اغتيال عديدة، ودخل فى خلافات كثيرة مع عدد من القيادات الفلسطينية، وفى كل مرة كان يقال فيها إنه سيخسر معركته السياسية مع زملائه كان عرفات أو (الاختيار) كما يسميه زملاؤه، يخرج منتصرا بسبب قدرته الغريبة على التأثير فى الآخرين بشخصه، وسهولة أن يكسب من أمامه ويستولى عليه..

بالله أى امرأة ترضى أن تسكن معى فى الطائرة؟ قالها عرفات يوما ردا على سؤال وجه إليه عن عدم زواجه.. ولكن فى عام ١٩٩٠ تزوج ياسر عرفات (كانت سنه ٦١ سنة فى ذلك الوقت) من سهى الطويل (من مواليد ١٩٦٣) ورغم فارق العمر الذى يبلغ ٣٤ سنة فقد قالت سهى إن هذا الفرق فى العمر غير مهم، وبالعكس فإن شابا قد يكون مملا مقارنة بزوجى الذى يملك الكثير من الخبرة والعطاء، بالإضافة إلى أننى متزوجة من شخص سيدون اسمه فى سجلات التاريخ.. وفى ٢٤ يوليو ١٩٩٥ أنجبت سهى ابنتهما الوحيدة زهوة..

وقبل ذلك فى يونيو ١٩٩٢ كان عرفات خلال زيارة يقوم بها إلى الأردن قد أجريت له عملية جراحية فى الدماغ لإزالة تجمع دموى تحت الغشاء المغلف للدماغ، والذى جاء نتيجة سقوط طائرته فى الصحراء الليبية

وربما تركت هذه العملية بعد ٦ سنوات أثارها على ما أصاب عرفات أخيرا من رعشة شفتيه اللاإرادية وضعف حركته.. وأيا كان فقد كافح الرجل طويلا طويلا.. كافح ضد الإسرائيليين..

وضد العالم.. وضد بعض أعوانه.. وخلال كل سنوات كفاحه المرير لم يفقد حلمه الجميل الذى يبشر به كل من يلقاه: يوما ما سوف تصحبنى إلى القدس، ونصلى هناك فى المسجد الأقصى وتحت قبة الصخرة ونذهب بعد ذلك إلى مكتبى هناك.. فى القدس العاصمة..

الحلم الكبير الجميل مازال يردده.. ردده فى كل وقت.. وهو يحارب معركة الكرامة فى الأردن عام ١٩٦٨، ثم وهو يحارب الجيش الإسرائيلى فى لبنان، ثم بعد ذلك فى ساعات الضيق الشديدة التى تصيب أى زعيم باليأس . لكن عرفات بالتأكيد نجح.. لقد جعل العالم يعترف به وبمنظمته وبشعبه، وفرض على إسرائيل أن تعترف به.. فكثير من الأحلام والأمنيات التى كان يصعب على الآخرين رؤيتها تحققت.

ومثل كل البشر فلقد اخطأ عرفات فى عدد من القرارات والتصرفات، ولكن عندما يسترجع أى منصف تاريخه وكفاحه الصعب المرير فإنه لا يملك إلا أن يتعاطف معه ويتمنى أن يمتد به العمر ليرى تحقيقه الحلم الذى حلم به.. ولهذا وبرغم تعنت رئيس وزراء إسرائيل – فسيبقى الحلم الأكبر.. دولة فلسطينية عاصمتها القدس. وسيأتى يوم يتحقق فيه هذا الحلم.. وسيكون عرفات بالتأكيد موجودا يوما.. إن لم يكن بشخصه فبذكراه وتاريخه الطويل الذى وضعه فى قائمة الذين غيروا القرن العشرين.

■ زيارة إلى سنوات عرفات

- ١٩٢٩: المولد فى فلسطين.
- ١٩٣٣: وفاة أمه وانتقاله للحياة مع خاله فى القدس القديمة.
- ١٩٤٦: الذهاب إلى القاهرة مع ابيه حيث أكمل تعليمه ودخل كلية الهندسة جامعة فؤاد «القاهرة حاليا».
- ١٩٤٨. عودته إلى فلسطين للاشتراك فى عمليات المقاومة.
- ١٩٥٧- تخرج فى الكلية الحربية المصرية ضابطا مهندسا .
- ١٩٦٥: القائد العسكرى لمنظمة فتح.
- ١٩٦٨: الناطق الرسمى لمنظمة فتح.
- ١٩٦٩: رئيس منظمة التحرير الفلسطينية.
- ١٩٧٠: الخروج من عمان
- ١٩٧٤: يلقى خطابا فى الأمم المتحدة.
- ١٩٨٢: الخروج من لبنان.
- ١٩٩٢: نجاته من الموت باعجوبة فى حادث تحطم طائرته فى الصحراء الليبية.
- ١٩٩٣: توقيع اتفاق أوسلو مع إسحق رابين.



١٦ ميخائيل جورباتشوف

نهاية أكبر إمبراطورية بدون طلقة واحدة .. !

بدأ الاتحاد السوفيتى بلينين عام ١٩١٧ وانتهى بجورباتشوف عام ١٩٩١. وقد أعلن جورباتشوف بنفسه نهاية هذه الإمبراطورية الشيوعية الكبيرة فى كلمة وجهها إلى الشعب يوم ٢٦ ديسمبر ١٩٩١ قال فيها: نظرا للموقف الذى تطور نتيجة لتشكيل كومنولث الدول المستقلة فإننى بناء على ذلك أوقف نشاطاتى فى منصب رئيس اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية.

وبينما احتاجت إمبراطورية سابقة مثل الإمبراطورية العثمانية التى دامت ٤٠٠ سنة إلى سنوات طويلة من الدخول فى حروب وهزائم وتفسخات قبل أن تصاب بحالة المرض وتدخل غرفة الانعاش وتنتهى فإن الإمبراطورية السوفيتية لم يكتب لها أن تستمر سوى ٧٤ عاما، وأن تموت فيما يبدو بالسكتة بدون هزيمة عسكرية ولا رصاصات تقتل إحدى قياداتها.

لقد انتهت بصورة مثيرة إمبراطورية من أقوى الإمبراطوريات التى شهدها العالم.. إمبراطورية مساحتها ٢٢,٤ مليون كيلو متر، أى أكثر من ١٦٪ من مساحة الأرض المسكونة فى العالم، و٢,٥ مرة مساحة الولايات المتحدة، و٧ أمثال مساحة الهند و٦٠ مثلا لمساحة اليابان، و٩٠ مثلا لمساحة بريطانيا.

هذه الإمبراطورية السوفيتية تبلغ أطول مسافة بين الشمال والجنوب ٥٠٠٠كم، وأطول مسافة بين الشرق والغرب ١٠ آلاف كيلو متر، وتمر بأراضيها ١١ منطقة زمنية من المناطق الزمنية الـ ٢٤ فى العالم، مما يعنى أنه فى الوقت الذى يجلس فيه أهل موسكو لتناول طعام العشاء يكون مواطنو جزيرة سخالين يستقبلون الفجر.

هذه الإمبراطورية السوفيتية المكونة من ١٥ جمهورية اتحادية يسكنها ٣٠٠ مليون نسمة وبها ١٢٠ قومية و١٧٦٣ مدينة و١٥٠ ألف نهر يزيد طول كل منها على عشرة كيلو مترات، وأكثر من ٢٥٠ ألف بحيرة.

هذه الإمبراطورية السوفيتية التى تمتلك أكبر قوة نووية ولا ينافسها فى ذلك سوى الولايات المتحدة، انتهت بعد ٧٤ عاما بدون طلقة رصاص على يد جورباتشوف !

◆ ◆ ◆

فى قرية صغيرة تبعد ١٢٤ ميلا عن مدينة ستافروبول ولد ميخائيل سير جيفتش جورباتشوف فى الثانى من مارس عام ١٩٣١، الذى تعود أبواه مناداته باسم ميشا. وقد كانت البداية فقيرة جدا خاصة في السنوات التى تم فيها تجنيد أبيه سيرجى للاشتراك فى الحرب ضد ألمانيا، التى اجتاحت دباباتها الحدود السوفيتية عام ١٩٤١. فى هذه الفترة لم يستطع جورباتشوف الذهاب إلى المدرسة، ليس بسبب ظروف الحرب وإنما لأنه لم يكن لديه حذاء، مما جعل أباه يكتب إلى زوجته رسالة يطلب إليها فيها أن تبيع أى شىء كى تتمكن من شراء الحذاء لميشا!

ورغم المعاناة والأيام الصعبة التى عاشها جورباتشوف خلال سنوات الدراسة، وجعلته يجمع بين الدراسة وبين العمل فى الحقول، فقد استطاع أن ينهى دراسته الثانوية بحصوله على الميدالية الفضية بعد أن جاء ترتيبه الثانى على فصله الدراسى، مما ساعده على أن يفوز بمقعد فى جامعة الدولة بموسكو فى عام ١٩٥٠. وفى البداية أراد الالتحاق بكلية الطب، ولكنه وجد أنه يهوى الرياضيات ويعشق التاريخ والأدب، ولكنه خرج من هذه الدوامة بقرار آخر هو أن يدرس القانون. وفى مجتمع أزال الفوارق بين الذكور والإناث فقد كان الطلبة والطالبات يعيشون فى طوابق واحدة بالمدينة الجامعية، ومن بين من التقى بهم جورباتشوف زميلة اسمها (رايسا ماكسيموفنا تيتورينكو) كانت تدرس الفلسفة وتصغره بسنة واحدة، وقد تزوج الاثنان فى بداية عام ١٩٥٤ وأقاما احتفالا متواضعا ليلة زفافهما حضره ثلاثون طالبا.. وفى هذه المناسبة أمضى الأثنان ليلة الزفاف وحدهما فى غرفة جورباتشوف التى كان يقيم فيها مع عدد من الطلبة، ولكن زملاءه تركوا له هذه الليلة لينفرد بعروسه، أما فى الأيام التالية فقد عاد الزملاء ليشاركوا جورباتشوف حجرته، بينما عادت رايسا إلى غرفتها المشتركة مع عدد من الزميلات، ولم يقدر للزوجين أن يعيشا فى غرفة واحدة إلا بعد عدة شهور عندما حصلا على سكن خاص للطلبة المتزوجين.

وفى صيف عام ١٩٥٥ أنهى جورباتشوف دراسته الجامعية وعاد مرة ثانية إلى موطنه الأصلى فى ستافروبول، ولكن هذه المرة بصحبة زوجته وحاملا شهادة جامعية فى القانون لم يقدر له أن يمارس عملا يتصل بها، ذلك أنه بدأ فى وظيفة صغيرة فى منظمة الشباب المحلية الموجودة فى ستافروبول، لكنه أخذ يتقدم بسرعة داخل هذه المنظمة من موظف صغير إلى مسئول

عن قسم الدعاية إلى سكرتير ثان فى لجنة المنظمة، ثم فى عام ١٩٧٠ - وهو فى سن التاسعة والثلاثين - قفز قفزة كبيرة بالنسبة لسنه عندما أصبح السكرتير الأول للحزب الشيوعى فى ستافروبول، وهى وظيفة تعادل حاكم إحدى الولايات الأمريكية.

يسكن إقليم ستافروبول نحو ٢ر٣ مليون نسمة ويتميز بسمتين أساسيتين الأولى أنه منطقة غنية بالزراعة، والثانية أنه منطقة شهيرة بالمياه المعدنية ومنتجعات العلاج.

وفى دولة تحتاج لإثبات مكانتها على قمة العالم عليها أن توفر احتياجاتها الغذائية ذاتيا، فإن نجاح أو فشل السكرتير الأول لإقليم زراعى مثل إقليم ستافروبول يصبح مرهونا بنتائج حاصلات هذا الإقليم، وهو ما أعطاه جورباتشوف اهتماما خاصا عندما أصبح من خبراء الزراعة بعد أن درس بالمراسلة فى معهد ستافروبول الزراعى.

أيضا فإن وجود منتجعات للعلاج فى ستافروبول، وهى منتجعات يقصدها كبار المسئولين والقادة السوفيت، أتاح لجورباتشوف اللقاء بهؤلاء القادة وتعرفهم عليه، وطبع اسمه وصورته فى أذهان بعضهم مثل سوسلوف - كبير فلاسفة الحزب الشيوعى - وكوسيجين رئيس الوزارة، وأندروبوف الذى كان مديرا لوكالة المخابرات السوفيتية فى ذلك الوقت (كى. جى. بى.).

وهناك عامل ثالث بجانب نجاحه فى الزراعة، والتقائه بقادة السلطة الشيوعية، أنه كان بارعا فى امتداح رؤسائه مما مكنه من جذب نظر فيودور كولاكوف، رئيس الحزب الشيوعى فى ستافروبول، وقد احتضنه هذا الأخير إلا أنه أعلن عن وفاته فجأة فى يوليو ١٩٧٨ وبطريقة تثير الشكوك، وفى نوفمبر أعلن عن اختيار جورباتشوف فى مكان كولاكوف، وبعد شهور قليلة انتخب جورباتشوف فى عام ١٩٧٩ عضوا احتياطيا فى المكتب السياسى للاتحاد السوفيتى، فى نوفمبر عام ١٩٨٢ عقب وفاة رأس الدولة ليونيد بريجنيف، الذى دام فى السلطة ١٨ عاما، وخلفه يورى أندروبوف مما سمح لجورباتشوف بالتقدم خطوة كبيرة تجاه القمة جعلته فى فبراير ١٩٨٤ عندما مات أندروبوف، أحد ثلاثة مرشحين، ليكون الرجل الأول على قمة السلطة. كان هناك فى ذلك الوقت قسطنطين تشيرننكو (١٩٧٣ سنة) وجريجورى رومانوف (٦١ سنة) وميخائيل جورباتشوف (٥٢ سنة)، وفى نظام يعطى درجة من الأهمية القصوى للسن الكبيرة وقع الاختيار على تشيرننكو، إلا أن مدة رئاسته لم تزد على ١٣ شهرا؛ وبوفاته فى مارس ١٩٨٥ تم انتخاب جورباتشوف سكرتيرا عاما للحزب الشيوعى السوفيتى، ليصبح الرجل الأول فى إمبراطورية تناطح الولايات المتحدة على موقع القمة فى العالم.

كيف استطاع جورباتشوف أن يفعلها؟ كيف استطاع أن يعلن بنفسه نهاية هذه الإمبراطورية السوفيتية التى تفككت وتسللت من بين يديه؟ رغم أن كل الذين سبقوه فى مقعده كانوا يتميزون بالقوة والديكتاتورية. لقد سبقه ستة كان هو سابعهم: لينين من ١٩١٧ إلى ١٩٢٤، ثم ستالين،

صاحب القبضة الحديدية والإعدامات بلا حدود، (١٩٢٤ إلى ١٩٥٢)، ثم خروتشوف الذى أقام شهرته على فضح عهد ستالين (١٩٥٣ إلى ١٩٦٤)، ثم بريجنيف الذى كان عصره بداية الضعف للإمبراطورية، ولكن دون ظهور كاف (من ١٩٦٤ إلى ١٩٨٢) أندروبوف، مرحلة تسلل الفئران إلى مركب الإمبراطورية (١٩٨٢ إلى ١٩٨٤)، ثم تشيرننكو، محطة الجمود بسبب المرض (١٢ شهرا من ١٩٨٤ إلى ١٩٨٥)، وأخيرا جورباتشوف الذى شهدت السنوات الست من ١٩٨٥ ـ ١٩٩١ التى قاد فيها الإمبراطورية إلى النهاية الرسمية. وبكل المقاييس فإن جورباتشوف لم يكن عميلا للغرب كما تصور البعض، بل إن روبرت جيتس ـ المدير السابق لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى كتابه الممتع FROM THE SHADOWS قال: الحمد لله أنه لم يكن عميلا، فلو كان كذلك لما استطعنا توجيهه للتخطيط لتدمير الإمبراطورية السوفيتية بهذا النجاح. والصحيح أن جورباتشوف كان مخلصا فى نواياه تجاه بلاده، وبسبب إخلاصه فقد وجد أن دوام الحال داخل هذه الإمبراطورية بالأوضاع التى كانت عليها من المحال. كان من الضرورى أن يقوم بالتغيير. وكان اعتقاده أنه إذا كان لابد من هذا التغيير فإن عليه أن يستخدم الحزب الشيوعى، الذى يضم نحو مليونى عضو من كل سكان البلاد، ليكون أداة هذا التغيير. لقد أراد أن يقوم الحزب الشيوعى الذى يسيطر على كل شىء فى البلاد بما يمكن أن يسمى «ثورة بلا طلقات» ولكن الذى نسيه جورباتشوف أن هذا الحزب نفسه كان، بفعل الزمن وتراكم السلطة والبيروقراطية والديكتاتورية ووسائل القمع، قد تحول إلى خرابة من الفساد والرشوة. وكان معنى أن يمارس الحزب التغيير والثورة أن يخلع ثياب ديكتاتوريته ويطهر تعاملاته الفاسدة ؛ ويتنازل عن امتيازاته الخفية غير المشروعة، وهو ما كان مستحيلا تحقيقه.

كانت أول كلمة أطلقها جورباتشوف وانتشرت فى كل العالم أنه جاء ليحقق (البريسترويكا) وهى كلمة روسية تعنى «التغيير». وكان جورباتشوف يريدها بالتأكيد بريسترويكا إلى الأفضل.. إلى الأحسن.. كان يريدها شيوعية قوية؛ فقد خلف جورباتشوف مجموعة من العجائز الذين تولوا قيادة الاتحاد السوفيتى (بريجنيف ـ أندروبوف ـ تشيرننكو) وتدهورت الأوضاع خلال فترة حكمهم إلى الحد الذى جعل ليخ فاونسا فى بولندا يقوم بما قام به.

بعد مرور عام على تسلمه السلطة اكتشف جورباتشوف أن البريسترويكا التى تمناها لم تحرز أى تقدم ملموس، فقد كان طبيعيا أن يخنق أعضاء الحزب المتخمون بالفساد أية محاولة للتغيير. وهكذا وجد جورباتشوف أنه لابد من أداة أخرى تقوم بهذا التغيير، وعندما أراد ماو تسى تونج قبل نحو ٢٠ سنة أن يقوم بشىء قريب من الذى قام به جورباتشوف لتطهير الحزب فإن ماو اتجه إلى الطلبة وأطلقهم من مدارسهم واستخدمهم على أنهم العصا التى يمارس بها ما يريد من تغيير، لكن جورباتشوف اتجه إلى كل الشعب وأطلق كلمة ثانية انتشرت هى الأخرى فى الاتحاد السوفيتى وفى العالم وهى كلمة (الجلاسنوست)، وهى كلمة بالروسية تعنى المكاشفة

والمصارحة والحديث بصوت عال عن أمراضنا.. وهكذا فى وقت واحد أصبح شعار نظام جورباتشوف البريسترويكا، أى التغيير والجلاسنوست، أى المكاشفة. وفى مجتمع تعود فيه المواطن ألا يفتح فمه ولا يقول رأيه، وأن يشرب المر ويمدح الذين يمدون له أيديهم بكئوسه، وأن يرى صعود رواده إلى الفضاء وهو عاجز عن توفير مسكنه وشراء بدلة أوحذاء.. فى مجتمع لا يسأل فيه الفرد أين ذهب جاره الذى كان فى مسكنه حتى هذا الصباح، ولا أن يتأفف من رائحة اللحم الخانقة التى تباع له.. فقد كان طبيعيا إذا قيل له: افتح فمك وتكلم، أن يشك ويرتاب.. ثم بعد أن يطمئن إلى أنه يستطيع بالفعل أن يتحدث ولا يخاف، فإنه على عكس ما تصور جورباتشوف جاءت المكاشفة أشبه بإعصار اقتلع الاتحاد السوفيتى دون أن يكون هناك البديل الذى يعوض ما اقتلعه الإعصار.. لقد انتقدوا بشدة الأوضاع الاقتصادية التى كانوا يعيشونها.. الفقر.. الحاجة.. تخلف الصناعات.. سوء الخدمات.. ولكن ماذا بعد الكلام.. هل سيمكن تغيير شىء؟.. لقد كان الشعب مضروبا وراضيا فلما أطلق جورباتشوف حريته للشكوى والمصارحة أصبح غير راض.. وهذه مشكلة جورباتشوف الحقيقية فى رأيى.. إنه أطلق كل الوحوش الضارية الكامنة والمختبئة فى نفوس ملايين المواطنين فى أنحاء الاتحاد السوفيتى، ولكن دون أن يوفر لهم الطعام الذى يأكلونه فكان طبيعيا أن ينقلبوا على الحارس الذى فتح لهم الأبواب ويلتهموه..!

كانت المشكلة أنه لم يكن أمام جورباتشوف، الذى أراد تحسين أوضاع بلاده، أية استراتيجية واضحة ومحددة الملامح.. لأنه لم يكن من الممكن أن يرسم هذه الاستراتيجية وحده بدون مساعدة من الحزب.. ولكن الحزب بدوره تحول إلى أداة للتعطيل بدلا من أن يكون أداة للتغيير، رغم كل ما فعله لزرع أعوانه فى قمة الهرم الذى يحكم الحزب. وفى محاولة لدرء الصدع داخليا اتجه جورباتشوف إلى الخارج، فركز على سياسة خفض الأسلحة النووية للتخفيف عن ميزانية مرهقة. وتلقفه الأمريكيون ببراعة.. فهموا المأزق الذى يواجهه فأحسنوا استغلاله.. وقبل جورباتشوف الخروج من أفغانستان بلا أى مطالب.. وأعلن قبوله لتدمير الصواريخ المتوسطة المدى من ٥٠٠ إلى ١٥٠٠ كيلومتر، وأكثر من ذلك تدمير الصواريخ الحديثة التى [illegible] الخبراء السوفيت فى إنتاجها، والتى مداها ٤٠٠ كيلو متر، وبذلك [illegible] موسكو [illegible] أوروبا..! ورغم ذلك يسجل لجورباتشوف أنه أزاح عن العالم كابوس الخوف من [illegible] نووية بين القوتين العظميين.. لكن على المستوى الداخلى فإن سياسة جورباتشوف ـ «البريسترويكا» و«الجلاسنوست» ـ جعلته يواجه فى وقت واحد ثلاثة تحديات كان من المستحيل أن ينجح فى مواجهتها: **التحدى الأول**: إصلاح الأوضاع الاقتصادية المتدنية فى إمبراطوريته، **والتحدى الثانى**: إعادة تنظيم أوضاع الإمبراطورية من الداخل سياسيا، ثم **التحدى الثالث** الخطير الذى بدا كمارد خرج من قمقمه وهو المشكلة العرقية فى الاتحاد السوفيتى، حيث توجد نحو ١٢٠ فئة عرقية انطلقت تستعيد جذورها وذاتها. ونتيجة لذلك اكتشف أفراد الإمبراطورية السوفيتية أن الشيوعية التى تعلموا

وتربوا على أنها الجنة الموعودة ليست، ببساطة شديدة، هى الجنة.. لقد فقدوا إيمانهم بها. ولأن هذه العقيدة الشيوعية كانت المادة اللاصقة التى تجمع الجمهوريات والعرقيات العديدة، فإنه بزوال هذه المادة اللاصقة كان طبيعيا أن تتفكك الإمبراطورية الكبيرة، وينسلخ أفرادها واحدا بعد الآخر.. وتصل قمة الدراما فى واحدة من أغرب قصص القرن، أن يعلن جورباتشوف الذى أعلن سياسة البريسترويكا والجلاسنوست أملا فى اتحاد سوفيتى أقوى وأكثر ترابطا.. أن يعلن أيضا نهاية هذه الإمبراطورية، التى لم تدم سوى ٧٤ سنة وبدأت ثورة حمراء وانتهت بدون طلقة واحدة..!

■ زيارة إلى سنوات جورباتشوف

- ١٩٣١ : فى ٢ مارس : كان مولده فى إقليم ستافروبول.
- ١٩٥٠ : ذهب لمتابعة دراسته فى موسكو ونيل شهادة الحقوق.
- ١٩٥٤ : زواجه من رايسا تيتورنيكو، زميلة فى المدينة الجامعية والتى تخصصت فى الماركسية اللينينية، وقامت بالتدريس فى الجامعة أكثر من ٢٠ عاما.
- ١٩٧٠ : شغل منصب السكرتير الأول فى لجنة منطقة ستافروبول.
- ١٩٧٨ : انتخب سكرتيرا للجنة المركزية.
- ١٩٧٢ : أختير عضوا احتياطيا فى المكتب السياسى
- ١٩٨٠ : أصبح عضوا أصيلا فى هذا المكتب.
- ١٩٨٤ : انتخب رئيسا للجنة الشئون الخارجية فى مجلس السوفيت الأعلى.
- ١٩٨٥ : أصبح السكرتير العام للاتحاد السوفيتى خلفا لتشرننكو.
- ١٩٨٦ : أعلن سياسة البريسترويكا.
- ١٩٨٧ : أعلن سياسة الجلاسنوست.
- ١٩٩١ : أعلن نهاية الاتحاد السوفيتى.



١٧ آية الله الخمينى



الثورة بالكاسيت .. !

كانت آخر مرة يتمكن فيها شعب من الاستيلاء على السلطة وتغيير نظام الحكم فى عام ١٩١٧، عندما تمكنت الثورة البلشفية ـ بقيادة لينين ـ من إسدال الستار على حكم القياصرة الروس.. منذ ذلك الوقت شهد العالم عددا غير قليل من تغيير نظم الحكم فى عدد كبير من الدول، ولكن جميع هذه التغييرات تمت بواسطة الجيش فى كل دولة.. وفى كل مرة كان ينجح فيها ضابط فى الاستيلاء على السلطة يسمى نفسه قائد ثورة، أما فى حالة الفشل فيصبح اسمه قائد مؤامرة خائنة فاشلة.. تعددت الثورات والانقلابات ولكنها كانت كلها عسكرية إلى أن ظهرت أخيرا، بعد أكثر من ٦٠ سنة، ثورة شعبية يقودها رجل اسمه آية الله روح الله الخمينى، قال عنه الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل إنه يبدو كرصاصة انطلقت من القرن السابع واستقرت فى قلب القرن العشرين..

وفى كل الثورات التى شهدها القرن العشرون لم يحدث أن قاد أية ثورة رجل دين مثل الخمينى، ولا عجوز فى سنه التى اقتربت من الثمانين، ولا أعزل بغير سلاح سوى سلاح الكاسيتات الذى عبأه بخطبه الثورية النارية، أطلقه على حكم الشاه الذى كان يسانده جيش يعتبر بكل المقاييس من أقوى الجيوش، بل هو أقوى جيوش منطقة الخليج.

ولد آية الله الخمينى ـ فى قول عام ١٩٠٠ ـ وفى قول آخر عام ١٩٠٢ فى نفس يوم مولد فاطمة بن محمد صلى الله عليه وسلم زوجة الإمام على وأم الحسن والحسين.. وربما كان هذا من وسائل تعظيم الرجل لإضفاء المزيد من القداسة عليه أو قد يكون صحيحا، وفى كلا الحالين فإنه يوم مولده أطلق عليه اسم روح الله موسوى، ولم يكن أحد فى كل العالم يتنبأ أن هذا الطفل الذى

ولد فى قرية خمين التى تبعد ٨٠ ميلا جنوب غربى مدينة «قم» سوف يتمكن من القضاء على إمبراطورية شاه تحميه أقوى الجيوش وتؤيده أكبر الدول، ويملك أخطر أجهزة المخابرات.

كان أبو الخمينى ـ واسمه مصطفى ـ من كبار رجال الدين الذين يحملون لقب آية الله، وهو لقب رفيع لا يحصل عليه إلا من حصل على قدر كبير من العلوم الدينية والفقهية.. ولم يقدر للخمينى أن يشهد والده أو حتى ينطق بكلمة «بابا» التى يرددها كل طفل. فبعد شهور قليلة من ولادته تعرض الأب مصطفى لعملية انتقامية، تم فيها إطلاق الرصاص عليه وقتله لأنه تولى الدفاع عن حقوق بعض المستأجرين من الفلاحين لدى أحد كبار الملاك الإقطاعيين.. ولابد أن هذه الحكاية قد قيلت كثيرا للخمينى عندما كبر، وقد ظلت مترسبة داخله إلى أن تمكن فى سن الثمانين أن يثأر لأبيه، ويقضى على الإقطاع فى إيران وعلى رأسه الشاه نفسه صاحب عرش الطاووس.

كان للخمينى أم متدينة قوية اشرفت على تربيته ووجهت دراسته إلى الدين، وعندما ماتت أمه فى عام ١٩١٨ ذهب ليعيش عند أخيه الأكبر الذى كان أيضا من رجال الدين.. وفى ذلك الوقت انضم روح الله موسوى إلى حوزة آية الله عبدالكريم الحائرى، وأصبح أحد تلاميذه ومريديه وقد تبعه عندما انتقل الحائرى إلى مدينة «قم» التى ارتبط بها ارتباطا وثيقا وأصبحت بلدته وأطلق على نفسه اسم الخمينى.

وفى سن الأربعين دخل الخمينى ميدان السياسة عندما أجبرت الدول المتحالفة فى الحرب العالمية الثانية رضا خان، شاه إيران، على التنازل عن العرش لابنه محمد رضا، وكتب الخمينى مقالا ثوريا يهاجم فيه هذه النظم التى تحكم إيران، سواء الشاه القديم المستقيل أم الشاه الحديث، مطالبا بالتخلص من أمثال هذه النظم الديكتاتورية التى لا قيمة لها وحرقها.

لقد بدا أن الخمينى كان على موعد مع الشاه محمد رضا، فلقد بادله الكراهية منذ أول يوم تولى فيه محمد رضا عرشه، وقد وجد الخمينى فى حكم الشاه من الفساد والديكتاتورية ما شجعه على الانطلاق فى ثورته ضده.

وفى عام ١٩٦٣ قبض على الخمينى بعد سلسلة من المظاهرات العنيفة التى شهدت صداما دمويا مع قوات الجيش.. واعتبر الخمينى من قادة التحريض على هذه المظاهرات ضد الشاه، فوضعوه فى زنزانة سحيقة رطبة مما عرضه للإصابة بمرض صدرى.

وقد أحدث القبض عليه ردود فعل واسعة فى الشارع الإيرانى اضطرت الشاه إلى إصدار أوامره بالإفراج عنه مع السماح له بأن يتكلم ويهاجم من يريد باستثناء اثنين: الشاه وإسرائيل وقول إن الإسلام فى خطر. ولم يمتثل الخمينى لأوامر الشاه، فقد استمر فى الهجوم عليه وعلى إسرائيل وترديد شعاره الذى انطلق فى كل إيران «الإسلام فى خطر».

ولما خافت السلطات الإيرانية من نتيجة اغتياله فإنهم قرروا طرده.

وفى يوم الرابع من نوفمبر عام ١٩٦٤ هاجم رجال البوليس السرى الإيرانى الذى كان معروفا باسم (السافاك) مقر إقامة الخمينى، ولفوه فى سجادة ووضعوه فى طائرة حملته إلى منفاه الأول فى تركيا، وهناك ـ باتفاق بالطبع مع السلطات الإيرانية ـ قامت السلطات التركية بتحديد إقامته فى البيت الذى خصص له، لكن هذه السلطات لم تستطع أن تتحمل طويلا عبء وجوده فقررت ترحيله إلى إيران مرة أخرى.

وطلب الخمينى أن يتركوه يقرر مصيره، فذهب إلى العراق حيث قررت السلطات العراقية منحه هو وعائلته حق اللجوء السياسى، وخصصت له منزلا فى مدينة النجف المقدسة.

وفى أثناء إقامته فى العراق وصل إلى الخمينى نبأ موت ابنه مصطفى (٤٨ سنة) فجأة، فاتهم عملاء البوليس السرى الإيرانى والمخابرات الإيرانية أنهم الذين قتلوه، لأن مصطفى كان يقوم بمهمة حمل رسائله إلى تلاميذه ومريديه لينشروها فى جماهير الشعب. وصعّد الخمينى حملته ضد الشاه وضد نظام الحكم فى إيران.

وكان من نتيجة ذلك أن استجابت الحكومة العراقية لطلب الشاه وطردت الخمينى من أراضيها، ووصل الخمينى إلى الكويت ولكنها اعتذرت عن استقباله، وفى السادس من أكتوبر ١٩٧٧ طار الخمينى إلى باريس حيث كانوا ـ بترتيب من بعض أتباعه ـ قد أعدوا له بيتا صغيرا فى ضاحية (نوفل لى شاتو) التى تبعد ٢٠ ميلا غرب باريس.

ومن هذا البيت الصغير فى ضاحية باريس قاد آية الله الخمينى حربه الدينية الإسلامية ضد الشاه محمد رضا بهلوى، وضد نظام حكمه.

كانت فكرة الثورة وإنهاء حكم الشاه قد سيطرت تماما عليه، وكان الخمينى يعرف أن الأغلبية الجماهيرية الواسعة تؤيده، ولكن كان هناك الجيش، الذى يبلغ عدد قواته ٧٠٠ ألف جندى وضابط، وكان الخمينى يقول لأتباعه ومريديه الذين أحاطوا به فى موقعه الجديد فى فرنسا: إنه لا يمكن للجماهير مواجهة هذا الجيش ومحاربته بأى سلاح يحصلون عليه، وأن الطريقة الوحيدة لمحاربة هذا الجيش هى نزع سلاحه. وقال الخمينى إن هذا الجيش يربطه بالشاه يمين الولاء وإطاعة الأوامر، وهى سلاسل يجب تحطيمها.

يقول الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل فى كتابه (مدافع آية الله): كان الشاه قد كون صفوة كبيرة من الضباط تتقاضى مرتبات مرتفعة للغاية ويتمتعون بمميزات عديدة ويدينون له بكل شىء. أما أفراد القوات المسلحة من الرتب الأخرى فكانوا يخدمون فى وحدات بعيدا عن أقاليمهم ـ

فالذين من أذربيجان يخدمون فى طهران، والذين من طهران يخدمون فى أذربيجان، وهكذا. وهذا يعنى أنه لم تكن هناك عناصر مشتركة كثيرة بين القوات المسلحة وأفراد الشعب الذين قد يكونون مختلفين عنهم فى الانتماء العرقى وأحيانا اللغوى

والأقسام الحساسة فى الجيش كان أفرادها من الأقليات، ولم يكن من المحتمل أن يستجيبوا لنداء آية الله، ومع بداية عام ١٩٧٧ وجه الخمينى عددا متزايدا من نشراته ورسائله الإعلامية إلى القوات المسلحة. كانت الرسالة بسيطة: ينبغى لهم ألا يخدموا الشاه. فالشاه هو الشيطان الطاغوتى المتجسد، وهم جنود الله المستضعفون وينبغى لهم ألا يطلقوا النار على إخوانهم من المسلمين، لأن كل رصاصة تصيب قلب مسلم هى أيضا تصيب قلب القرآن. يجب أن يعودوا إلى قراهم وإلى أسرهم وأراضيهم. يجب أن يرجعوا إلى المسجد. إلى الله.

كان السلاح الذى استخدمه الخمينى ضد الشاه هو سلاح الكاسيت.. فكانت خطبه المسجلة على شرائط تصل إلى الشعب الإيرانى لتلهب مشاعره وتستثير غضبه على الشاه ونظام حكمه ومخابراته.

واستجابت الجماهير لدعوة الخمينى التى أطلقها من باريس ضد الشاه فى طهران، فشهدت إيران العديد من المظاهرات، واضطر جعفر شريف إمامى، رئيس وزراء إيران، إلى إعلان الأحكام العرفية فى ١١ سبتمبر ١٩٧٨، ولكن المظاهرات ـ وبخاصة التى راحت تتجه إلى مدينة (قم) مركز دراسة الخمينى ـ راحت تزيد أكثر وأكثر.. وبدأ الصدام عنيفا مع المظاهرات وسالت دماء أكثر من ٢٤٠٠ إيرانى.

وفى أكتوبر ١٩٧٨ امتدت المظاهرات والاضطرابات إلى نحو ٤٠ مدينة إيرانية كبيرة، شملت العاصمة طهران وتبريز وأصفهان والأهواز ومشهد، وفى ٧ نوفمبر استقالت حكومة جعفر شريف إمامى وخلفتها حكومة عسكرية برياسة الجنرال غلام رضا أزهرى، رئيس أركان القوات المسلحة الإيرانية الذى هدد باستخدام أقسى درجات العنف.

ولم تتوقف المظاهرات ولا المصادمات بل ازداد الأمر سوءا.. وفى خلال ذلك لم تتوقف صواريخ الخمينى التى يعبئها فى شرائط الكاسيت ويطلقها على حكم الشاه.. وفى يوم ١١ يناير ١٩٧٩ غادر الشاه وأسرته طهران هربا من الموقف على أساس أن يتمكن الجيش من السيطرة على الموقف ويعود من جديد، ولكن الخمينى أعلن من منفاه فى باريس أنه جاء وقت العودة إلى بلاده إيران معلنا أن هذه المسيرات والمظاهرات فى إيران هى بمثابة استفتاء عام على ضرورة تنحية الشاه عن السلطة وإقامة جمهورية إسلامية.

وأصبح شهبور بختيار رئيسا لوزراء إيران وأصدر أوامره بإغلاق مطار طهران.

وحاصر الجيش كل المطارات لمنع عودة الخميني.. ولكن الخمينى تحدى بختيار وقرر السفر إلى إيران. وفى الفجر غادرت طائرة بوينج ٧٠٧ مطار باريس إلى طهران وفى الدور العلوى بالطائرة أدى آية الله الخمينى صلاة الفجر، وكان يرتدى العمامة السوداء تمييزا له عن الملالى الذين يرتدون العمامات البيضاء.

وفى الطائرة صحب الخمينى معه جيشا من الصحفيين من أنحاء العالم، ليكونوا معه عند وصوله إلى إيران بعد أن قرر أن يجعلهم (رهائن) معه على الطائرة فيما لو فكر أعداؤه فى تهديد سلامة الطائرة.

ومنذ لحظة وصوله إلى طهران يوم أول فبراير ١٩٧٩ أصبح واضحا أن هذا الرجل، الذى يضع قدمه على عتبة الثمانين، قد أستولى على السلطة، وأن الشاه الذى غادر طهران على أمل العودة لن يعود أبدا، وأن الحكومة التى هددت بمواجهة الخمينى إذا عاد لن يستطيع رئيسها أن يعطى أمرا لأحد بعد وصول الخمينى، وأن كل ذلك ليس إلا بداية لما هو أكبر.

وفى ٣٠ مارس ١٩٧٩ ذهب ملايين الإيرانيين إلى مراكز الانتخاب للاقتراع على بقاء نظام الشاه الملكى أوقيام الجمهورية الإسلامية، وفى أول أبريل ١٩٧٩ أعلن آية الله الخمينى قيام الجمهورية الإسلامية فى إيران ووصف هذا اليوم بأنه (يوم النصر والفتح).

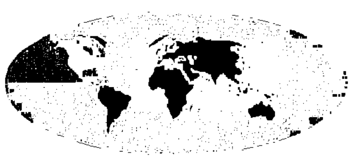
لقد أصبح الخمينى الزعيم الروحى لهذه الجمهورية بعد أن أعلن نظام «ولاية الفقيه»، فى هذه الجمهورية.. «وفى خلال عشر سنوات أمضاها الخمينى فى إيران قبل أن يعلن خبر وفاته فى ٤ يونيو ١٩٨٩، تم إعدام عدد غير قليل من أعوان الشاه، واحتجز الطلبة ٥٢ رهينة فى السفارة الأمريكية (٤ نوفمبر ١٩٧٩) ولم يطلقوا سراحهم إلا بعد ٤٤٤ يوما فى ٢٠ يناير ١٩٨١، وتوفى الشاه المخلوع (٢٧ يوليو ١٩٨٠) فى القاهرة التى لم يجد مكانا غيرها يقبل لجوءه إليه، وبدأت الحرب الإيرانية العراقية (٢٢ سبتمبر ١٩٨٠) التى استمرت ثمانى سنوات (٢٠ أغسطس ١٩٨٨).

وفى ٢٢ مايو دخل الخمينى المستشفى لإجراء جراحة توقف نزيفا بالجهاز الهضمى، وبعد ٥ أيام تعرض لمتاعب فى القلب. ورغم ما أعلن عن تحسن صحته إلا أنه فى السابعة من صباح الأحد ٤ يونيو ١٩٨٩ أعلن نبأ وفاة الخمينى.

مات الرجل الذى تزعم أول ثورة شعبية بعد ٦٠ سنة من ثورة روسيا الشيوعية.. مات صاحب الرصاصة التى انطلقت من القرن السابع واستقرت فى قلب القرن العشرين. الرجل الذى قال عنه أحد الكتاب الغربيين : منذ القرن السابع عشر لم يعد الإسلام يشكل خطرا حتى قام الخمينى يدعو له ثانية ويهز العالم!

■ زيارة إلى سنوات الخميني

- ١٩٠٠ : مولد الخميني باسم روح الله موسوى فى قرية خمين.
- ١٩٠٠ : مقتل والده على أيدى عدد من أتباع أحد الملاك الإقطاعيين.
- ١٩١٨ : موت أمه.
- ١٩٢٢ : انتقل إلى مدينة «قم» تابعا لآية الله عبدالكريم الحائرى الذى أصبح من تلاميذه.
- ١٩٢٥ : زواجه من زوجته خديجة، وكانت فى الرابعة عشرة، وأنجب منها خمسة، مات ثلاثة منهم واغتيل الرابع مصطفى ويقى الابن الخامس أحمد خميني.
- ١٩٤١ : إعلانه الحرب على نظام الشاه وضرورة التخلص من هذا الحكم.
- ١٩٦٣ : القبض عليه وإيداعه السجن ثم الإفراج عنه بعد شهور.
- ١٩٦٤ : طرده إلى تركيا ومنها إلى العراق بعد ذلك.
- ١٩٧٧ : سفره إلى فرنسا بعد أن طرده العراقيون حيث أقام فى ضاحية قرب باريس وأعلن منها حرب الكاسيتات المعبأة بخطبه.
- ١٩٧٩ : أول فبراير : عودته إلى طهران واستقباله استقبال الفاتحين.
- ١٩٧٩ : أول أبريل : إعلانه قيام الجمهورية الإيرانية الإسلامية.
- ١٩٨٩ : ٤ يونيو : إعلان نبأ وفاته.





١٨ عبدالعزيز بن سعود

أول دولة تحمل اسم مؤسسها

مع بداية القرن العشرين استطاع أن يخطو الخطوة الأولى والصعبة إلى توحيد الجزيرة العربية لتصبح واحدة من أهم الدول المؤثرة فى العالم، سواء بسبب أعظم الأماكن الإسلامية المقدسة التى يحج إليها ملايين المسلمين من كل أرجاء الدنيا، أوبسبب الثروة البترولية التى تفجرت فى باطن أرضها، وأصبحت أساسا من الأسس الرئيسية التى يقوم عليها تقدم أى دولة فى العالم.

فى هذه البلاد ومنذ أكثر من ١٤٠٠ عام، وفى حوالى العام ٥٧٠ ميلادية ولد فى مدينة مكة محمد بن عبدالله، الذى اختاره الله ليكون رسوله إلى العالم، حاملا رسالة الإسلام الحنيف الذى نزل به الوحى على الرسول صلى الله عليه وسلم فى العام ٦١٠ ميلادية.. كانت مكة فى ذلك الوقت مركزا رئيسيا من مراكز عبادة الأوثان والأصنام، فجاء محمد، سيد الخلق، ليقود ملحمة استطاعت فى فترة قصيرة نشر رسالة الحق رغم أقسى الظروف والمعاناة والمتاعب التى لاقاها، لكنه تمكن من نشرها فى جميع أنحاء الجزيرة العربية، وأن يوحد ـ لأول مرة فى التاريخ ـ هذه الجزيرة ويرسخ الأسس العامة للدولة الإسلامية الأولى، ويوفر المقومات الضرورية الدينية والنفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية لنجاح الفتوحات العربية، التى حملت الإسلام إلى الهند والصين وإلى قلب أوروبا.

وعلى امتداد أكثر من ١٢٠٠ سنة شهدت الجزيرة العربية العديد من الأحداث إلى أن جاء «الوهابيون» فى القرن الثانى عشر للهجرة، وتمكنوا ـ على يد محمد بن سعود ـ من إقامة دولتهم السعودية الأولى وقد استمرت هذه الدولة أكثر من سبعين عاما تولى الإمارة فيها أربعة من آل سعود، أولهم مؤسسها محمد بن سعود، وعبدالعزيز بن محمد، وسعود بن عبدالعزيز، وعبدالله بن سعود.

وفى القرن الثالث عشر الهجرى جاء الأمير فيصل بن تركى بن سعود، وأحيا الدولة السعودية الثانية، إلا أن هذه الدولة لم تستمر سوى سنوات قليلة بين عامى ١٨٤٣ و١٨٦٥، فبوفاة الأمير فيصل عام ١٨٦٥م (١٢٨٢ هـ) انتهى العصر الذهبى فى الدولة السعودية الثانية، فتنازع أنجاله الحكم، وبدأ ما يمكن تسميته بالحرب الأهلية التى استمرت حتى عام ١٨٩٠ (١٣٠٨ هـ) بانتصار ابن الرشيد، أمير حائل، بدعم من الدولة العثمانية التى ظلت عيناها على الجزيرة العربية، واضطر آخر أمراء الدولة السعودية الثانية الأمير عبدالرحمن بن فيصل بن تركى بن عبدالله بن محمد بن سعود، اضطر للهجرة بأسرته وأولاده إلى الكويت فى سنة ١٨٩١. وكان من بين هؤلاء الأبناء شاب ولد فى مدينة الرياض فى ٢٩ من ذى الحجة عام ١٢٩٧ هـ الموافق ٢ ديسمبر عام ١٨٨٠م، هذا الشاب - واسمه عبدالعزيز - شاهد منذ مولده أحداث التمزق التى حدثت لدولته، والمؤامرات التى حيكت للقضاء عليها، فى الوقت الذى لم ينس صور مدينة الرياض التى ولد وتربى فيها.. هذا الشاب سيشهد القرن العشرين بصمته الفريدة عليه لأنه استطاع فى هذا القرن أن يقود حركة نضالية فريدة لإعادة توحيد الجزيرة العربية وإرساء قاعدة دولة من أهم دول العالم الحديث.

يحكون عن عبدالعزيز أنه كان منذ صغره حاد الذكاء، دقيق الملاحظة، سريع البديهة، فوعى تماما ما كان يحيط بوالده وأسرته من أجواء مشحونة بالعداء والمطامع، وعندما بلغ العشرين من عمره بدأت تتشكل فيه سمات الرجولة والفروسية وركوب الخيل.. وبإيمان كبير اتخذ قراره الحاسم ببدء النضال لاسترداد الرياض التى هرب منها مع أبيه.

وفى عام ١٣١٩ هجرية بدأ الأمير عبدالعزيز - على رأس فرقة من ٤٢ رجلا آمنوا بدعوته وبايعوا قيادته - محاولة استعادة نجد من ابن الرشيد، فحرر مدينة الرياض فى نفس السنة فى يوم الخامس من شهر شوال عام ١٣١٩ - منذ مائة سنة - وهو الأمر الذى جعل المملكة العربية السعودية تحتفل بمرور مائة سنة هجرية على تأسيسها. لكن تحرير الرياض لم يكن سوى خطوة على طريق معارك طويلة استمر عبدالعزيز يخوضها على مدى عشرين عاما، حتى تمكن فى النهاية من إخضاع ابن الرشيد وتقويض سلطته. وفى خلال ذلك نجح عبدالعزيز فى ضم القصيم (عام ١٣٢٢ هـ) ثم ضم الإحساء (عام ١٣٣١ هـ) ثم واصل انتصاراته فى معارك عديدة تمكن فيها من فتح الطائف ودخول مكة المكرمة فى شهر محرم عام ١٣٤٣، ثم فى العام التالى - ١٣٤٤ - استسلمت مدينة جدة، وبذلك أصبحت منطقة الحجاز ومدنها بكاملها تحت حكمه دون منازع.

وفى اليوم الأول من ٢١ جمادى الأول عام ١٣٥١ هـ - الموافق ٢٣ سبتمبر ١٩٣٢ م - وبعد أن نودى بعبدالعزيز ملكا على البلاد، أعلن الملك عبدالعزيز تأسيس المملكة العربية السعودية، وأصبح هذا اليوم هو اليوم الوطنى للمملكة.

ولم تتوقف جهود عبدالعزيز، فبعد أن وحد الجزيرة العربية داخليا سعى إلى تأمين وضعها دوليا ومع جيرانها.. فعقد اتفاقية جدة (مايو ١٩٢٧) وتضمنت اعتراف بريطانيا بسيادته على شبه الجزيرة العربية، ثم عقد مع اليمن معاهدتين (مايو ١٩٣٤ ونوفمبر ١٩٣٧) تضمنتا الاتفاق على الحدود بين البلدين، أما الحدود الشرقية مع الكويت فقد تم الاتفاق بشأنها فى معاهدة السعودية والحكومة البريطانية (التى كانت تمثل شيخ الكويت) فى عام ١٩٤٢. وهكذا أتم عبدالعزيز كل الأسس التى تضمن استقرار المملكة داخليا ودوليا ومع جيرانها.

ولما كانت للكعبة الشريفة، والحرم النبوى أهميتهما الخاصة باعتبارهما قبلة ملايين المسلمين من كل أنحاء العالم، فقد كان من أول ما حرص عليه الملك عبدالعزيز بحث شئون الحج فى مؤتمر دعا إليه الدول الإسلامية، وأعلن فيه طمأنة هذه الدول على سلامة الحرمين وتشجيع المسلمين على أداء الحج بأعداد وفيرة، وهو ما حدث منذ عام ١٩٣٧.

وفى عام ١٩٣٣ منح الملك عبدالعزيز أول امتياز للتنقيب عن البترول فى المملكة لشركة أمريكية هى «ستاندرد أويل كومبانى» ثم فى العام التالى منح امتياز آخر إلى شركة «تكساس أويل كومبانى» وقد أندمجت الشركتان تحت اسم «أرامكو» وهى الأحرف الأولى من (أرابيان أمريكان أويل كومبانى) وسرعان ما عثرت هذه الشركة على البترول فى الدمام والظهران، وبدأت إنتاجه وتسويقه فى عام ١٩٣٨، ولكن بسبب ظروف الحرب العالمية الأولى التى اندلعت فى عام ١٩٣٩، لم يبدأ تصدير هذا البترول السعودى إلا فى عام ١٩٤٤ فى حدود مليون طن، إلا أن هذا الإنتاج أخذ يتزايد حتى وصل فى بعض السنوات إلى ٧٠٠ مليون طن فى السنة، لتصبح السعودية أكبر سوق تصديرية للبترول، الذى أصبح من أهم السلع التى تعتمد عليها كل الدول فى تقدمها وبناء مشروعاتها المختلفة.

وفى خلال سنوات الحرب التزم الملك عبدالعزيز سياسة الحياد رغم ميله إلى الحلفاء.. وفى مارس ١٩٤٥ انضمت السعودية شكلا إلى الحلفاء، دون أن تعلن الحرب على ألمانيا محافظة بذلك على حيادها وحياد الأماكن المقدسة الإسلامية من هذا النزاع العالمى. وفى فبراير ١٩٤٥ اجتمع الملك عبدالعزيز مع الرئيس الأمريكى روزفلت على ظهر مركب حربى أمريكى، وقد اتفق الاثنان فى عديد من الموضوعات التى بحثاها فيما عدا موضوعا واحدا اختلف الملك عبدالعزيز مع روزفلت عليه، وهو الخاص بالهجرة اليهودية إلى فلسطين، فقد طلب روزفلت من الملك عبدالعزيز القبول بهجرة مائة ألف يهودى إلى فلسطين، فرفض الملك ذلك بشدة. بل أكثر من ذلك دعا الرئيس الأمريكى إلى عدم دعم اليهود بالمال والسلاح.

وفى نوفمبر ١٩٥٣ توفى الملك عبدالعزيز بعد حكم حافل بالأحداث استمر ٥١ عاما، أرسى خلالها دعائم المملكة ورسم الخطوط العريضة لسياستها الداخلية والخارجية على حد سواء.. وقد

حكم خلال هذه المدة حكما مطلقا لا يحد من صلاحياته الواسعة سوى التزامه بالشريعة الإسلامية واحترامه للأعراف والتحالفات القبلية والعشائرية.

وفى أواخر حياته فى العام ٥١ ـ ١٩٥٢ أصدر أول ميزانية عامة فى تاريخ المملكة، وأتبع ذلك بإنشاء أول بنك فى البلاد. وقبيل وفاته بشهور أمر بإنشاء مجلس للوزراء يكون مسئولا مباشرة أمامه، كما أدخل تحديثات مهمة على أساليب الحياة البدوية رغم المعارضة الشديدة التى كان يلقاها أحيانا من بعض غلاة رجال الدين، فأنشأ خطا حديديا بين الدمام والخليج العربى، وشجع إنشاء الطرق الداخلية والموانىء والمطارات، ولكن أبرز أعماله العمرانية والإنمائية كانت بلاشك توطين البدو فى مدن ومراكز وقرى، وإقناعهم بالاستقرار والكف عن الغزو والتحارب.. وبذلك أرسى قواعد بناء المجتمع السعودى، وزرع فكرة الانتماء الوطنى فى أبنائه بعد أن كان الانتماء القبلى هو الأساس.. وعندما مات فى عام ١٩٥٣ كان قد تمكن بجهوده المتواصلة من إقامة دولة كبيرة موحدة انطلقت من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين.. دولة تقف على قاعدة من التقدم والمدنية، أضاف إليها أبناؤه الذين حكموا المملكة: سعود بن عبدالعزيز (١٩٥٣ ـ ١٩٦٤) ثم فيصل بن عبدالعزيز (١٩٦٤ ـ ١٩٧٥) ثم خالد بن عبدالعزيز (١٩٧٥ ـ ١٩٨٢) وأخيرا الملك فهد الذى شهدت المملكة فى عهده ثورة إصلاحية ضخمة امتدت فى كل المجالات، وعلى رأسها توسيع الحرمين الشريفين بصورة لم تحدث فى التاريخ، الأمر الذى جعله يشتهر باسم خادم الحرمين الملك فهد بن عبدالعزيز.

■ زيارة إلى سنوات عبد العزيز بن سعود

- ١٨٨٠ : المولد فى يوم ٢ ديسمبر فى مدينة الرياض.
- ١٨٩١ : والده الإمام عبدالرحمن يغادر الرياض إلى الصحراء ليستقر به المقام فى الكويت.
- ١٩٠٢ : الخامس عشر من يناير الموافق الخامس من شهر شوال عام ١٣١٩ هـ يتمكن عبدالعزيز بعد مغامرة بطولية قاد فيها ٤٢ رجلا من فتح مدينة الرياض وتخليصها من قبضة أعدائه.
- ١٩٠٥ : يضم منطقة القصيم.
- ١٩١٤ : يضم منطقة الإحساء.
- ١٩٢٢ : ضم منطقة حائل، معقل عدوه ابن الرشيد.
- ١٩٢٤ : يدخل مكة المكرمة وتستسلم بعد ذلك مدينة جدة لتصبح كل منطقة الحجاز ومدنها بكاملها تحت حكمه.
- ١٩٣٢ : فى ٢٢ سبتمبر : يعلن تأسيس المملكة العربية السعودية.
- ١٩٣٣ : منح أول امتياز للتنقيب عن البترول فى المملكة.
- ١٩٤٤ : بدء تصدير البترول السعودى.
- ١٩٥٣ : نوفمبر : وفاته.

١٩ ألبرت أينشتاين



النسبية مع امرأة جميلة ..!

ألبرت أينشتاين هو واحد من أهم العقول البشرية بل يقال: إنه أعظم العقول البشرية التى شهدها القرن العشرون، وقد حاولوا بعد وفاته تشريح مخه لمعرفة سر عبقريته ولكنهم لم يوفقوا، وظلت عبقرية اينشتاين لغزا حتى اليوم. وقد اشتهر أينشتاين بنظريته فى النسبية، وهى فى الواقع نظريتان بهذا الأسم.. الأولى وضعها عام ١٩٠٥ وأطلق عليها اسم «النظرية الخاصة، وبعد ذلك قام بتوسيعها عام ١٩١٥ لتضم دراسته فى الجاذبية وسماها نظرية «النسبية العامة».

والنظرية باختصار تفترض أن الحركة التى نشاهدها كلها نسبية، على أساس أن هذه الحركة جزء من أجزاء المادة بالقياس إلى جزء آخر منها. وتذهب النظرية إلى أن سرعة الضوء ثابتة لا تتغير، وأنها مستقلة عن حركة مصدره، وأنها فى الوقت نفسه الحد الأقصى للسرعة، إذ من المستحيل أن تجد جسما من الأجسام يتسارع حتى يبلغها، والنظرية ليست سهلة وقد حاول البعض تسهيلها عن طريق فكرة الذى يجلس فى قطار يسير بسرعة ١٠٠ كيلو متر، فهو لا يشعر بسرعة القطار، ولكن فى المقابل فإن الذى يمر عليه القطار يشعر بسرعته، فما الذى جعل الراكب لا يشعر بالسرعة وجعل الواقف خارج القطار يشعر بها على الرغم من أن سرعة القطار بالنسبة للاثنين واحدة؟ إنها النسبية! أما أينشتاين نفسه فله تشبيه أسهل يقول فيه: إنك إذا أمضيت ساعتين مع سيدة جميلة ومحدثة تشعر فى نهاية الساعتين أنك لم تمض معها غير دقيقتين بينما إذا جلست على سطح صفيح ساخن دقيقتين تشعر أنك أمضيت يومين.. هذه هى النسبية!

ولد أينشتاين فى أولم بجنوب ألمانيا عام ١٨٧٩ لعائلة يهودية. وفى طفولته لم يبد أية بوادر على النبوغ المبكر، بل على العكس فقد استغرقت عملية تعليمه النطق وقتا طويلا، وكان يميل إلى

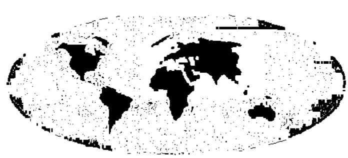
الهروب من المدرسة.. وقد وقع فى حياته حادث يشيرون إليه باعتبار أنه الذى فجر العبقرية الكامنة داخله، فقد أهداه أبوه بوصلة صغيرة لاحظ أن إبرتها تتجه دوما إلى الشمال من أى ناحية توضع فيها .. هذه البوصلة أثارت فضوله فى معرفة سبب هذه الظاهرة وسرها، وكانت الخطوة الأولى للألف ميل التى قطعها فى طريق الاكتشافات التى توصل بها إلى نظرية النسبية، التى غيرت مفاهيم علمية كثيرة، وساعدت عددا كبيرا آخر من العلماء على الاستفادة منها خاصة فى مجال الذرة وأبحاث الفضاء.

ونتيجة للصعوبات المالية التى واجهها والد أينشتاين فإنه هاجر إلى إيطاليا بينما ذهب هو إلى سويسرا حيث أتم دراسته فى معهد فنى، ثم عمل مدرسا فى مدرسة صناعية، لكنه لم يجد نفسه فى هذا العمل فتركه ليعمل فى مكتب تسجيل براءات الاختراع فى برن (بسويسرا) وقد وصل إلى مدير المكتب.

وفى سن الثلاثين دخل أينشتاين مجال التعليم الجامعى فعمل أستاذا للفيزياء فى جامعة زيوريخ، بالإضافة إلى استكمال أبحاثه التى كان قد بدأها فى سن الرابعة والعشرين.

نال أينشتاين جائزة نوبل فى الفيزياء عام ١٩٢١ لبحوثه عن ظاهرة الكهرو ـ ضوئية ثم رحل إلى أمريكا عام ١٩٢٣ فى أثناء حكم هتلر لألمانيا وتجنس بالجنسية الأمريكية سنة ١٩٤٠.

وعلى الرغم من أنه كان رجل علم فإنه كان من أشد دعاة الصهيونية، حتى لقد عرضت عليه رياسة دولة إسرائيل بعد وفاة زميله وايزمان ولكنه رفض قائلا: إنه أقدر على حل المشكلات العلمية منه على تدبير أمور الناس.. وفى ١٨ أبريل ١٩٥٤ أعلن عن وفاته بمستشفى برنستون فى الولايات المتحدة بسبب التهاب المرارة.





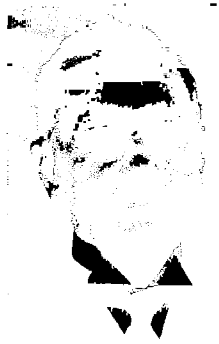
٢٠ الأخوان رايت

الطائرة بالمفهوم الحقيقى..

فى ١٩ أغسطس ١٨٧١ ولد أورفيل رايت المخترع الأمريكى الذى ينسب إليه وإلى أخيه ويلبر رايت فضل اختراع الطائرة التى استوحيا فكرتها من التأمل فى الطيور، ونجحا بالفعل فى تحقيق حلمهما فى التحليق بواسطة طائرة ذات محرك واحد، كانت أول اختراع من نوعه فى التاريخ يوم ١٨ ديسمبر عام ١٩٠٣.

وقبل الأخوين رايت كان حلم الطيران يداعب الكثيرين، وكان أشهرهم عباس بن فرناس الأندلسى الذى حاول فى القرن التاسع الطيران باستخدام أجنحة من الريش.

وكان هناك الفنان ليوناردو دافنشى (القرن الخامس عشر)، والإيطالى الكونت فرانسيسكو زامبيكارى (القرن ١٨) الذى قام بأول رحلة بالمنطاد فى انجلترا. لكن كان الأخوان رايت هما أول من طارا بطائرة أثقل من الهواء وذات محرك. كان ذلك فى ولاية كارولينا الشمالية حيث طار أورفيل رايت مرة واحدة وطار شقيقه ويلبر مرتين. وقد توفى ويلبر عام ١٩١٢ قبل أن يحدث التطور الذى حدث فى صناعة الطائرة، أما أورفيل فقد مات عن ٧٧ عاما عام ١٩٤٨، بعد أن أصبح الطيران الجوى من مقومات الحضارة الحديثة ومن أهم المخترعات التى أفادت البشرية.



٢١ ألكسندر فليمنج

البنسلين من العفن .. !

من أهم الاكتشافات الطبية اكتشاف البنسلين الذى توصل إليه العالم الاسكتلندى ألكسندر فليمنج يوم ٢٩ يونيو ١٩٢٨. وكان فليمنج قد لاحظ أن عفنا لوث مستنبتاته البكتيرية فأباد الجراثيم منها فسمى المادة التى تنتج من هذا العفن «البنسلين».

وفى الوقت الذى سمع العالم فيه عام ١٩٩٨ عن الفياجرا فى نفس يوم اكتشافها فى أمريكا، فإن البنسلين ـ على الرغم من الأهمية الكبيرة التى ظهرت له باعتباره من أهم الأدوية الفعالة فى مكافحة كثير من الجراثيم المسببة للأمراض ـ ظل مجهولا بعد اكتشافه لأكثر من عشر سنوات.. ولولا الحرب العالمية والإصابات التى حدثت فيها، ولجوء الأطباء إلى تجربة هذا الاختراع مضطرين، واكتشافهم الفائدة الكبيرة من وراء استخدامه لظل أمره مجهولا ربما لسنوات أخرى.. وفى أول الأمر كان يتم تحضير البنسلين بزرع الفطر فى قوارير زجاجية بها السائل المغذى، فيتجمع البنسلين على السطح. ولكن ظهر أن هذه الطريقة بطيئة جدا لا تواجه السرعة المطلوبة لإنتاج الكميات الكبيرة اللازمة منه، لذلك استخدمت سلالات من الفطر أكثر إنتاجا لإفراز هذا المضاد كما أستعملت طريقة التخمير فى تحضيره.

وفى السنوات الأولى التى تلت بدء استعمال البنسلين كدواء كان نادرا وغاليا جدا، أما اليوم فقد أصبح يوجد بكميات تكفى كل من يحتاج إليه.

وقد نال فليمنج جائزة نوبل للفسيولوجيا والطب عام ١٩٤٥، وبعد عشر سنوات، فى عام ١٩٥٥، توفى عن ٧٤ عاما.



٢٢ د. جوناس سولك

أنقذ أطفالنا من الشلل

بفضل جوناس سولك نجا ملايين الأطفال فى أنحاء العالم من الإصابة بمرض شلل الأطفال، ومن المستقبل الشقى الذى كان يمكن أن يلقاه هؤلاء الأطفال، إما من خلال العكاكيز المعدنية التى يتساندون عليها، أو من خلال الرئات الصناعية التى يحتاجونها للعيش عليها إذا كان لدى أهاليهم القدرة المادية على شراء هذه الرئات والإنفاق عليها.

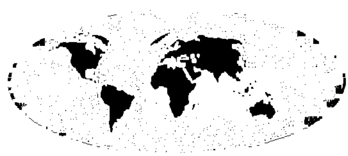
توصل جوناس سولك، الطبيب الأمريكى والباحث البكتيريولوجى إلى مصله من خلال أبحاثه الطويلة التى بدأها عام ١٩٤٧ فى كلية الطب بجامعة بيتر سبورج على المناعة ضد شلل الأطفال، وعمل مع علماء من جامعات أخرى للتوصل إلى فيروس هذا المرض، وفى عام ١٩٥٢ حصر سولك نتائجه فى ثلاثة أنواع من الفيروسات توصل إليها وجربها على القردة.. ثم فى أعقاب نجاح بعضها انتقل إلى تجربتها على بعض مرضاه.. وأعطت التجربة نتائج مشجعة نشر نتائجها فى مجلة متخصصة هى «مجلة الجمعية الطبية الأمريكية». وواصل سولك تجاربه إلى أن أعلن أحد مساعديه فى مؤتمر صحفى عقد فى جامعة ميتشجان يوم ١٢ أبريل ١٩٥٥، نتائج تجربة أجريت على نطاق واسع بلقاح جديد ضد شلل الأطفال، تم تطعيم مليون طفل أمريكى به فى العام السابق وأعطى عدد آخر من الأطفال أدوية وأمصال أخرى فكانت النتيجة أن نجح لقاح سولك بنسبة ٨٠ و٩٠ فى المائة من الحالات إيذانا ببداية عصر جديد يمكن فيه للإنسان القضاء على هذا الكابوس اللعين الذى حرم ملايين الأطفال من الحياة وحرم آباءهم وأمهاتهم من السعادة.

وسولك من مواليد نيويورك فى ٢٨ أكتوبر ١٩١٤، وهو من أصل بولندى، وقد حصل على شهادة الطب من جامعتها فى سنة ١٩٣٩، وكان من حظه أن بدأ حياته العملية مع طبيب آخر اسمه توماس فرانسيس، كان يقوم بدراسات عن اكتساب المناعة بواسطة الفيروسات الميتة. وفى

سنة ١٩٤٧ انتقل سولك إلى جامعة بتسبورج استاذا مشاركا للباكتيريولجى، ورئيسا لمختبر الأبحاث الفيروسية، حيث واصل أبحاثه التى انتهت بالنجاح. وفيما بعد أصبح سولك رئيسا لمعهد الدراسات البيولوجية فى سان دييجو، بولاية كاليفورنيا، وهو المعهد الذى أطلق اسمه عليه.

ولم يكن الطريق سهلا أمام سولك، على الرغم من النجاح الكبير الذى حققه فى مجال خدمة الإنسانية، فقد كان له خصومه وحساده الذين حاربوه واتهموه بالدعاية لنفسه، بالرغم من أنه كان خجولا، ولكنه كان أنيق الملبس ويختار كلماته بدقة شديدة. ونتيجة لذلك لم يمنح سولك جائزة نوبل التى كان بلا شك يستحقها، إلا أن المكافآت انهالت عليه، ونال وسام اللجيون دونير (جوقة الشرف) الفرنسى، ووسام الكونجرس وأوسمة أمريكية أخرى.

ومنذ استخدام لقاح سولك الذى حمل اسمه ضد شلل الأطفال، انخفضت بصورة كبيرة حالات الإصابة بهذا المرض.. وقيل: إن سولك كرس جهده فى سنواته الأخيرة للتوصل إلى لقاح ضد الإيدز، ولكنه توفى فى ٢٣ يونيو ١٩٩٥ عن ٨٠ سنة قبل أن يحقق أى نجاح فى مجال الإيدز.



٢٣ د. أحمد زويل

أصغر وحدة زمنية عرفها البشر..!

منذ آلاف السنين توصل المصرى القديم إلى حساب الزمن.. كان يلاحظ أن النيل يفيض فى مواعيد يريد أن يعرفها ويحسبها فراح يتطلع إلى السماء واكتشف نجمة اشتهرت باسم نجمة اليمانى، لاحظ ظهورها على أيام متباعدة أحصاها، فوجد أنها تبلغ ٣٦٦ يوما.. ومع المراقبة المستمرة عرف المصرى القديم السنة، وكانت هذه أول مرة يتم فيها قياس الزمن بمقياس مختلف عن الليل والنهار..

وإذا كان المصرى القديم هو الذى اكتشف حساب الزمن منذ آلاف السنين، وعرف أكبر وحدة زمنية وهى السنة، فإن المصرى الحديث هو الذى اكتشف أيضا أصغر وحدة قياس عرفها الإنسان للزمن حتى اليوم، مقدارها واحد على مليون من الثانية.. والذى اكتشف هذه الوحدة هو العالم المصرى الدكتور أحمد زويل.

والدكتور زويل من مواليد ٢٦ فبراير عام ١٩٤٦ بدمنهور محافظة البحيرة، وفى عام ١٩٦٣ (فى سن ١٧ سنة) التحق بكلية علوم الاسكندرية، وبعد ٤ سنوات حصل على بكالوريوس العلوم بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف.

يحكى أحمد زويل عن رحلته فيقول إنه بعد ثمانية أشهر فقط تمكن من إنهاء دراسة الماجستير. وفى ذلك الوقت كانت كل البعثات العلمية التى تخرج من مصر فى ذلك الوقت تتجه إلى الاتحاد السوفيتى بحكم العلاقة التى كانت بين البلدين. ويضيف زويل إن سفره إلى أمريكا فى ذلك الوقت كان معجزة سببها مشاعر الحب وعلاقات الصداقة الصافية التى كانت تربط بين أفراد الدفعة المتخرجة فى ذلك الوقت. ذلك أن النظام الذى كان متبعا كان يقضى بأن حصول أى خريج على منحة من أية جامعة أمريكية يعتبر منحة مقدمة لجميع أفراد الدفعة يتعين أن يتنازل

الجميع عنها حتى تعطى لمن وصلته، أما إذا حدث ورفضها واحد فإن المنحة تتوقف ولا يسمح بسفر أى فرد.. ولأن القدر كان يخفى عن الدكتور زويل وكل الدنيا ما وصل إليه. وأيضا بسبب علاقات المشاعر الحميمة بين الزملاء، فقد أعلنوا جميعا تنازلهم عن المنحة التى وصلت إلى أحمد زويل من جامعة بنسلفانيا.

يقول الدكتور زويل: ذهبت أول ما ذهبت إلى جامعة بنسلفانيا دون أن أعرف أهمية هذه الجامعة، أو حتى أعرف معنى كلمة ليزر.. وفى خلال ٣ أشهر فقط وفقنى الله فى إنهاء أول بحث نشر فى مجلة علمية معروفة فى أمريكا ولمدة سنتين، بعد ذلك عملت فى جامعة بيركلى، وكان مفروضا أن أعود بعد ذلك إلى مصر، ولكن أستاذى فى جامعة بيركلى نصحنى بأن أتقدم إلى الجامعات الأخرى للحصول على مزيد من المعرفة بهذه الجامعات، وأيضا القيام بجولة أتعرف فيها على معالم أمريكا قبل أن أعود إلى مصر وأبدأ عملى الجامعى فيها. ولم أكن أعرف إلى أى جامعة أذهب.. لقد وجدتها بالفعل نصيحة مفيدة من أستاذى سوف تكسبنى مزيدا من العلم، ولعدم معرفتى إلى أى جامعة أذهب أعددت صورة من أوراقى العلمية أرسلتها إلى عشر جامعات، وكان الغريب أننى تلقيت موافقة تسع جامعات منها .. وجعلنى ذلك أشعر بالثقة وبأننى على ما يبدو قد حققت نتائج طيبة فى بحوثى، فاخترت جامعة كالتاك باعتبارها جامعة شهيرة علميا وتقليدية كلاسيكية. ولم أكن أعرف أننى كنت أول عربى يدخل هذه الجامعة.

وفى جامعة كالتاك أعطوه فرصة ست سنوات إما لتأكيد ذاته والارتباط معه بعد ذلك بعقد طويل المدة، أو انهاء عمله باعتبار أنه وصل فى مفهومهم إلى المحطة الأخيرة.. ولكن، وبسبب نتائج بحوثه فإنه بدلا من أن يمضى مدة اختبار ٦ سنوات وجدهم يتعاقدون معه بعد سنتين اثنتين ويرقونه إلى درجة أستاذ ثم بعد ذلك يرقونه إلى أستاذ كرسى، وكان الواضح أنهم عرفوا فى جامعة كالتاك أنه كان فى الطريق إلى تحقيق كشف مهم، وهو ما حدث بالفعل عندما توصل عن طريق استخدام الليزر إلى أصغر وحدة زمنية وهى التى أطلق عليها اسم «فيمتو ثانية» ومقدارها واحد على بليون من الثانية.

هذا الكشف أهميته فى التوصل إلى كاميرا تصور بهذه السرعة الخيالية، وأخطر ما سوف تصور هذه الكاميرا هو الحركة التى تجرى داخل خلايا الجسم، وهذه الخلايا تتحول بسرعة واحد على مليون من البليون من الثانية، والمعروف أن أى كاميرا لا تسطيع تصوير حركة أى جسم آخر إلا إذا كانت سرعة عدسة الكاميرا أكبر من سرعة حركة الجسم المطلوب تصويره.. وفائدة تصوير حركة خلايا الجسم أنها ستكشف أسباب أى مرض يصيب هذه الخلايا، بما يفتح مجالات جديدة أمام الطب لعلاج كثير من الأمراض.. وهو ما يعنى أن أى اختراع جديد هو فى الواقع بداية تطور أكبر وطريق لجهود باحثين آخرين يأتون ويبحثون ويضيفون بما يحقق تقدم البشرية.

فهى سلسلة متصلة من البحوث بدأها أينشتاين فى هذا القرن، وعبرها آلاف العلماء وستستمر مسيرة هؤلاء العباقرة طالما استمر هناك علم.



٢٤ شارلى شابلن

أحسن ممثلى القرن

كتب عنه أحمد بهاء الدين يقول: إن الإنسان يمكن أن يتصور القرن العشرين بدون أشياء كثيرة.. بدون أكثر الرؤساء والوزراء فى انجلترا حيث ولد، وفى أمريكا حيث عاش وعمل، ولكن لا يمكن تصور القرن العشرين بدون شارلى شابلن.. أشهر ممثل عرفه هذا القرن!

ولقد ولد شارلى فى ١٦ أبريل ١٨٨٩، فى نفس السنة التى ولد فيها هتلر ونهرو وعباس محمود العقاد وطه حسين.. كانت الأسرة فقيرة.. فالأب سكير، وقد مات مبكرا، والأم مغنية مغمورة فقدت صوتها ولم تعد قادرة على الغناء، والطفلان شارلى وأخوه غير قادرين على التعليم.. ولهذا كان ضروريا أن يعمل حتى يستطيع أن يوفر لنفسه لقمة العيش.. وقد بدأ العمل قبل أن يكمل سن السادسة، فبدأ أولا صبى حلاق فى الوقت الذى عمل فيه أخوه فى إحدى الفرق الفنية، وقد جذبت شارلى هذه الفرقة فترك العمل فى الحلاقة، واستهواه التجول مع الفرقة من لندن إلى باريس إلى برلين إلى بيونس أيرس إلى نيويورك، وكان شارلى قد أصبح فى سن الحادية والعشرين، وقد استهوته نيويورك بأضوائها وسهراتها فقرر الإقامة فيها، وكان ذلك أمرا سهلا فى ذلك الوقت، بسبب تسهيلات الهجرة التى كانت تمنحها أمريكا لمن يريد الإقامة فيها..

وكان الأخوان لويس وأوجيست ليميير قد نجحا منذ فبراير ١٨٩٥ فى اختراع آلة تصوير، وعرض الصور التى عرفت باسم «سينما توجراف»، ونجحا فى استخدامها فى تصوير أول فيلم.. وفى أمريكا بدأت الشركات تتسابق لاستخدام هذه الكاميرا، وكان من حظ شارلى شابلن أن التقطته شركة جديدة لصناعة الأفلام لقاء أجر لم يكن يحلم به، وهو ١٥٠ دولارا فى الأسبوع.. وفى ذلك الوقت كان الممثل هو الذى يحدد الملابس التى يرتديها، فبدأ شارلى أول أفلامه الصامتة بارتداء سترة طويلة وقبعة ونظارة ذات عين واحدة «مونوكل».. ولنحو سنة عمل شارلى عدة أفلام كانت كلها مكررة ومتشابهة يتقاذف فيها الممثلون قطع الجاتوه ويقعون على الأرض بسبب وبدون مناسبة!

وفى عام ١٩١٤ انتقل شارلى للعمل مع شركة جديدة هى شركة «اسناى»، وبدأ مرحلة جديدة بلور خلالها الشخصية التى اشتهر بها على مر السنين، وهى شخصية «شارلو» الذى ذاع صيته بالحذاء الطويل والقبعة الضيقة على رأسه، والبنطلون الواسع والجاكت المحزقة المهلهلة، والعصا التى يحركها فى كبرياء رغم مظاهر الفقر والصعلكة التى كان يبدو عليها!.

وفى عام ١٩١٤ كان من بين أفلامه «شارلو السعيد» و«شارلو الجرسون» و«شارلو المولع بالحب» و«شارلو مازال مريضا» و«شارلو الملاكم».. وتوالت أفلامه الصامتة التى أضحكت الملايين، وغيرت حياة الناس وجعلتهم أسعد كثيرا وحببتهم فى الفرجة على السينما.. وأصبح شارلى شابلن ملك الأفلام الصامتة التى أنتج منها نحو ٨٠ فيلما، كان أشهرها فيلم «العصر الحديث» عام ١٩٣٦، الذى سخر فيه من ابتكار الإنسان للآلة فقد حولته هذه الآلة إلى آلة! وقبل ذلك أنتج فيلم «أضواء المدينة» وكان قد تحول إلى إخراج جميع أفلامه وكتابة قصصها.. وصار شارلى برموزه التى ابتكرها ومشيته السريعة علامة عالمية لإثارة ضحك الملايين من الصغار والكبار.

ورغم معرفة السينما بالأفلام الناطقة اعتبارا من عام ١٩٢٧، فقد ظل يقدم أفلامه الصامتة التى جذبت المتفرجين بصورة تفوقت على الأفلام الناطقة.. وفى عام ١٩٤٠ أنتج ومثل أول أفلامه الناطقة.. «الديكتاتور» ـ الذى سخر فيه من شخصية هتلر، ثم فى عام ١٩٤٧ ـ وكان قد توقف بسبب ظروف الحرب ـ قدم فيلمه الناطق الثانى «السير فيردو» إلا أنه لم ينجح.. وفى عام ١٩٥٦ قدم فيلما ناجحا هو «أضواء المسرح»، وكان آخر أفلامه فيلم «كونتيسة هونج كونج» عام ١٩٧٦.

ورغم سجله الحافل والإبداع الذى قدمه فى هوليوود فى أمريكا، فقد اتهمته أمريكا بالشيوعية بسبب سخرياته الكثيرة من الأغنياء، فغادرها غاضبا إلى أوروبا مقسما على ألا يعود إليها. وبالفعل استقر به المقام فى سويسرا، حيث مات بها فى ٢٥ ديسمبر ١٩٧٧ عن ٨٨ عاما، أضحك فيها الملايين وحصل على جائزة السلام وجائزة الأوسكار وعدد كبير من الجوائز.. وفى حياته تزوج ٤ مرات آخرها «أونا» ابنة الكاتب المسرحى العالمى يوجين أونيل، وكانت فى نصف عمره.. وقد ترك لها ثروة قدرها ٢٥ مليون دولار.. فقد كان يحب المال.. يحب كسبه ويحب ادخاره وحرم نفسه من حياة الرفاهية من أجل الاحتفاظ بما كسب، ولعله كان فى ذلك متأثرا بسنوات الفقر الشديد التى عاشها فى طفولته.

ومن الغريب أن تنتهى حياته بكوميديا! فبعد ٦٢ يوما من دفن جثمانه فى سويسرا نجح مجهولان فى سرقته تاركين القبر محفورا وخاليا.. وتأكد أن السبب هو سعى اللصين إلى الحصول على فدية من أرملته، ولكن البوليس السويسرى نجح عن طريق تسجيل المكالمة فى الوصول إليهما والقبض عليهما وقد حكم على الأول بالسجن ٤ سنوات، والثانى ١٨ شهرا.. وعاد جثمان شارلى إلى قبره.. ورغم موته فقد ظلت أعماله شاهدا على عبقرية فيلسوف لم يتعلم فى المدارس بسبب فقره، ولكن علمته الحياة وأضحك منها وعليها الملايين.



٢٥ والت ديزنى

أضحك كل أطفال العالم

ليس هناك طفل شاهد السينما ولم يشاهد «كارتون» والت ديزنى، وضحك معه وعليه وتأثر به. فلم تكن هذه الكارتونات مجرد رسوم متتابعة بلا معنى، وإنما كانت تعكس حكاية مسلية، خاصة بين القط «توم» والفأر «جيرى»، وكيف يتغلب الفأر الصغير بذكائه ودهائه على القط الكبير.

ووالت ديزنى ـ واسمه بالكامل والتر إلياس ديزنى ـ من مواليد ٥ ديسمبر ١٩٠١ بشيكاغو بالولايات المتحدة. ولم يكن ينتمى إلى أسرة فنية، فقد كان أبوه يعمل نجارا وفى تجارة الأثاث، وخلال عطلة الدراسة الصيفية وفى سن التاسعة كان يعمل فى بيع المجلات والصحف فى القطارات، وقد استمر يمارس هذا العمل ست سنوات فى الوقت الذى ظهرت فيه موهبته الفنية فى الرسم، فأخذ فى رسم بعض اللوحات ولكنها لم تكن تلقى أى قبول.. وفى أكثر من مرة قدم والت ديزنى رسومه لبعض المسئولين فى دور الصحف بقصد نشرها والحصول على مكافأة فكان المسئول يلقى هذه الرسوم من النافذة.. ولكن ديزنى لم يعرف اليأس، وعلى العكس ازداد إصرارا على هوايته، ولكن بعد أن قرر تنميتها علميا بالدراسة فى إحدى مدارس الفنون الجميلة المسائية، حتى يستطيع الجمع بين الدراسة والعمل صباحا فى بيع الصحف.

ورغم أن والت ديزنى أصبح بعد ذلك أشهر رسام كارتون فوق الكرة الأرضية، وكسب الملايين الكثيرة إلا أن طريقه للنجاح كان بالغ الصعوبة ومفروشا بالأحجار والمسامير ومشقة عديد من الأعمال التى مارسها.. فقد افتتح استوديو خاصا للرسم لكنه لم يجد زبونا يتعامل معه.. وترك الاستوديو الخاص للعمل مع إحدى الشركات يرسم لها مناظر المسرحيات وديكوراتها نظير ٣٥ دولارا أسبوعيا، ثم عاد وكون شركة خاصة لتصوير الرسوم الكاريكاتيرية التى كان يقوم برسمها

وطبع أفلامها، ولكنه لم يوفق، فترك ولايته وسافر إلى هوليوود ـ مدينة صناعة السينما ـ وكل ما يملكه بذلة قديمة كان يرتديها منذ عامين، وقد استهلكت من كثرة ارتدائه لها، وبعض أدوات الرسم وأربعون دولارا فقط. وكان من حظه أن صحبه إلى هوليوود أخوه الذى كان لا يجيد الرسم ولكن يجيد ابتكار واختراع الحكايات.

وكان أول ما قام به أن اشترى ديزنى كاميرا قديمة، واشترك مع أخيه فى تأسيس مكتب صغير لإنتاج الأفلام الكارتونية.. ولم يكن هذا النوع من الأفلام الكارتونية يلقى الإقبال فقد كان معظم المخرجين، إن لم يكونوا كلهم، يخشون الدخول فى مغامرة إنتاج مثل هذه الأفلام على اعتبار أنه عمل وهمى يفتقد الحيوية والدراما التى تجتذب متفرجى السينما.

وفى سنة ١٩٢٨ ابتدع والت ديزنى شخصية «ميكى ماوس» التى أصبحت من أشهر الشخصيات السينمائية، لكن كان عليه أن يعانى نحو عامين أو ثلاثة قبل أن تشتهر هذه الشخصية وتصبح قطعة الشيكولاتة الحلوة التى تجذب ملايين الأطفال!

لقد ودع والت سنوات الفقر وبدأ سنوات المكسب والعمل الطويل والملايين.. ومن الكارتونات الصغيرة التى كان أخوه يصنع حكاياتها ويقوم هو برسمها، انتقل إلى إنتاج الأفلام الطويلة، وكان أول أفلامه «الأميرة والأقزام السبعة» سنة ١٩٣٧..

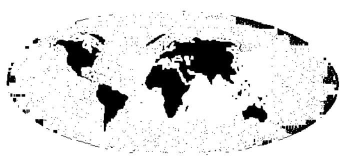
ولم يكن متصورا أن يجلس المتفرج نحو ساعة ونصف الساعة يتفرج على فيلم كامل من الرسوم، ولكن الفيلم حقق نجاحا كبيرا ونال عنه جائزة الأوسكار.. وفيما بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية دخل والت ديزنى مرحلة جديدة من الشهرة امتدت من أمريكا إلى أوروبا إلى كل أنحاء العالم..

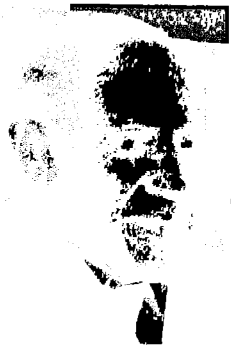
لقد حرك والت ديزنى خيال ملايين الأطفال وأثار ابتساماتهم وضحكاتهم من خلال شخصياته الخفيفة المرحة. ولكن الكبار أيضا جذبتهم هذه الشخصيات مما جعله واحدا من القلائل على مستوى العالم الذين كرسوا حياتهم لإسعاد الناس.

وفى سنة ١٩٦٤ انتقل والت ديزنى إلى مرحلة جديدة، وهى التى أنشأ فيها مدينة الملاهى «ديزنى لاند» فى هوليوود على مساحة ١٦٠ فدانا، وأصبحت أشهر الملاهى فى العالم، يقصدها الزوار من كل أنحاء الدنيا صغارا وكبارا.. وقد أقيمت على غرارها مدينة أخرى فى ولاية فلوريدا، ثم بعد ذلك فى باريس. ورغم الابتسامات والضحكات التى ملأ بها حياة الملايين فقد كان والت ديزنى قليل الكلام كثير الانفراد بنفسه، لا يصطحب أحدا سوى الألوان والورق، ويمضى الساعات فى الرسم دون أن يشعر بالوقت أو يشعر بغيابه أحد، رغم أنه كان قد تزوج فى سنوات

فقره من «ليليان بوند» التى أنجب منها ابنتين، واشترك بالتعاون معها ومع أخيه فى تأسيس الاستوديو الذى تمكنوا فيه من إنتاج الأفلام الكاريكاتيرية التى عرفت طريق النجاح..

وفى سنة ١٩٦٥ هاجم السرطان والت ديزنى وجاءت النهاية فى ديسمبر من العام التالى ١٩٦٦.. ورحل والت ديزنى عن ثروة ١١٦ مليون دولار بعد أن انتج أكثر من ٦٠٠ فيلم نال عنها ٩٠٠ جائزة فنية، من بينها جائزة الأوسكار عن أفلام الصور المتحركة، وقد حصل عليها ٣١ مرة.. كما أهدته الجامعات فى مختلف أنحاء العالم ٣٠ درجة جامعية شرفية، وهو الذى لم يكمل تعليمه بسبب لقمة العيش التى كان عليه أن يتكسبها بنفسه، وهواية الرسم التى كافح من أجل الوصول فيها إلى ما وصل إليه.





٢٦ بابلو بيكاسو

أول مليونير من الرسم

كل الفنانين عاشوا وماتوا فقراء، وسعيد الحظ منهم هو الذى عاش حياة مستورة بينما صنع ورثتهم والذين اشتروا وجمعوا لوحاتهم الملايين بعد سنوات من وفاتهم، إلا بابلو بيكاسو، كان أحد الفنانين القلائل الذين كسبوا من فنهم، وعندما مات، مات عن ثروة تقدر بـ ٨٠٠ مليون دولار..!

إنه فنان القرن العشرين.. المجنون.. الغريب.. الذى لم يترك مجالا إلا وأبدع فيه.. ولم تقع فى يده مساحة خالية إلا وملأها بفنه وإبداعه..

حتى اسمه كان يدل على جنونه، ولو وضع توقيعه على إحدى لوحاته بكل اسمه لاحتاج الأمر أن يغطى الاسم كل اللوحة فقد كان اسمه: «بابلو ديجو جوزيه فرنشسكو دوبولو جوان ينبو ميوسينو مارياد ولوس ربميديوس كريسين كرسبيا نو سانتيمسيما ترينداد رويزاى بيكاسو».. لكنه رحمة بالآخرين كان يكتفى بتوقيع «بابلو بيكاسو»!

وكان الغريب أنه رغم غموض الكثير من لوحاته السريالية والتكعيبية إلا أن توقيعه كان واضحا لا غموض فيه!

وبيكاسو من مواليد ٢٥ أكتوبر ١٨٨١ فى ملقا بإسبانيا، وإلى والده يرجع فضل تعلقه بهواية الرسم، فقد كان الأب مدرسا مغمورا للرسم، وعندما وجد ابنه يبكى فى سن الخامسة وضع فى يديه فرشة رسم وتركه يلعب بالألوان، ولم يخيب الطفل الصغير أمل والده الذى توقع فيه فنانا كبيرا، فأخذ ينمى معلوماته وموهبته وأدخله مدرسة الفنون الجميلة ببرشلونة.. وفى سن الرابعة عشرة بدأ بيكاسو رسم أول أعماله، ولكن حياته تغيرت عندما سافر عام ١٩٠٠، وهو فى سن

التاسعة عشرة، إلى باريس حيث أقام أول معرض له، والذى حقق نجاحا كبيرا.. وكان الغريب نجاحه السريع الذى حققته لوحاته، والتى راح يرسمها لمدة أربع سنوات مستخدما لونا واحدا هو اللون الأزرق، وقد دامت هذه المرحلة الزرقاء من عام ١٩٠٠ إلى ١٩٠٤. وانتقل بيكاسو بعد ذلك إلى مراحل أخرى منها المرحلة الوردية، ثم المرحلة التكعيبية التى كان أحد مبتدعيها، واعتبرت ثورة فى أساليب فن التصوير.

ويعود بيكاسو إلى الكلاسيكية ثم يغادرها مرة أخرى إلى السريالية، ويترك اللوحات إلى التماثيل إلى الرسم على الخزف الصينى، ولكنه فى جميع هذه المراحل يظل متألقا ومبدعا ومشهورا.

كان كثير الإنتاج، إذا بدأ الرسم نسى كل شىء واندمج فيه بجنون حتى إنه يمضى نحو ٢٠ ساعة فيما يرسمه.. وعن فنه يقول بيكاسو: أرسم مثلما يكتب الإنسان سيرته الذاتية.. إن لوحاتى هى صفحات من يومياتى.. إننى أشبه نهرا فائضا تحمل مياهه النفايات.. إن حركة تفكيرى تعنينى أكثر مما يعنينى تفكيرى ذاته.. ولكن على المستوى الإنسانى والشخصى فلقد عاش بيكاسوا حياة بوهيمية مليئة بالنساء وبخيانة الأصدقاء، وبالتنكر للمبادىء والمثل التقليدية السائدة، لكن التزامه الأول والأخير كان لفنه.. كان يمارس كل شىء بجنون.. فقد كان شرها للنساء بشكل غير عادى، فى الوقت الذى كان مولعا فيه بالرسم إلى حد الجنون.. وقد جعله هذا يتعلق بالحياة خصوصا أنه لم يعرف الفقر ولا المعاناة المادية، فقد أصبحت لوحاته منذ عام ١٩٠٩ تباع وتشترى بمبالغ هائلة، ويقتنيها كبار عشاق الفنون وتجارها.. وفى خوفه من الموت كان يخشى زيارة أصدقائه الموشكين على الموت، كما أنه رفض كتابة وصيته حتى بعد أن بلغ التسعين من عمره.. كما كان يؤمن بالخرافات.. الأمر الذى جعله يحتفظ بقصاصات أظافره، وإطلاق البخور فى أنحاء منزله بهدف إبعاد العين الشريرة التى قد تدمر قدراته الفنية. وكان يتمسك بملابسه القديمة حتى لا تصل إلى أحد غيره يلبسها ويفقده بعضا من قوته الروحية! لكنه ـ مثل كل البشر ـ مات فى ٨ أبريل ١٩٧٣ عن سن ٩٢ سنة، ورغم مرور السنوات فمازال يشغل حياة الناس وتعليقاتهم بسبب إنتاجه الغزير، وعبقريته التى أجمع عليها النقاد وجعلتهم يسمونه فنان «القرن العشرين».



٢٧ بيليه

العبقرية والأخلاق فى لاعب كرة

على الرغم من اعتزاله فى أكتوبر عام ١٩٧٧ فإن اسمه مازال حيا مدويا فى جميع الملا
بالإضافة إلى أنه لم يختف عن الأنظار بعد اعتزاله، ولم يترهل وتبدو عليه البدانة كما هى ع
معظم المعتزلين، بل إنه حافظ على رشاقته وقوامه وأصبح وزيرا للرياضة فى بلده البرازيل،
جانب قيام اليونسكو بتعيينه سفيرا لها فى المهام الخاصة.

ولقد اختلف النقاد على مكانة عدد كبير من اللاعبين لكنهم اتفقوا على مكانة بيليه، فقالت
مجلة «الايكيب» الفرنسية: إنه بطل القرن العشرين، واختارته مجلة «الفرانس فوتبول» كأع
لاعب فى العالم.

أما الاتحاد الدولى لكرة القدم فقد اختاره عام ١٩٨٤ كأعظم لاعب فى العالم.

هل كان أحد يتوقع ذلك؟ هذا الفتى الذى ولد عام ١٩٤٠ فى أسرة فقيرة تسكن أحد أ
مدينة صغيرة من مدن البرازيل، وكتب عليه بعد ذلك أن يبدأ يومه بإمساك صندوق تلميع الأح
بحثا عن زبون «يلمع» له حذاءه، ثم بعد الظهر يضع الصندوق جانبا وينضم إلى أولاد الحارة
لعب الكرة الشراب.. ومن بعيد وقف أبوه يتفرج عليه وأحس أن أبنه فى قدميه مغناطيس غ
عادى للكرة.. وغامر الأب وقصد أحد العاملين فى أحد الأندية طالبا إليه أن يرى أبنه.. وقبل
العامل، وفور مشاهدته بيليه وإجراء بعض الاختبارات عليه ضمه إلى نادى «بورو» أكبر ناد
المدينة التى يعيش فيها، مقابل دولارين فى الأسبوع.. لم يكن قد أصبح اسمه بيليه حتى
الوقت فى عام ١٩٥١، وإنما كان اسمه الذى ولد به إديسون.. وبعد أربع سنوات كان إديسون
كشف عن مهارته وأصبح واضحا أن هذا النادى الذى يلعب فيه، على الرغم من أنه أكبر أ

مدينة بورو، فإنه أصغر كثيرا من قدرات هذا الفتى الموهوب، فذهب به الموظف الذى تولاه منذ البداية وقدمه إلى نادى «سانتوس» الشهير على بعد ٥٠٠ كيلو متر من بلده..

وفى هذا النادى بدأت انطلاقته وشهرته وأطلق عليه البرازيليون الاسم الجديد «بيليه»..

ومثل كل اللاعبين فى بداياتهم كذلك فعل بيليه عندما جلس على دكة الاحتياطى ينتظر المصادفة التى تجيئة ليمسك بها.. ومن حسن حظه أن هذه المصادفة لم تتأخر كثيرا..

ففى يوم ٨ سبتمبر ١٩٥٦ أصيب الجناح الأيمن لفريق ناديه فطلب إليه المدرب أن يستعد وينزل مكانه.. وقبل أن يتساءل المتفرجون من هذا الفتى الأسمر الغريب فوجئوا به ينطلق بالكرة إلى منطقة جزاء الخصم، ويراوغ المدافع بمهارة ويسجل هدفا جميلا من تسديدة قوية.. وكان هذا هو الهدف الأول له فى رحلة الأهداف العديدة التى سجلها والتى بلغت ١٢٨٢ هدفا.

وفى هذه السن الصغيرة لفت بيليه أنظار المسئولين عن المنتخب البرازيلى، فضموه إلى هذا المنتخب وبدأ يلعب، أولا، فى بطولة أمريكا الجنوبية عام ١٩٥٧ واستطاع فى مباراته أمام الأرجنتين أن يسجل هدفين ليضمن مكانه فى فريق بلاده إلى كأس العالم التى اقيمت بطولتها فى السويد عام ١٩٥٨.

وكانت هذه أول مرة يظهر فيها بيليه عالميا لتتجاوز شهرته حدود بلاده بسبب الأهداف التى سجلها أمام منتخب ويلز (هدف) وأمام منتخب فرنسا فى الدور قبل النهائى (ثلاثة أهداف)، وأمام السويد فى المباراة النهائية سجل فيها هدفين أحدهما الهدف الذى مازال يعتبر أجمل الأهداف الكروية.. فبعد ١٠ دقائق من الشوط الثانى - وكانت البرازيل متقدمة ٢/١ - رفع أحد زملائه الكرة إليه، الذى كان موجودا فى منطقة الجزاء محاصرا بثلاثة مدافعين سويديين، ولكن بيليه يقف وظهره إلى المرمى ويستقبل الكرة على صدره وينزلها على ساقه اليمنى وظهره لايزال للمرمى ثم يرفع الكرة بقدمه اليمنى من فوق رأسه ورأس أحد المدافعين السويديين، ويستدير نحو المرمى بزاوية ١٨٠ درجة ويستقبل الكرة بيمناه قبل أن تقع على الأرض ويسددها قوية بيمناه فى الزاوية اليمنى لحارس مرمى السويد، الذى فوجىء بالكرة داخل الجول. وتوجت البرازيل بطلا للعالم وحملت كأس «جول ريميه» للمرة الأولى..

وفى عام ١٩٦٢ دافعت البرازيل عن لقبها بنجاح فى شيلى، لكن بيليه لم يلعب سوى مباراة واحدة كاملة بسبب إصابته فى المباراة الثانية ضد السويد.. ويبدو أن السويديين تعقبوه وتذكروا أنه كان وراء ضياع الكأس منهم فى بلادهم ووسط جمهورهم.. وعلى الرغم من ذلك تمكنت البرازيل من الفوز بالبطولة..

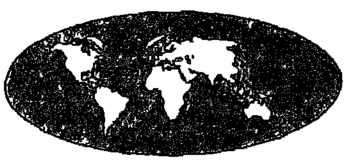
وشارك بيليه للمرة الثالثة فى كأس العالم ١٩٦٦ فى انجلترا، ولعب المباراة الأولى ضد بلغاريا وسجل هدفا لكنه أصيب بسبب الخشونة المتعمدة من اللاعبين البلغار.

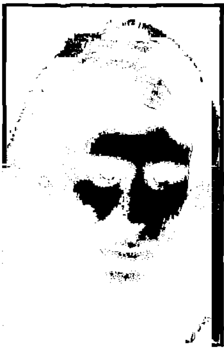
وفى المباراة الثانية التى لعبتها البرازيل بدونه أمام المجر خسرت البرازيل ٣/١ فاضطر بيليه إلى لعب المباراة الثالثة أمام البرتغال، ولكنه تعرض للخشونة والضرب بشدة، فأصيب مرة ثانية وخرج محمولا على نقالة وخسرت البرازيل المباراة ٣/١.

وقبل بداية بطولة العالم ١٩٧٠ أعلن بيليه رغبته فى عدم تمثيل بلاده فى هذه البطولة بسبب الخشونة التى يتعرض لها وعدم حماية الحكام اللاعبين من الضرب المتعمد، لكن أمام إلحاح الرئيس البرازيلى الذى تدخل شخصيا عدل بيليه عن قراره، وبالفعل اشترك بيليه فى البطولة وقدم أجمل عروضه لتحرز البرازيل الكأس للمرة الثالثة وتحتفظ بها للأبد..

ومثل أى لاعب كان ضروريا أن يعتزل بيليه فاقيمت له مباراة اعتزال فى البرازيل أمام يوجوسلافيا حضرها ١٧٠ ألف متفرج. وفى نهاية المباراة وضعوا على رأسه تاجا من الذهب الخالص طاف به أرجاء الملعب حاملا فى يده قميصه الشهير رقم ١٠.

وعلى الرغم من مرور السنين، وبالرغم من ظهور لاعبين عباقرة مثل مارادونا، فإنه لم يستطع منافسة مكانة بيليه لأن بيليه لم يكن لاعبا موهوبا عبقريا فقط وإنما كان نموذجا فى الأخلاق والسلوكيات، ولهذا فرض حبه على الملايين الذين أمتعهم وأطربهم بأدائه وأهدافه.





٢٨ بورن بورج

جبل الجليد ومضرب تنس

لم تشهد ملاعب التنس لاعبا فى هدوء وبرود بورن بورج، الذى وصف بأنه جبل الجليد فى عز الحر والحماس والإثارة.. ومن سوء الحظ أن لاعبا أمريكيا اسمه جون ماكنرو ظهر فى نفس فترة بورج، وهو شاب مندفع على عكس هدوء وبرود وثبات بورج، ولو ظهر ماكنرو فى زمان آخر غير زمان بورج لكان لماكنرو شأن آخر..

ولد بورج يوم ٦ يونيو ١٩٥٦ فى مدينة صغيرة من مدن السويد، وأمسك بالمضرب وهو فى سن التاسعة.. ولم يعرف كيف يمسك به ويقبض عليه جيدا.. هل يفعل ذلك بيده اليمنى أم بيده اليسرى ؟ وكان من نتيجة ذلك أن أخذ ينقل المضرب من اليمنى إلى اليسرى مما كان من نتيجته أنه أصبح يجيد اللعب باليدين، وبالتالى حرم خصومه من نقطة ضعف أى لاعب فيما يسمى «بالكرة العكسية» أى الكرة التى تصل إلى اللاعب فى عكس الاتجاه الذى يجيد اللعب فيه.. فإذا كان يعلب بيمينه أصبحت الكرة العكسية هى التى تصل إلى يساره، وإذا كان «أشول» تصبح الكرة التى تصل إلى يمينه هى الكرة العكسية.. بالنسبة لبورج لم تكن هناك كرة عكسية فهو سريع الحركة فى نقل المضرب من يد إلى يد بحيث تصبح كل الكرات بالنسبة له سهلة.

وقد ظهرت عبقرية بورج فى السويد عندما تمكن، وهو فى سن الثالثة عشرة، أن يهزم أكبر لاعبى التنس فى بلده بسبب ضربات الإرسال القوية التى يجيدها، واللعب بكلتا يديه، والهدوء الشديد الذى يلعب به لمدة ساعة، ساعتين، أربع ساعات.. وفيما بعد كانت بعض مبارياته تتجاوز الـ ٥ ساعات.

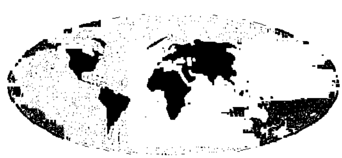
وفى سن الرابعة عشرة انضم بورج إلى قائمة المحترفين وبدأ ظهوره فى ملاعب العالم، فذهب أولا إلى إيطاليا وفاز ببطولتها المفتوحة فى سن الـ ١٧، ثم سافر إلى فرنسا وفاز ببطولتها

الشهيرة «رولان جاروس» فى سن الـ ١٨، ثم إلى انجلترا حيث عروس البطولات ويمبلدون فكان أول لاعب يفوز ببطولة ويمبلدون خمس سنوات متتالية (من ٧٦ إلى ١٩٨٠) كما فاز ست مرات ببطولة فرنسا.

وفى خلال أول اشتراك فى بطولة ويمبلدون فى لندن عام ١٩٧٦ تعرف بورج على لاعبة رومانيا ماريانا، وقد دعاها إلى العشاء فى أحد المطاعم. ومنذ هذه الليلة كما قالت ماريانا: لم نعد نفترق..

لقد تعددت اللقاءات وربط الحب قلبيهما فتزوجا فى يوليو ١٩٨٠.

وفى ٢٢ يناير ١٩٨٣، وهو فى سن السادسة والعشرين وفى قمة مجده، أعلن بورج اعتزاله بعد اختلاف مع اتحاد التنس، وبعد اختفائه أعلن خبراء التنس أنه كان أعظم لاعب تنس شهدته الملاعب فى هذا القرن.



٢٩ محمد على كلاى



البالية فوق حلبة الملاكمة

قالها محمد، على كلاى عن نفسه: «أنا الأعظم». لكنه بالتأكيد وهو يفاخر بهذه المقولة لم يكن يتصور أبدا أنه، وهو الذى قضى بقبضته القوية على أقوى الملاكمين، سيجد هذه اليد وهى ترتعش ولا يقوى على أن يحمل بها طفلا صغيرا بسبب إصابته بمرض الباركنسون.. لقد قال إنه الأعظم ونسى بالرغم من إعلان إسلامه أن هناك الأعظم والأكبر.

كان اسمه الأصلى كاسيوس مارسيلوس عندما ولد فى ١٧ يناير عام ١٩٤٢ بولاية كنتاكى، فى أسرة محدودة يشغل فيها الأب منصبا بسيطا بإحدى الورش الخاصة بالولاية.

وفى الحادية عشرة بدأ كاسيوس مشواره مع الملاكمة، وقد بدأت عبقريته فى رشاقة حركته وقوة تركيزه وقدرته على الهرب بخفة من ضربات خصمه..

وفي دولة مثل أمريكا تعتبر الملاكمة فيها من أشهر الرياضات، ولها عيون تبحث عن النجوم كان طبيعيا اكتشاف موهبة كاسيوس ودفعه بسرعة إلى الحلبة ليفوز فى أوليمبياد عام ١٩٦٠ بالميدالية الذهبية لوزن خفيف الثقيل وهو لم يتعد بعد الثامنة عشرة..

وبعد هذا الفوز اتجه كاسيوس إلى دائرة المحترفين وأمله البطولة الكبرى التى يحلم بها كل ملاكم.. بطولة العالم فى الوزن الثقيل، وحتى يصل إلى هذا الحلم كان عليه أن يدخل ٢٠ مباراة يواجه فيها ٢٠ متحديا فاز عليهم جميعا ليأتى اليوم الموعود الذى يواجه فيه بطل العالم فى ذلك الوقت سونى ليستون.

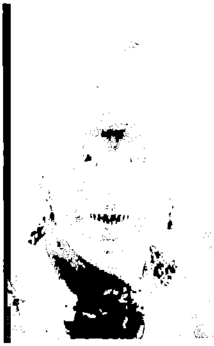
وفى ٢٥ فبراير ١٩٦٤ التقى كاسيوس مع ليستون وأصبح بطل العالم لأول مرة بعد انسحاب ليستون فى الجولة السابعة بعد أن تألق كلاى وقدم عرضا عاليا فى مهارة التحرك على الحلبة،

وتجنب لكمات ليستون واستطاع أن يفتح جرحا في عين ليستون في الجولة الثالثة ظل ينزف إلى أن عجز عن الاستمرار فانسحب في الجولة السابعة.

وفي عام ١٩٦٣، عندما بلغ كاسيوس الحادية والعشرين أعلن اعتناقه الإسلام وتغيير اسمه إلى محمد علي كلاي.. ولم يتعرض كلاي لأي هزيمة.. وعندما تحدد يوم ٢٥ مايو ١٩٦٥ موعدا للقاء الثأر مع سوني ليستون وقفت أمريكا وكل عشاق الملاكمة على أطراف أصابعهم ينتظرون في لهفة اللقاء الكبير.. وكان الكل يتحدث عن المفاجآت الكبرى التي سيحدثها ليستون كما قال. ولكن الكلمة كانت لكلاي، الذي استطاع أن يصطاد ليستون بعد دقيقة واحدة و٤٢ ثانية، ليوجه إليه لكمتين سقط على إثرهما ليستون فاقد القدرة على الحركة.. وظل حكم المباراة يعد على ليستون حتى ٢١ بدلا من عشرة.. ومرة أخرى تلقى ليستون درسا آخر من كلاي في نوفمبر من السنة نفسها عندما أوقف الحكم المباراة في الجولة الثانية عشرة لعدم التكافؤ.. مما جعل كلاي يقفز وهو يصرخ: «أنا الأعظم» ولكن المتاعب بدأت تحاصر كلاي، ففي فبراير عام ١٩٦٦، وكان قد أصبح في سن الرابعة والعشرين، دعي كلاي للخدمة في الجيش الأمريكي الذي كان يشارك في ذلك الوقت في حرب فيتنام، ولكن كلاي أعلن عدم اقتناعه بهذه الحرب ورفضه لها.. ونجحت وسائل الإعلام في إثارة الرأي العام ضده، فتم في مايو من العام نفسه سحب لقب البطولة منه وتقديمه إلى محاكمة قضت بحبسه ٥ سنوات وتغريمه عشرة آلاف دولار إلا أنه أفرج عنه بكفالة.

وفي عام ١٩٧٠ أعلن كلاي اعتزاله إلا أنه عندما صدر قرار اتحاد الملاكمة بالسماح له بالملاكمة عاد إلى الحلبة وبدأ يواجه متحديه، وكان عليه ـ إذا أراد أن يسترد لقبه ـ أن يواجه جو فرايزر، الذي كان قد اعتلى العرش خلال سنوات غيابه.. وفي ٨ مارس التقى الاثنان في لقاء قوي انتهى بفوز كلاي بالنقاط. وواصل كلاي طريق المباريات الصعبة وهزم جورج فورمان عام ١٩٧٤، واستطاع أن يسترد بطولة العالم ويحتفظ بها أربع مباريات إلا أنه خسر اللقب بالنقاط عام ١٩٧٦ أمام مواطنه الأمريكي ليون سبنكيس الذي كان يبلغ في ذلك الوقت ٢٤ عاما، ولكن كلاي صنع المستحيل وثأر لنفسه في لقاء سبتمبر ١٩٧٨ ليصبح بذلك أول ملاكم في التاريخ يحرز اللقب العالمي للوزن الثقيل ثلاث مرات، وأول ملاكم يخوض ٢٤ مباراة دفاعا عن لقبه.

وفي ديسمبر ١٩٨١ أعلن كلاي اعتزاله بعد ٦١ مباراة لعبها منذ أن احترف في أكتوبر ١٩٦٠ لعب فيها ٥٤٩ جولة وحقق مكاسب بلغت ٦٩ مليون دولار.



٣٠ ديانا سبنسر

أسطورة فى حياتها وفى مماتها..!

عندما وضعت قائمة أسماء الذين غيروا القرن العشرين وفيها اسم الأميرة ديانا، كنت أشعر بأن هذه المرأة تستحق أن تدخل تلك القائمة على اعتبار أنها النموذج المثالى للنجم العالمى الذى تصنعه أجهزة الإعلام، واستطاع الوصول إلى كل بيت بصرف النظر عن الدولة. ولكننى لم أتصور أبدا أن يضيف القدر إلى قصة ديانا، أولا : كى تنتهى حياتها هذه النهاية الدرامية العجيبة، وثانيا: لكى تصبح ديانا نفسها أسطورة تتحدث عنها الأجيال القادمة لمعرفة كيف استطاعت هذه المرأة، رغم اعترافها بالخيانة الزوجية، أن تستحوذ على هذا الحب العالمى الكبير والكاسح الذى كشفه حادث مصرعها؟ وهل كانت نهايتها قضاء وقدرا أم جريمة تم حبك التخطيط لها؟ وهكذا فإن ديانا عاشت أسطورة فى حياتها وأسطورة فى مماتها!

◆◆◆

«أفخر بك كثيرا وأنتظرك بكل شوق لأحلق بك كالنسر الطائر. عليك فقط أن تنظرى فى عينى وتطرقى أبوابى» تشارلز.

كتب الأمير تشارلز هذه الكلمات إلى ديانا مع خاتم مرصع بالماس ورثه عن أجداده، وأرسله إلى ديانا فى ليلة زفافها إليه، لم يبهر الخاتم ديانا كثيرا وإنما أمسكت بالبطاقة التى تحمل كلمات تشارلز ومدت بها يدها إلى فمها. لحظات غابت فيها بعيدا فمن كان يتصور؟

قبل نحو ثلاثة أشهر من مولد ديانا سبنسر فى أول يوليو ١٩٦١، كان العالم قد وقف مبهورا وهو يشهد رحلة أول رائد فضاء حول الكرة الأرضية قام بها يورى جاجارين السوفيتى يوم ١٢ ابريل ١٩٦١، وقد كشفت رحلته مدى التفوق الذى وصل إليه الاتحاد السوفيتى فى مجال

الفضاء. ونتيجة لذلك قرر الرئيس الأمريكي جون كنيدى فى ذلك الوقت دخول السباق، وإثبات تفوق الولايات المتحدة بالوصول إلى القمر، وهو ما تحقق بالفعل فى يوليو ١٩٦٩.

كان من نتيجة ذلك أن شهد العالم ثورة غير مسبوقة فى الاتصالات وفى التكنولوجيا وفى العلوم، انعكست على وسائل الإعلام المختلفة، ومكنتها من إطلاق الأقمار الفضائية التى تستطيع من خلالها نقل صور الأحداث إلى العالم الواسع فى نفس وقت وقوعها.

لم تكن ديانا أول امرأة مشهورة على مستوى العالم فى هذا القرن، فقد سبقتها إيفا بيرون، زوجة رئيس الأرجنتين،التى أحبها شعبها وماتت فى شرخ شبابها فى الثالثة والثلاثين بسبب السرطان، ولكن فى خلال حياة إيفا «١٩١٩ ـ ١٩٥٢» لم تكن هناك قناة تليفزيونية واحدة عالمية. وفى سنوات مجد جاكلين كنيدى، التى أحبها الشعب الأمريكي وفتن بشبابها وبشخصيتها، لم يكن هناك قمر صناعى واحد لنقل الأخبار، أما ديانا فقد ظهرت فى عصر التكنولوجيا، والأقمار الصناعية والكاميرات المتطورة التى تصور فى الظلام، وعن بعد، والأجهزة الخاصة التى يحملها معهم المصورون ويمكنهم بها نقل الصورة التى سجلوها إلى آخر الدنيا فى ثوان قليلة. ظهرت ديانا فى العصر الذى ظهر فيه ما أصبح معروفا باسم «البابا راتزى»، وهم مجموعة من المصورين الذين لا يرتبطون بالعمل مع صحيفة معينة، وإنما هم يعملون لحساب من يدفع أكثر، وهم مثل الصيادين الذين يحملون بنادقهم ويخرجون للصيد. لكن بنادق الصيادين تصيب ضحاياها فى السر بعيدا عن العيون، أما بنادق هؤلاء المصورين المزودة بالعدسات المقربة، ويرى المصورون من خلال فتحاتها ما يحدث فى الظلام، فإنها تصيب ضحاياها فى العلن على الصفحات؟

وقبل ظهور ديانا كانت هناك طبقة خاصة من الذين يقرأون الصحف والمجلات هم الذين تتاح لهم معرفة المشاهير الذين تنشر هذه الصحف صورهم. ولكن مع تطور التليفزيون والقنوات الفضائية ودخول جهازه إلى كل بيت، لا فرق بين غنى وفقير، أو مثقف وأمى، فلقد راجت معرفة المشهورين فى كل الدنيا. لقد غيرت ثورة الاتصالات من ثقافة العالم ومن معرفة كل الناس بالمشهورين. وأصبح النجم المشهور يسير فى أى بلد غير بلده فيجد نفسه محاطا بالكثيرين الذين يعرفونه ويحيطونه بنظراتهم التى تريد أن تخترق ما تحت جلده.

هكذا فإنه منذ اللحظة الأولى التى خطت فيها ديانا إلى الحلم الذى كانت تحلم به كل فتاة، وتضع ذراعها فى ذراع الأمير تشارلز، فى هذا اليوم الذى مازال العالم يذكره جيدا ـ يوم ٢٩ يوليو ١٩٨١ ـ كانت صور زفافها شريطا كاملا نقلته الأقمار الصناعية عبر العالم ليشهده أكثر من ٧٠٠ مليون مشاهد. كان أول زفاف أسطورى يعيش العالم فى لحظة واحدة وقائعه وأحداثه. وكانت ديانا أول عروس تزف من خلال الأقمار الصناعية إلى عريسها الأمير. ولهذا لم يكن غريبا أن يطلق على هذا الزفاف «زفاف القرن».

وإذا كان الزفاف يعتبر بالنسبة للفتاة هو تاريخ جديد للميلاد، فلقد ولدت ديانا فى شهر يوليو يوم زفافها فى يوم ٢٩، ويوم مولدها الحقيقى قبل ذلك هو أول يوليو ١٩٦١.

كانت ديانا من أسرة لها ملامح الارستقراطية باعتبار أن جذور هذه الأسرة تعود إلى فترة الملك الإنجليزى تشارلز الثانى قبل أكثر من ألف سنة أما داخل أسرة ديانا نفسها فقد كانت تبدو عادية وغير سعيدة، وقد انتهت بالطلاق بين والدى ديانا وهى فى سن السادسة بعد مشاجرات عنيفة بين الزوجين ظلت عالقة بذاكرتها، بل وأكثر من ذلك كونت لديها عقدة الخوف من أن تتزوج يوما وتنفصل بالطلاق عن زوجها. ولهذا فإنها عندما تزوجت من الأمير تشارلز ولى عهد بريطانيا، فقد تصورت أنها قضت على هذه العقدة التى كانت تعانى منها على أساس أن الملوك لا يعرفون الطلاق!

لم تدخل ديانا فى تعليمها المدارس والكليات وإنما اكتفت بالدراسة الثانوية دون الحصول على شهاداتها. وفى سن السابعة عشرة اشتغلت بالتدريس فى مدرسة أطفال، كانت تقوم فيها بدور الحاضنة والمربية والصديقة للأطفال أكثر من المعلمة لهن.

وعن طريق شقيقتها «سارة» الأكبر منها بدأت علاقة تشارلز بالأسرة. كانت العائلة المالكة تعانى من عملية البحث عن عروس لابنها تشارلز.. عروس تأتى هذه المرة من صفوف الشعب كى تعمق من روابط الشعب بالملكية البريطانية. كان من أهم الشروط أن تكون من عائلة عريقة لها ماض، وألا تكون العروس نفسها صاحبة أى ماض. وألقى بأسرة سبنسر فى طريق تشارلز على أساس اختيار الابنة سارة، ولكن تشارلز بدلا من سارة تعلق بديانا الفتاة الخجول التى تفيض بشرتها بالحمرة خجلا.. كانت ديانا بالمواصفات التى تملكها العروس المناسبة تماما لتشارلز، فالأسرة لها ماض أما ديانا نفسها فلم يكن لها أى ماض.. كانت عذراء حقيقية فى مجتمع تتنازل كثير من فتياته عن هذه الصفة فى أول لقاء مع الأصدقاء..

ولم يكن لديانا بذلك أى سجل، فسجلها هو الذى سيبدأ بعد أن تدخل القصر الملكى. وفى الرابع والعشرين من فبراير ١٩٨١، أعلنت الخطوبة، وفى أقل من ستة أشهر أقيمت مراسم الزواج الذى تم نقل وقائعه كاملا على الهواء عبر الأقمار الصناعية.. ومن أول لحظة دخلت ديانا قلوب الملايين من الفتيات.. كانت فى حد ذاتها تمثل الحلم الذى تحلم به أى فتاة فى العالم، وكانت ابتسامتها وإيماءاتها صورة جميلة يتمناها أى شاب.

◆◆◆

سلعة وسائل الإعلام هى البشر.. الناس.. ما يقع لهم من أحداث وما يتعرضون له من مآس وأفراح.

والإعلام بجانب ذلك يروج للمشهورين من نجوم فى كل مجال.. فى الفن والرياضة والمجتمع. ويختبر قبول الناس لهم، وعلى قدر هذا القبول يقبل الإعلام على نشر المزيد للنجم أو البحث عن نجم آخر.

وعندما ظهرت ديانا لأول مرة فى دائرة الضوء كانت سلعة جديدة قدمتها عدسات الصحافة والتليفزيون إلى زبائنها.. ووجدت السلعة رواجا كبيرا بين القراء خاصة بعد الزفاف الأسطورى وزاد تعلق الجماهير بها عندما نقلت الصور التى سجلت لها فى شهر العسل. كان المجتمع البريطانى قد تعود على الأسرة المالكة المعروفة بتجهمها وتقاليدها وانعزالها عن الناس، وإتيان كل حركة بحساب دقيق، ولكن جاءت ديانا بصورة جديدة غير مألوفة من سكان هذه القصور الملكية. فلم يكن مألوفا أن تتعامل أميرة من أميرات هذه القصور مع الجمهور بالعفوية التى كانت تعامل بها ديانا الناس، ولم يتعود المواطنون فى أميرات الأسرة المالكة خفة دم ديانا وبساطتها وتحركات عينيها الجميلتين.

لقد كان غريبا أن تستولى هذه الفتاة على اهتمام الكل منذ البداية، فرغم أن زوجها هو الأمير وريث العرش فإن الاهتمام كان يتجه إليها منذ كانت تصحبه فى الدعوات. فى البداية كانوا يريدون معرفة من هى هذه الفتاة التى جاءت من صفوف الشعب لتصبح زوجة الملك القادم، ولكنها مع الأيام استطاعت أن تكون لنفسها جاذبية خاصة تتجه إليها هى لإعجاب الناس بها هى. وقد قيل إن هذا جعل تشارلز يشعر بالغيرة منها، فقد تعود أن يكون الرقم الأوحد فى أى مكان يذهب إليه، ولكن ها هى ديانا تجعله رقما ثانويا، وبعد أقل من ١١ شهرا من الزوج وضعت ديانا مولودها الأول ويليام. ثم بعد عامين آخرين وضعت مولودها الثانى هارى.. وبذلك بدا أن مهمتها قد انتهت.

◆◆◆

كانت ديانا منذ انتهت إجازة شهر العسل ودخلت القصر الملكى قد شعرت بأن العصفور المنطلق داخلها الذى لم يعرف القيود ـ خاصة مع غياب أمها التى انفصلت عن أبيها ـ قد بدأ يحاصر بأسوار عاتية من التقاليد والبروتوكولات والأوامر.

وكانت المشكلة بالنسبة لديانا أنها لم تفعل كما تفعل كثير من الفتيات اللاتى يبدأن منذ سن المراهقة بإقامة العلاقات، ثم يعتبرن الزواج نهاية أو صفحة تطوى هذه العلاقات على أساس أنها ذاقت الحب وتنقلت بين الشفاه وآن أن تستقر فى أحضان الزوج وبين شفتيه.

لم تكن ديانا قد جربت العشاق والعناق، وبالتالى كان تصورها أن الزواج هو الصفحة الأولى فى هذه المشاعر التى لم تجربها من قبل. وبالتأكيد كانت تنتظرها من زوجها الأمير.

وكانت لدى الأمير مشكلة هو الآخر، هى أنه أكبر من ديانا بـ١٣ سنة عمرا، لكنه كان يكبرها بأكثر من ٤٠ سنة علما وثقافة بحكم الإعداد الذى تلقاه فى صغره وشبابه من أسرة تحترم التقاليد وتريد أن تصنع ملكا.

وهكذا فبينما كانت ديانا بحكم السن وقلة الخبرة تبحث عن الحب والعواطف والجنس الذى تحصل عليه من زوجها كان الأمير بحكم علاقات عديدة روت ظمأه، وخلفية من الثقافة أصبح يحملها، يبحث عن علاقة عقلية.

وعندما أحست ديانا بالمسافة الموجودة بينها وبين زوجها فإنها لم تستطع على ما يبدو أن تعالج هذه المسافة، خاصة أن الأم التى كان يمكن أن تقوم بهذا الدور من خلال نصح الابنة كانت بعيدة عن ديانا. وجاءت الصدمة الأكبر عندما شعرت ديانا بأن المسافة التى بينها وبين تشارلز يوجد أضعافها بينها وبين أفراد الأسرة المالكة إلى الدرجة التى جعلتها تشعر بأنه تم توظيفها، سواء من تشارلز أو من أفراد القصر، لإنجاب ولى العهد، أما الحب فموضوع ليس فى الاعتبار.

من الذى أخطأ؟

لم يكن هناك وقت للبحث عن الذى أخطأ لعلاج الخطأ.. وإنما سار كل فى طريقه. فتشارلز عاد إلى حبه القديم ـ كاميلا باركر ـ وهى فى ذلك الوقت كانت مازالت زوجة لرجل آخر.

وديانا أفرغت همومها فى الملابس الجميلة التى أضافت إلى جمالها جمالا، وجعلت الملايين ينتظرون صورها ليروا ماذا ستلبس فى الصورة الجديدة، وعدسات التصوير كانت من كثرة الفلاشات التى يطلقها المصورون عند ظهور ديانا تحول الليل إلى نهار.

وعندما شاع فتور العلاقة بين تشارلز وديانا زادت وسائل الإعلام وعدسات التصوير إقبالا على ديانا بحثا عن اللقطة السريعة التى تعكس مشاعرها.

ووجدت ديانا فى الأعمال الاجتماعية والخيرية مجالا يمتص بعضا من عواطفها، لكن الجنس فى داخلها بحكم السن والشهرة والإعجاب بالذات مثل وحش كاسر يبحث عمن يروضه.

ووجدت ديانا ذلك عند ضابط شاب تعلقت به بحجة تعليمها ركوب الخيل، ثم وكأنها أرادت أن تصفع الأسرة المالكة التى عزلتها ففاجأت الناس بكتاب يحكى قصة حياتها خلف قضبان القصر، كتبه مؤلف جلست إليه ديانا وأعطته الذخيرة التى تطلقها على العائلة المالكة

وهكذا دخلت ديانا حربا مع القصر.

وكان طبيعيا أن يجذب ذلك المزيد من اهتمام الإعلام بها، ثم جاءت الصفعة من القصر عندما وجد عدد من الصحفيين على مكاتبهم ذات يوم شريط تسجيل يحوى مكالمة دارت بين ديانا وحبيبها الضابط جيمس هيويت يكشف العلاقة التى أقامتها معه.

وزادت الحرب بين ديانا وجميع من فى القصر بمن فيهم تشارلز، اشتعالا.

كان من بين ما شهدته هذه الحرب كتاب أصدره جيمس هيويت بعنوان «الأميرة العاشقة» يفضح فيه العلاقة الغرامية التى تجاوزت حدودها مع الأميرة زوجة ولى العهد وأم الملك القادم.

وخرج الأمير تشارلز على غير المألوف يدلى بحديث يعترف فيه بأنه على علاقة غير شرعية مع كاميلا باركر.

وردت ديانا الطعنة التى طعن بها تشارلز كبرياءها وكرامتها بطعنة وجهتها إلى شرفه عندما أعلنت فى حديث تليفزيونى نقل إلى عدد كبير من الدول أنها بحثت عن الراحة خارج بيت الزوجية، وأنها وقعت فى حب جيمس هيويت، وأقامت علاقات معه ولكن خاب ظنها فيه..

وكان طبيعيا بعد هذا الاعتراف أن ينتهى الأمر إلى انفصال وطلاق.. وفى كل ذلك لم تختف ديانا عن الأنظار، وإنما كانت تمارس حياتها الخاصة فى ممارسة النشاط الاجتماعى والخيرى، إلى جانب الظهور فى مناسبات، أصبحت تدعى لها باعتبارها نجمة مطلوبة لذاتها بصرف النظر عن تشارلز.. وكان هذا غريبا بالفعل..

كان الغريب أن تقف هذه المرأة وحدها فى وجه الأسرة المالكة، وأن تنجح فى هز العرش البريطانى الذي تجلس عليه.. رغم أن صحفا خرجت تهاجمها بعد أن انحازت لتشارلز، ورغم الكتاب الذى كتبه عشيقها يفضح ممارساتها معه.

وكان غريبا أيضا أن هذه المرأة استطاعت أن تسحر الملايين، وأن تكسب حبهم وأن تغسل خيانتها، بل إنها بدت فى نظر الكثيرين ضحية راحوا يبررون لها ما فعلت !

وفى ذلك كانت وسائل الإعلام بالطبع تتابع وتلتقط المزيد من الأخبار والصور.. وقد جاء الدور بعد الطلاق أن تطاردها عدسات المصورين لتكشف علاقاتها..

وكان لقاؤها بعماد الفايد عندما دعاها محمد الفايد ووالديها إلى قضاء إجازة على يخته فى سان تروبيز بفرنسا.. وكان هناك عماد الفايد، أو دودى كما ينادونه، شاب فى مثل سنها تقريبا.. لا تشغله أمور الثقافة والفكر كثيرا بقدر ما تشغله العواطف.. وبخفة دمه الشرقية العفوية تم الوفاق.. ووقع الغرام.. وبين مطاردات المصورين جاءت النهاية الدرامية للاثنين معا... وتم زفافهما سويا إلى السماء..

لقد انطلق خبر مصرعهما من باريس، كإعصار لف العالم بمشاعر الحزن والدهشة.. وعلى مدى أسبوع كامل عاش العالم صورا غريبة من الهوس الجنونى الذى لم يسبق أن شهده العالم فى وفاة أى شخص..

لقد أوقفت كل المجلات الصادرة فى كل العالم طبعاتها، وزينت أغلفتها بصورة ديانا.. ومن بين ٢٨ صفحة فى صحيفة «التايمز» البريطانية المحافظة، تم تخصيص ٢٦ صفحة لأخبار ديانا..

وبغير استثناء فقد ألغت محطات التليفزيون العالمية برامجها المعتادة لتذيع مادة وحيدة اسمها ديانا.. ولم يحدث في التاريخ أن شاهدنا حزنا بهذه الصورة التي شاهدناها.. ولا كميات الورود التي وضعها أصحابها أمام قصر بكنجهام، قصر الملكة، وقصر كيسينجتون القصر الذي كانت تعيش فيه والجزيرة التي دفنت بها.

ما الذي جعل كل هؤلاء الناس يبكون ديانا ويحزنون عليها كل هذا الحزن؟ إن ديانا لم تكن بالقطع قديسة أو راهبة أو صاحبة صفحة ناصعة خالية من الأخطاء والآثام. ولم تكن ديانا أيضا زعيمة سياسية أو قائدة حركة إصلاح اجتماعية أو صاحبة مدرسة فكرية.. صحيح أنه كانت لها جهود بارزة في مجال الخدمات الإنسانية في مساعدة مرضى الإيدز وضحايا الإدمان والمخدرات، ومحاربة بث الألغام، ولكن كل هذه الأعمال لا تستدعي هذا الهوس الفريد الذي عاشه العالم بعد وفاتها.

ولقد قيل إن الإعلام هو الذي صنع ديانا. ولكن قدرة الإعلام مهما كانت لا تستطيع أن تصنع شيئا من وهم أو سراب. إن الصحيح أن الإعلام روج لديانا، وأن الجماهير اقبلت على ديانا وأحبتها فازداد تعلق الإعلام بترويجها وازداد تعلق الناس بها. لو لم تحب الجماهير ديانا لما أقبلت عليها وسائل الإعلام وعدسات التصوير بهذا الجنون.

كان المؤكد أن الجماهير أحبت ديانا وأقبلت عليها ولم تمل من رؤية صورها ومتابعة أخبارها، والوقوف طويلا أمام كل ثوب ترتديه. كانت ديانا تمثل الصورة الجميلة التي تحلم بها كل فتاة في أي مكان في العالم. ورغم أن ديانا أصبحت عضوا في الأسرة المالكة صاحبة التقاليد والقيود، فإن ديانا استطاعت أن تصنع لنفسها قصرا آخرا غير هذا القصر مفتوحا على الجماهير، لم تسمح للحواجز أن تفصلها عن الناس الذين كانت تلتقي وتتحدث معهم في بساطة وتشاركهم تقاليدهم لا تقاليد القصر الذي تعيش فيه.

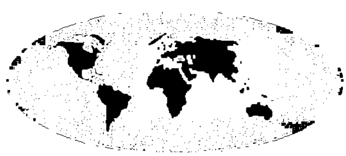
ورغم أنها لم تكن تملك قدرا من الثقافة إلا أنها كانت قادرة على التأثير بصورة غريبة فيمن تلقاهم.

وفي السنوات التي عاشتها في دائرة الضوء بين ١٩٨١م و١٩٩٧ طافت كثيرا من الدول، بما في ذلك مصر والسعودية ودول أخرى عديدة، لقد أصبحت صورة دائمة في عيون الناس، وفردا من أسر الملايين في السويد وكندا والسنغال ومصر واليابان.. الخ. وكان هذا كفيلا بأن يضعها في قائمة الذين غيروا القرن العشرين. ولكن جاء وداعها يوم السبت السادس من سبتمبر يوما لا ينسى في تاريخ القرن، فقد شاهده على امتداد أربع ساعات أكثر من ٣٠٠٠ مليون مشاهد!

ومن بين آلاف الكلمات التي كتبها أصحاب تلال الباقات من الورود التي وضعها أصحابها على روحها، توقفت طويلا أمام عبارة كتبها صاحبها قد تفسر سبب هذا الحب الذي ربط بين الناس في أي مكان وبين ديانا. قال صاحب الباقة: إلى من جعلت للحياة طعما جديدا!

■ زيارة إلى سنوات ديانا

- ١٩٦١: الميلاد فى أول يوليو.
- ١٩٦٧: طلاق والديها.
- ١٩٧٧ : اللقاء الأول مع الأمير تشارلز فى منزل الأسرة.
- ١٩٨١ : ٢٤ فبراير : إعلان خطوبتها.
- ١٩٨١ : ٢٩ يوليو : الزفاف الأسطورى.
- ١٩٨٢ : ٢١ يونيو : مولد طفلها الأول ويليام.
- ١٩٨٤ : ١٥ سبتمبر : مولد الابن الثانى هارى.
- ١٩٨٥ : بداية الحديث عن الصعوبات التى تواجه الزواج.
- ١٩٩٢ : الإعلان عن انفصال ديانا عن زوجها رسميا فى ٩ ديسمبر.
- ١٩٩٦ : ٢٨ أغسطس : توقيع وثيقة الطلاق.
- ١٩٩٧ : ٩ أغسطس : الصحف تنشر أول صورة لديانا وهى تعانق عماد الفايد.
- ١٩٩٧ : ٣٠ أغسطس : الصورة الأخيرة.. سيارة ديانا وعماد كتلة من الحديد.





٣١ إلفيس بريسلى

الشاب الذى غير مزاج الشباب..!

على أنغامه السريعة أصيب شباب العالم بالجنون والهيستيريا إلى الحد الذى يمكن القول عنه أنه لم يحدث أن أثر مغنٍّ فى مزاج شباب القرن العشرين كما فعل إلفيس بريسلى بموسيقى وأغانى الروك اند رول التى ابتدعها.. ومن جلبابه ظهر الكثيرون الذين ساروا على دربه ومنهم أفراد «البيتلز» فى بريطانيا، وغيرهم من كبار المغنين الذين فعلوا كما فعل إلفيس بريسلى.. ولكن بريسلى كان بالنسبة لهم جميعا الملك.. فحتى اليوم لم يستطع واحد آخر أن يملأ العرش الذى احتله.. ولهذا كان طبيعيا أن يطلقوا عليه الملك فى دولة لا تعرف ولن تعرف الملكية.. وعندما مات فى سن الثانية والأربعين لم يكن غريبا أن يخرج الرئيس الأمريكى جيمى كارتر فى وقتها لينعى بنفسه خبر وفاته ويقول: لقد كان جزءا من بلاده أمريكا.. وبرحيله فقدت بلادنا هذا الجزء الذى لا يعوض. إن موسيقاه وشخصيته غيرت بصورة جذرية ملامح الثقافة الشعبية الأمريكية.

ولد بريسلى فى الثامن من يناير عام ١٩٣٥ فى بلدة اسمها توبيلو بولاية المسيسبى الأمريكية، من أبوين فقيرين كانا بالكاد يوفران له احتياجاته.

إن هذه المدينة ـ توبيلو ـ سوف تلعب دورا مهما ليس فقط فى تاريخ بريسلى وإنما فى تاريخ الغناء فى العالم.. فقد كانت هذه المدينة تعج بالزنوج المحافظين على تقاليدهم وموسيقاهم ورقصهم الإفريقى وأغانيهم.

ومنذ بدأت حواس إلفيس الصغير تتفتح التقطت ما يدور حوله.. فأحب الغناء منذ طفولته إلى درجة لفتت نظر أبيه الذى ـ رغم فقره ـ لم يبخل عليه بإهدائه قيثارة وفر له ثمنها بصعوبة بالغة.. وكانت هذه القيثارة بداية طريق إلفيس إلى الموسيقى والغناء، والطريقة الجديدة التى انفرد بها فى الأداء والتى اكتسبها من ملاحظته الزنوج وهم يهزون وسطهم.

ومثلما يحدث للعظماء من اختبارات قدرية دون أن يعرفوا فى وقت الامتحان قدرهم، تعرض بريسلى لاختبار قاس، فقد أصيب والده ذات يوم بجرح جعله عاجزا عن العمل.. وعندما دخل إلفيس فى اليوم التالى على والده شاهده لأول مرة فى حياته يبكى.. وانهار الولد الصغير العطوف المحب لأبويه.. انهار إلى درجة أنه انحنى على قدم أبيه وهو يبكى ويقسم أنه سيعوضه عن كل ما فقده.. ليس هذا فقط بل إنه سيجعل والديه أسعد اثنين فى العالم..

وبعد أيام غادر إلفيس مدرسته لآخر مرة بعد أن قرر أن يصبح رجل البيت ويعمل..

كان قد اقترب من الثامنة عشرة، وليست له حرفة أو مهنة يجيدها.. ولهذا كان عليه أن يقبل أى عمل يعرض عليه.. وفى البداية عمل كهربائيا ثم سمكريا، ثم فى أثناء ذلك تعلم قيادة السيارات واستطاع الحصول على رخصة تسمح له بالعمل سائقا للشاحنات.. وكان هذا أول عمل يسعد إلفيس ويجد فيه نفسه. ذلك أنه خلال ساعات قيادة سيارته أصبح فى إمكانه أن يمضى الساعات مع نفسه وحيدا، يعيش فى خيال الغناء والألحان التى كانت تلح عليه.. وأكثر من ذلك فإنه أصبح فى إمكانه أثناء هذا العمل أن يلازم معشوقته، القيثارة التى أهداها له والده.. فلم تكن تفارقه فى كل رحلاته.. وكثيرا ما كان يقود سيارته بيد ويعزف القيثارة باليد الأخرى.. وربما انفعل إلفيس مع السرعة التى كان يقود بها السيارة فأصبحت ألحانه التى يعزفها سريعة مجنونة، تخالف إشارات المرور الموسيقية المتآلف عليها، وتعكس الثورة التى كان يعيشها إلفيس وهو يقود سيارته!!

◆◆◆

هناك طريقان يسلكهما عادة الذين يصلون إلى الشهرة.. طريق الصعود على السلالم المتدرجة، وطريق الدخول من الأبواب.. وصعود السلالم يحتاج وقتا طويلا، أما دخول الأبواب فإنه يؤدى بصاحبه إلى النجاح السريع.. وقد وجد إلفيس نفسه أمام الطريق الثانى: طريق الأبواب المغلقة التى عبر منها إلى ساحة الشهرة والانتشار بأسرع مما كان يتصور، وربما اختار القدر له هذا الطريق لمعرفته مسبقا بأن هذا الشاب - الذى سيغير مزاج شباب العالم ويجعلهم يرقصون فى كل مكان على موسيقاه - عمره قصير، وأنه فى زهوة السن التى يتمناها كل شاب سوف يفارق هذه الدنيا الواسعة التى اشتهر فيها بصورة لم يسبقه إليها مغن من قبل.

فى عام ١٩٧٧، وقبل وفاته بفترة قليلة، روى إلفيس بنفسه فى أحد البرامج التليفزيونية الحوارية كيف حدث هذا التحول العظيم فى حياته.. من سائق عربة لورى إلى أشهر مغن فى العالم.. قال إلفيس: لم يكن فى جيبى دولار «واحد» من الـ٣٥ دولارا التى كنت أتقاضاها أسبوعيا عندما اقترب عيد الأم.. كان كل همى أن أقدم هدية لها أعبر بها عن بعض مشاعرى العظيمة تجاهها. إن كل ابن بالتأكيد يحب أمه كثيرا، ولكن حبى لأمى كان أكبر بالتأكيد من كل حب..

وبينما كنت أفكر في هدية أمي وقعت عيناي على إعلان لشركة تسجيل اسطوانات لصاحبها «سام فيليبس». حملت قيثارتي وذهبت إلى هذه الشركة وقلت للسيد سام فيليبس إنني أريد أن أسجل أغنية، ونظر لي سام بطرف عينه ثم قرر أن يرسلني إلى سكرتيره الذي قال لي ببرود: عليك أن تدفع أربعة دولارات ثمنا لذلك. وكان علي أن أنتظر ٤٨ ساعة حتى أقبض أجر الأسبوع - الـ٣٥ دولارا - وكنت قد رتبت نفسي على اعطاء أمي ٣٢ دولارا منها والاحتفاظ بثلاثة دولارات هي كل مصروفي طوال الأسبوع.. ولم أشأ أن أنقص سنتا مما خصصته لأمي، واستطعت بصعوبة إقناع أحد زملائي بإقراضي دولارا واحدا وضعته على الدولارات الثلاثة مصروفي في الأسبوع، وذهبت إلى شركة الاسطوانات.. ودفعت للشركة الدولارات الأربعة وسجلت أغنيتين.. كانت الأولى مطلعها «أنا موافق يا أمي»، وكانت الثانية بعنوان «قمر كانتوكي الأزرق». وفي عيد أمي أسمعتها تسجيل الأغنيتين ففرحت به جدا، رغم أنني لم أجده عظيما.. وكان علي أن أمضي عدة أسابيع حتى أستطيع أن أدخر أربعة دولارات أخرى، فقد حدث أن تم الاستغناء عني في العمل، وأصبحت لا أعمل بصفة منتظمة.. كان أملي بعد ذلك أن أدخر كل بضعة أسابيع هذه الدولارات الأربعة لأسجل شريطا جديدا. وذات يوم تعرف إليّ سام فيليبس، صاحب الشركة، ويبدو أنني لفت نظره فقد لاحظت اهتمامه بي بعد أن كان يعاملني بعجرفة.. وأصبح سام يسهل لي تسجيل الأغاني للمغنين الآخرين على سبيل التجربة.. وخلال إحدى التجارب غير الناجحة انتهزت فرصة استراحة قصيرة فرحت أدندن بإحدى الأغاني وفق طبيعتي ومزاجي وفوجئت بسام فيليبس - الذي تصادف أن كان مارا - وتوقفت عن الغناء عند وصوله ناحيتي، فوجئت به يصرخ في: أكمل.. أكمل .. أعد.. أعد.. هذا ما أريده.. وفي ذلك اليوم، وكان يوافق ٣ يونيو، ١٩٥٤، (كان إلفيس في التاسعة عشرة من عمره) قمت بتسجيل خمسة تسجيلات.. وفي اليومين التاليين فوجئت بدعوة من إذاعة الولاية.. ورفضت في البداية ولكن أمي ألحت عليّ فلم يكن في إمكاني أن أرفض. وفي الإذاعة أخبروني أن الاسطوانة التي سجلت عليها الأغاني الخمس قد أثارت حماسا شديدا، وأن المستمعين طلبوا بإلحاح إذاعتها مرات ومرات.. وقد أذيعت بالفعل ٩ مرات خلال ٤٨ ساعة، ورغم هذا فمازالت الطلبات تتوالى عليهم لإذاعتها مرة أخرى.. وذهبت إلى سام فيليبس الذي ما كاد يراني حتى قال وهو يحتضنني: عظيم.. عظيم.. «إن اسطوانتك ستباع مثل الخبز» يمكنك أن تبدأ على الفور في إعداد أغان أخرى.. وقال سام مضيفا: إنني كنت دائما أقول إنني إذا وجدت مغنيا أبيض البشرة يغني مثل السود فسأربح مليون دولار.. وها قد وجدته!

انتهت رواية إلفيس عند دخوله أبواب الشهرة..

والواقع أنه لم يمض وقت طويل منذ ذلك اليوم، ٣ يونيو ١٩٥٤، حتى كانت اسطوانات وأغاني إلفيس ترددها الملايين.. ففي الأسبوع الأول بيعت ٧٠ ألف اسطوانة من أغنياته.. وخلال أشهر قليلة أصبحت أغنية «أنا موافق يا أمي»، التي دفع ٤ دولارات ليسجلها ويهديها إلى أمه في عيد

الأم، قد أصبحت على لسان كل شاب وفتاة فى الولايات المتحدة.. وعندما تقدم إلفيس خطوة أخرى، وظهر على المسرح لأول مرة، فوجئ بآلاف الشباب الذين جاءوا للاستماع إليه.. ومن أول لحظة أمسك فيها قيثارته وبدأ صوته ينطلق وجسمه يهتز بالطريقة الجديدة التى قدم بها أغانيه.. منذ هذه اللحظة أصبح عنوانا دائما لكل حفلات إلفيس هذه العاصفة التى تعودت أن تصاحب غناءه من الشبان الذين يصفقون، ويطرقون الأرض بأقدامهم وهم فى حالة انفعال شديد، أما الفتيات فإنهن ما إن يسمعن صوت إلفيس حتى يدخلن فى حالة هيستيريا شديدة من الصرخات والانفعالات والقفز.. وكما لو أن إلفيس يدوس بصوته واهتزازاته على «زرار» فى أجسادهن فيجدن أنفسهن فى حالة خاصة لإخراج كل ما هو مكبوت داخلهن..!

◆ ◆ ◆

حتى إلفيس نفسه كان يجهل سر ما يحدث عندما كان يغنى..

كان يقول عندما يسألونه: إننى فعلا لا أعرف ما يصيبنى ويصيب الناس عندما أغنى.. لا أرى ماذا يحدث وكيف يحدث ولماذا يحدث؟ كان يخطو إلى المسرح وكل شىء يبدو فيه عاديا مثله.. مثل أى شاب آخر.. وقفته.. نظراته.. ابتسامته، ولكن ما إن يدخل فى لحظات الانجسام حتى يبدو كأنه تحول إلى شخص آخر.. كأنه انفصل تماما عن العالم الذى كان فيه.. كأنه دكتور جيكل ومستر هايد.. كان يحتضن قيثارته كأنه يضم أغلى حبيبة.. وكان يقبض بيده على المذياع فيستشعر المشاهد تأوهات هذا المذياع بين قبضة يده.. ثم كما لو كان قد مسه تيار كهربائى يأخذ فى الانتفاض وتحريك جسمه بطريقة غير مسبوقة.

ولم تعجب طريقته الكبار الذين اتهموه بإفساد أخلاق الشباب وإثارة غرائزهم بموسيقاه المبتذلة، وحركات جسمه الحيوانية.

وعاداه رجال الدين وطالبوا بوقفه عن الغناء، وظل هذا العداء فترة إلى أن تأكد فيها أنه لا يقوم عامدا بتحريك جسمه جلبا للإثارة، وإنما كان على حد وصفه حالة خاصة.. حالة ينجذب إليها دون أن يقصد تعمد الإثارة الجنسية أو تجميل الخطيئة.

وفى كل يوم يمر كان يكسب المزيد من الشباب الذين أقبلوا على أغانيه وموسيقاه واسطواناته وحفلاته بصورة غير مسبوقة.

وأطلقوا عليه اسم «الملك» فى دولة لم تعرف ولن تعرف الملكية أصبح معروفا فى الولايات المتحدة أن هناك رئيسا فى البيت الأبيض وملكا فى ولاية مسيسبى اسمه إلفيس بريسلى.

: الملك جاء.. الملك ذهب.. الملك غنى.. الملك لبس.. الملك خلع.. وأصبح كل ما يمارسه الملك موضة.. ظهرت تسريحة بريسلى.. وأحمر شفاه بريسلى.. وبنطلونات جينز بريسلى.. وبلوزات بريسلى..

كان نجاحه سريعا ومذهلا، ليس فقط فى داخل بلده وإنما خارجها أيضا.. فقد كان نغمة جديدة مختلفة على آذان شباب العالم فبايعوه ملكا.. وكان طبيعيا أن تلتقطه صناعة السينما وأن تستغل شهرته لتصنع له الأفلام التى صدرتها إلى أنحاء العالم، وأضافت له رصيدا جديدا من الشهرة والأتباع.

وعرفت الملايين طريقها إلى إلفيس، لكنه لم ينس وعده لأبويه.. فخصص مكاسبه الأولى لإقامة بيت جديد نقل إليه أبويه اللذين أراد أن يكونا أسعد الناس، وعلى أساس أن يكون هذا البيت هو الخطوة الأولى للقصر الكبير الذى يريد أن يبنيه لهما.

وفى ديسمبر ١٩٥٨ دعى إلفيس إلى الخدمة العسكرية فلبى الدعوة بلا تردد، وأصبحت صورته بالملابس العسكرية خير دعاية للخدمة العسكرية فى الولايات المتحدة، بل أصبح أمل كل شاب أن يستدعى إلى الخدمة ليكون مثل إلفيس أو زميل إلفيس!

ثم كان الحدث الأكبر الذى هز إلفيس هزا شديدا.. وهو فقده هذه الأم التى كانت سبب شهرته ومجده بسبب رغبته فى إهدائها اسطوانة يغنيها لها فى عيد الأم.. ففجأة وبغير مقدمات أصيبت الأم بنوبة قلبية لم تمهلها غير بضع ساعات.. ثم ماتت وهو لم يبلغ بعد الرابعة والعشرين وأمه فى السادسة والأربعين.

وكما وصف الذين شهدوا المشهد فقد ألقى إلفيس بنفسه على جسد أمه، وأخذ يحتضنها وهو يبكى بكاء شديدا استغربه كل الذين كانوا فى المستشفى، وتحول المشهد إلى محاولة من إلفيس للتشبث بأمه الميتة، ومحاولة من أعضاء هيئة التمريض لتحرير جسد المرأة المتوفاة من قبضة يديه وانتزاعه من سريرها.

ومنذ تلك اللحظة أصبح الملك إنسانا آخر..

وكانت صدمته الكبرى عندما رأى أباه يتزوج امرأة أخرى بعد نحو سنة من وفاة أمه.. ولم يستطع إلفيس أن يفعل شيئ سوى رجاء أبيه ألا يقيم مع زوجته الجديدة فى البيت الذى أقامه لأمه، وكان يعده ليكون بعد ذلك قصر الأحلام لهذه الأم..

لقد تغير الملك..

وشاع حزنه على أمه.. وعرف الناس حبه العظيم ووفاءه لها.. وتغيرت صورته فى عيون الكبار الذين كرهوه.. لقد تصوروا أنه فاسد منحل بلا أخلاق.. ولكنهم عندما عرفوا حكاياته مع أمه احترموه وأحبوه..

وأرادت قيادته فى الخدمة العسكرية أن تخفف أحزانه فنقلوه للعمل فى ألمانيا، بعيدا عن مواقع ذكرياته مع الأم التى فقدها..

وفى ألمانيا التقى إلفيس بالفتاة التى أحبها وتزوجها: بريسيلا.. وكانت ابنة رئيسه فى الجيش.. كانت فى الرابعة عشرة فى ذلك الوقت من عام ١٩٥٩ فأحبها وأقام علاقة معها توجها بالزواج منها فى عام ١٩٦٧ بعد أن بلغت الحادية والعشرين وكان هو فى الثالثة والثلاثين..

وكان من الممكن أن يصبح هذا الزواج من أسعد الزيجات، خاصة بعد إنجاب الابنة ليزا.. ولكن مثلما يحدث لكثير من الفنانين بدأ إلفيس، مع استمرار تصاعد الشهرة التى وصل إليها، يندمج فى شلة الأصدقاء الجدد ويغيب عن منزله.. وكان يدهشه عندما تسأله بريسيلا زوجته عن سبب هذا الغياب.. كان يعتقد أنه مادام قد وفر لها كل ما تطلبه من مجوهرات وأزياء فقد حقق واجبه..

وفى ذات يوم نصح إلفيس زوجته عندما شكت إليه من الملل الذى تعانيه، أن تدبر أمرها وتعثر على ما تشغل به نفسها.. وسمعت الزوجة نصيحة زوجها واتجهت إلى تعلم الكاراتيه.. ووصل اندماجها فى هوايتها الجديدة إلى عدم الاكتفاء بحب اللعبة وحدها، بل وأيضا مدربها الذى استثمر فرصة الفراغ الذى تعانيه امرأة صغيرة السن وتوافرت لها كل المطالب المادية.

ولم تخف بريسيلا على زوجها حبها الجديد طالبة منه الطلاق.. وفى سبتمبر ١٩٧٣ تم الطلاق بالفعل.. تخلت الشابة بريسيلا عن الملك.. عن الشاب الذى تعشقه النساء وتعبده الفتيات ويحلمن به.

وكان الغريب أن تبدأ أعراض المرض على إلفيس بعد أسابيع قليلة من طلاقه، وربما جرحه مطلب طلاق زوجته بصورة أكثر كثيرا من حسابات الآخرين.. فقد كان إلفيس فنانا، وحساسا، ولعله تصور أنه الملك فعلا، وأنه ليس من حق الزوجة التى ارتبط بها أن تطلب هى طلاقها منه.. فهو إذا أشار بيده لوجد آلاف النساء رهن إشارته، فكيف لهذه المرأة التى يحسدها كل نساء العالم، ليس فقط أن ترفضه بل وأن تحب بدلا منه مدربا رياضيا!!

فى البداية بدأ يعانى آثار ارتفاع ضغط الدم.. وأمكن التغلب على المشكلة بالأقراص.

ثم كانت الظاهرة الثانية تفتح شهيته للطعام، وهذه واجهها بريسلى بتلبية شهيته، وتناول الطعام بنهم غريب أثر تأثيرا واضحا على وزنه وعلى رشاقته.. ونتيجة لذلك دخل فى دوامة جديدة، جزء منها صحى والآخر نفسى.. واضطر لمواجهة ذلك إلى الدخول فى طريق الأقراص والأدوية والمهدئات والمنومات والمنشطات.. كان يتناول اقراصا لينام، وأقراصا ليصحو، وأقراصا ليغنى ويمارس نشاطه، وأقراصا ليستريح، وأقراصا ليبتسم.. وحقنا ليطرد النعاس ويسكت الألم. وأثر ذلك أكثر على حالته الصحية ومعها النفسية.. وبدأ يشعر بأن هناك مؤامرة على حياته فأخذ يقبل على شراء المسدسات الغالية ويتدرب على استخدامها

وفى خلال ذلك كسب إلفيس ملايين كثيرة.. فقد مثل ٦٠ فيلما، وباعت اسطواناته أكثر من ٥٠٠ مليون اسطوانة وحصل على ٤٥ اسطوانة ذهبية وهى اسطوانات من الذهب يقدمها المنتجون للمطربين عندما تبيع أغنية لهم مليون اسطوانة.

ولم تنخفض شعبية إلفيس بل ظل الملك الذى بلغ هوس الفتيات به حدا يفوق الخيال.. فكن يقبلن الأرض التى يسير عليها ويصبغن سيارته بأحمر شفاههن ويلقين أنفسهن أمام سيارته أيا كانت سرعتها..!

وعندما طرح سؤال على ملايين الفتيات الأمريكيات والأوروبيات عن العمل الذى يفضلنه. كانت إجابة هذه الملايين: العمل سكرتيرة خاصة لإلفيس بريسلى!

وفى حياته بعد الطلاق عرف إلفيس عددا من النساء لكنه لم يتزوج مرة ثانية.. ورغم ما قيل عن الحبوب المختلفة والمخدرات التى أدمنها إلا نه لم يشرب الخمر أو يدخن.

وفى الفترة بين فبراير ويونيو ١٩٧٧ أقام آخر حفلاته وكانت رائعة كالمعتاد.. كان ملك الروك أند رول رغم بدانته قادرا على إمتاع الملايين وإثارة هوسهم وإصابتهم بالجنون رغم ضعف ذاكرته وانخفاض إمكاناته.

وفى يوم ١٦ أغسطس ١٩٧٧ أصابت ملايين الفتيات اللاتى كن يصرخن وتصيبهن حالة غريبة من الهوس عند الاستماع إلى أغانيه حالة أخرى من الهوس والصراخ.. ففى هذا اليوم أعلن عن موت الملك.

مات وهو فى الثانية والأربعين فقط من عمره.

وقال التقرير الطبى الذى صدر عن موته إن السبب أزمة قلبية.. نفس الأزمة التى قتلت أمه من قبل وهى فى السادسة والأربعين.. ولكن الكثيرين لم يصدقوا حكاية الأزمة القلبية بسبب ما اشتهر عن المخدرات التى كان يتعاطاها إلفيس.. وبصرف النظر فإنه مات.

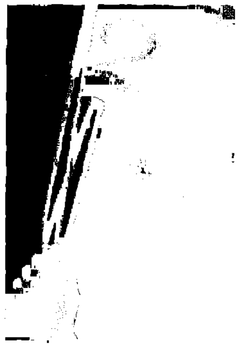
ورغم ذلك لم تنته الأسطورة التى غيرت شباب القرن العشرين.. فحتى اليوم مازال منزله مزارا يزوره سنويا أكثر من مليون زائر يدفعون ثمنا لهذه الزيارة نحو ٧ ملايين دولار (ثمن التذكرة ٦,٥ دولار) كما أن طائرته الخاصة تكلف رؤيتها ٣,٥ دولار وتحقق دخلا قدره ٥ ملايين دولار سنويا.

أما أغانيه فمازالت ترددها الملايين لقد امتدت حياته الفنية ٢٠ سنة فقط، قدم خلالها ٦٥٩ أغنية، ومثل ٦٠ فيلما وحصل على ٤٥ أسطوانة ذهبية، وعلى أنغامه رقص الملايين وقفزوا وتنططوا وأصبحوا لا يشعرون بالمتعة إلا إذا مارسوا هذا القفز والتنطيط.. ومن جلبابه خرج كثيرون قلدوه فى السرعة والرقص أثناء الغناء.. وكان لبعضهم شخصيته المختلفة، لكن الجميع كانوا من خريجى مدرسته المدرسة التى أثرت فى شباب القرن العشرين كما لم تؤثر مدرسة أخرى!

■ زيارة إلى سنوات بريسلي

- ١٩٣٥ : المولد فى ٨ يناير.
- ١٩٥٣ : العمل من أجل تعويض إصابة والده. عمل كهربائيا وسمكريا ثم سائقا على شاحنة.
- ١٩٥٤ : دفع أربعة دولارات ليسجل أغنية على شريط يهديه لأمه بمناسبة عيد الأم.
- ٧ يوليو ١٩٥٤ : أذيعت أول أغنية لإلفيس.
- ١٢ يوليو ١٩٥٤: وقع إلفيس عقدا لإنتاج الأغانى بعد أن راجت اسطوانته الأولى رواجا شديدا.
- ١٩٥٨ : تجنيده ووفاة أمه التى كان يعبدها.
- ١٩٥٩ : نقله للخدمة فى ألمانيا فى لواء المصفحات الثالث بمدينة فرايدبورج.
- ١٩٦٧ : زواجه من بريسيلا.
- ١٩٧٣ : طلاقه ومرضه.
- ١٩٧٧ : ١٦ أغسطس : وفاته.





الفصل الثالث

القرن العشرون
أهم المخترعات

لم يحدث أن شهد قرن من القرون كمية المخترعات التى شهدها القرن العشرون، والتى شملت كل المجالات. وهذه بعض اختراعات هذا القرن :

☐ سنة ١٩٠٠

- الألمانى هوفمان يكتشف تركيبة الأسبرين، أشد دواء عرفه العالم.
- إطلاق أول منطاد مسير يحمل اسم «زيبلن» من اختراع الكونت زيبلن.
- افتتاح أول خط مترو فى العالم فى باريس.
- ماركونى الإيطالى يبعث أول رسائل لاسلكية عبر المحيط الأطلسى.
- الأمريكى فيشر يخترع أول غسالة كهربائية.
- الأمريكى كينج جيليت يبتكر شفرة حلاقة ترمى بعد استعمالها.

☐ ١٩٠٢

- بناء أول ناطحة سحاب فى نيويورك.
- الألمانى فيشر يخترع حبوب مهدئة للأعصاب.

☐ ١٩٠٣

- الأمريكى بيدلر يخترع آلة تصوير المستندات.
- أول طائرة من اختراع الأخوين رايت.
- الفرنسى بينيديكتوس يخترع نوعا جديدا من الزجاج يتفتت لدى تلقيه صدمة ويطلق عليه «سيكوريت».

☐ ١٩٠٥

- ألبرت أينشتاين يخترع نظرية النسبية العامة المحدودة.

□ ١٩٠٦

- الأمريكى باكتون يعرض أول رسوم متحركة.
- اختراع أول رسالة استغاثة SOS.
- الاسكتلندى ج. ديوار يخترع زجاجة الترموس.

□ ١٩٠٧

- الأمريكى كريل ينجح فى أول عملية نقل دم.

□ ١٩٠٨

- هنرى فارمان وليون دولاجرانج يطيران فى أول رحلة جوية لركاب على متن طائرة ذات سطحين.
- إنتاج أول سيارة «فورد» من نوع «موديل تى» تم تصنيعها فى مصانع شركة فورد فى ديترويت بأمريكا.

□ ١٩٠٩

- أول عرض لفيلم سينمائى بالألوان فى مدينة برايتون البريطانية.
- الفرنسى لوى بليريو يحقق أول عبور بالطائرة فوق بحر المانش.

□ ١٩١٠

- الفرنسى ج. كلود يخترع مصباح النيون.

□ ١٩١١

- الأمريكى و. كاريير يخترع تكييف الهواء.

□ ١٩١٢

ـ الألمانى فيشر يخترع فيلم التصوير الفوتوجرافى الملون.

ـ الأمريكى فكتور هيس يكتشف الإشعاع الكونى.

□ ١٩١٣

ـ اكتشاف أول فيتامين يعرفه العالم، وهو فيتامين (أ)، بواسطة الأمريكيين إيلمير ماكولوم وتوماس أوزيورن.

ـ أول مكالمة دولية تجرى بين نيويورك وبرلين يوم ١/١٥ .

ـ تصنيع أول ثلاجة منزلية من نوع «دوميلر» فى شيكاجو.

ـ مجلة «نيويورك وورلد» تنشر أول شبكة للكلمات المتقاطعة فى عدد ١٢/٢١ .

□ ١٩١٤

ـ البريطانى أرشيبالد لو يعرض آلة تسمح بنقل الصور عن بعد.

ـ البريطانى سوينتون يخترع الدبابة القتالية.

ـ تشغيل أول إشارة ضوئية فى الشوارع فى كليفلاند بالولايات المتحدة يوم ٨/٥.

□ ١٩١٥

ـ الإيطالى فيلا بيروزا يخترع البندقية الرشاشة.

□ ١٩١٧

ـ الألمانى كالومس يخترع السينما الملونة.

ـ الأمريكى شيك يخترع آلة الحلاقة الكهربائية ذات الشفرة المتحركة.

□ ١٩١٩

- أول رحلة جوية تجارية بين باريس ولندن يوم ٢/٨.

□ ١٩٢٠

- الأمريكى صمويل واترز يبتكر صوت الاستريو.
- اختراع حمالات الصدر للنساء (السوتيان).

□ ١٩٢١

- الفرنسيان ألبير كالميت وكاميل جيران يصنعان لقاحا لمرض السل.
- اكتشاف هرمون الإنسولين فى البنكرياس.

□ ١٩٢٢

- إنشاء أول طريق سريع فى أوروبا فى شمال إيطاليا.
- اكتشاف أول آلات سمعية للصم فى بريطانيا.
- أول حاملة طائرات أنتجتها بريطانيا.

□ ١٩٢٣

- الفرنسى لوبريو يخترع أول سترة غواص.

□ ١٩٢٧

- عرض أول فيلم سينمائى ناطق فى الولايات المتحدة.
- الألمانى بوير يخترع مادة البلاستيك المقوى.

□ ١٩٢٨

ـ البريطانى ألكسندر فليمنج يكتشف البنسلين.

□ ١٩٢٩

ـ أول حفل لتوزيع جوائز الأوسكار فى هوليود يوم ٥/١٦ .

□ ١٩٣٠

ـ الطيـاران الفرنسـيان كـوست وبيلونت يقـومـان بأولة رحلة جوية من دون توقف بين باريس ونيويورك فى ١و١٢/٢ .

ـ أطباء فرنسيون يكتشفون علاجا لمرض النوم.

ـ نيلر ـ من جنوب إفريقيا ـ يكتشف لقاح الحمى الصفراء.

ـ فى ألمانيا اختراع فلاش ماكينة التصوير.

ـ إيلين تشورتش، أول مضيفة طيران فى رحلة سان فرانسسكو ـ شيكاجو يوم ٥/١٥ .

ـ بدء تصنيع الأطعمة المثلجة فى الولايات المتحدة.

□ ١٩٣١

ـ البريطانى إرنست راذرفورد يكتشف النواة الذرية.

ـ أول عملية خطف لطائرة فى العالم تتم فى بيرو.

□ ١٩٣٢

ـ الإيطالى ماركونى يخترع جهاز إرسال لاسلكى بموجات قصيرة.

ـ الألمانيان كفول وروسكا يخترعان المجهر الألكترونى.

□ ١٩٣٣

ـ السويسرى مولر يخترع مادة الـ د.د.تى.

□ ١٩٣٤

ـ الفرنسيان إيرين وفريدريك جوليو ـ كورى يكتشفان النشاط الإشعاعى، وينالان جائزة نوبل للكيمياء.

□ ١٩٣٥

ـ الأمريكى ويندل ميريديث ستانلى يعزل لأول مرة فيروسا وهو فيروس السرنج الذى يصيب أوراق التبغ.

ـ لوى لوميير يعرض فيلما ثلاثى الأبعاد فى ١/٢٥.

□ ١٩٣٦

ـ الأمريكى كيندال يكتشف مادة الكورتيزون.

□ ١٩٣٨

ـ الألمانيان أوتوهان وفردريش ستراسمان يكتشفان انشطار اليورانيوم النووى.

ـ الإيطالى كياسيرينى يبتكر طريقة تدليك القلب عند إصابة الإنسان بأزمة.

□ ١٩٣٩

ـ أول رحلة لطائرة نفاثة فى ألمانيا سرعتها ٧٥٠ كم فى الساعة.

ـ صنع السيارة ذات النقل الأوتوماتيكى بين السرعات فى الولايات المتحدة.

□ ١٩٤٠

- أول سيارة جيب تصنعها الشركة الأمريكية «ويليس».
- ألمانيا تخترع أول صاروخ جو - أرض.
- اختراع اللغم الأرضى فى ألمانيا.

□ ١٩٤١

- البريطانى فريدريك ستانلى يكتشف مادة السيليكون.
- الشركة الألمانية «هينكل» تخترع المقعد الذى يندفع أتوماتيكيا خارج الطائرة.

□ ١٩٤٢

- أول إطلاق لصاروخ الـ (فى ٢) من تصميم الألمانى فون براون فى ٦/١٣.
- اختراع مادة النابالم الشديدة الاشتعال فى الولايات المتحدة.

□ ١٩٤٣

- الهولندى كولف يخترع الكلية الاصطناعية.

□ ١٩٤٤

- الأمريكى إيكين يصنع أول جهاز كومبيوتر.
- السوفيتى زافويزيكى يكتشف التردد المغناطيسى النووى.
- استعمال المضادات الحيوية فى المجال الطبى.

□ ١٩٤٥

- الأمريكى ب. لوبارون يخترع فرن المايكروويف.

□ ١٩٤٦

ـ تصنيع دراجة الفيسبا النارية فى إيطاليا

□ ١٩٤٧

ـ تشغيل أول بطارية تعمل بالطاقة الذرية فى بريطانيا .

ـ جون باردين ووالتر براتين ووليام شوكرى يخترعون جهاز الترانزيستور.

ـ الأمريكى ك. تيوهى يخترع العدسات اللاصقة من مادة بلاستيكية.

ـ جان برنار ومارسيل بيسيس ينجحان للمرة الأولى فى شفاء مرض اللوكيميا (سرطان الدم).

□ ١٩٤٨

ـ السويسرى أوجست بيكار يصنع أول غواصة للأعماق.

□ ١٩٤٩

ـ المقاتلة الأمريكية بى ـ ٥٠ لاكى لايدى تقوم بأول رحلة حول العالم دون توقف.

□ ١٩٥٠

ـ الأمريكى ر. شيلور يخترع بطاقة الائتمان.

ـ أول عملية لزرع كلية فى ٦/١٧، وقد عاشت المريضة روث توكر خمس سنوات بعد عملية الزرع.

□ ١٩٥١

ـ بدء استعمال التليفزيون الملون فى الولايات المتحدة.

ـ اكتشاف مادة الكورتيزون الاصطناعية فى الولايات المتحدة.

□ ١٩٥٢

- تفجير أول قنبلة هيدروجينية من صنع الولايات المتحدة فى جزر مارشال.
- شركة «آى. بى. إم.» تصنع أول جهاز كومبيوتر ٧٠١.
- الأمريكيان شارداك وكريباخ يخترعان جهاز منظم ضربات القلب (البيسميكر).

□ ١٩٥٣

- شركة سيب الفرنسية تخترع حلة الطهو السريع (بريستو).
- الأمريكى جون جيبون يقوم بأول عملية قلب مفتوح.
- عرض أول فيلم سينما سكوب (فيلم الرداء).

□ ١٩٥٤

- الفرنسى بيار ليبين والأمريكى جوناس سولك يكتشفان - كل على حدة - اللقاح ضد شلل الأطفال.
- إطلاق أول غواصة تعمل بالطاقة الذرية «الغواصة نوتيلوس».
- الأمريكيان سالك ويابين والفرنسى لوبين يكتشفون لقاح مرض الحصبة.
- الأمريكيون بينكورس وروك وتشانج يخترعون حبوب منع الحمل.
- شركة «بل» الأمريكية للتليفونات تخترع البطارية الشمسية.

□ ١٩٥٥

- الأمريكى ليسكل يخترع الصورة الضوئية.

□ ١٩٥٧

- الاتحاد السوفيتى يطلق «سبوتنيك - ١» أول قمر صناعى.
- الكلبة الروسية «لايكا» - أول حيوان يرسل إلى الفضاء فى ١١/٣.

- أول عملية زرع ناجحة لنخاع شوكى يقوم بها الفرنسى جورج ماتيه.

☐ ١٩٥٨

- الشركة الأمريكية أمبيكس تقدم أول جهاز فيديو بالألوان.

☐ ١٩٥٩

- الإسرائيلى أوبنهايمر واليابانى ايشيهانا يكتشفان اللولب المانع للحمل.

☐ ١٩٦١

- السوفيتى يورى جاجارين أول إنسان يسافر إلى الفضاء، ويدور حول الأرض فى داخل السفينة الفضائية «فوستوك».
- وضع أول قمر صناعى للاتصالات فى مدار ثابت واسمه «سينكوم أ» من إنتاج الولايات المتحدة.
- الإيطالى بيتروتش ينجح فى إبقاء جنين بشرى على قيد الحياة فى أنبوبة طوال ٢٩ يوما.

☐ ١٩٦٢

- جون جلين أول رائد فضاء أمريكى.

☐ ١٩٦٣

- السوفيتية فالنتينا تيريشكوفا، أول أمرأة فى الفضاء فى ٦/١٩.
- الأمريكى ت ستارزل ينجح فى زرع كبد بشرى، والأمريكى ج.هارلون يقوم بأول عمل زراعة ناجحة لرئة بشرية.
- الأمريكى البولندى الأصل ستير نباخ يكتشف الحبة المسكنة (الفاليوم).

□ ١٩٦٤

ـ اختراع البندقية التى تعمل بشعاع الليزر فى الولايات المتحدة.

ـ التشيكى ويشترل يخترع العدسة اللاصقة.

ـ البريطانية مارى كوانت تصمم «المينى جيب».

□ ١٩٦٥

ـ السوفيتى أليكس ليونيوف يسير فى الفضاء للمرة الأولى فى ٣/١٨.

ـ الأمريكى إدوارد وايت يسير هو الآخر فى الفضاء فى ٦/٣

ـ أول لقاء مدارى بين سفينتين فضائيتين «جيمينى ـ ٦». «وجيمينى ـ ٧» فى ١٢/٤.

□ ١٩٦٦

ـ اكتشاف مادة اسبارتام فى الولايات المتحدة، وحلاوتها ٢٠٠ مرة أكثر من السكر، ولاتحتوى على سعرات حرارية.

□ ١٩٦٧

ـ دكتور كريستيان برنارد فى جنوب إفريقيا يقوم بأول عملية ناجحة لزراعة قلب بشرى فى ١٢/٣.

□ ١٩٦٨

ـ أول رحلة لطائرة نقل أسرع من الصوت وهى الطائرة السوفيتية «توبوليف ـ ١٤٤».

ـ البريطانيان هونسفيلد وامبروز يخترعان آلة «الماسح الضوئى» (سكانر).

□ ١٩٦٩

ـ الأمريكى نيل آرمسترونج، أول رجل يخطو فوق سطح القمر فى ٧/٢٠.

ـ أول رحلة لطائرة كونكورد رقم واحد التى تخترق جدار الصوت فى ١٠/١

ـ شركة لونجين السويسرية وسايكو اليابانية تسوقان أولى ساعات الكوارتز فى أغسطس

□ ١٩٧٠

ـ اختراع أشرطة الفيديو فى الولايات المتحدة.

□ ١٩٧١

ـ الأمريكى داماديان يستعمل الرنين المغناطيسى النووى لفحص الجسم البشرى للكشف عن الأورام.

□ ١٩٧٢

ـ الهولندى فيليبس يخترع أول فيديو بقرص ديسك.

□ ١٩٧٣

ـ ابتكار آلة تصوير المستندات بالألوان فى كندا.

ـ بدء عصر الهندسة الوراثية مع ابتكار الأمريكيين كوهين وبويير طريقة تمكن من إدخال جينات غريبة إلى بكتيريا.

□ ١٩٧٤

ـ الانتهاء من بناء أعلى مبنى فى العالم «برج سبيرز»، فى شيكاجو، بارتفاع ٤٤٣ مترا ـ ١١٠ طوابق ـ ١٠٢ مصاعد ـ ١٦ ألف نافذة.

ـ الفرنسى رولان مورينو يخترع بطاقات الائتمان ذات الذاكرة.

□ ١٩٧٦

ـ ستيج جوبز وستيف وزنياك يصنعان أول جهاز كمبيوتر شخصى من طراز (آبل).

□ ١٩٧٧

- الشركة اليابانية أولمبوس تخترع منظارا يعمل بالألياف البصرية، مما يسمح بكشف الأورام في الأمعاء.

□ ١٩٧٨

- ولادة أول طفلة أنابيب، وهى الطفلة لويز براون، بفضل جهود البريطانيين روجرز إدواردز وباتريك ستيبتو.

□ ١٩٧٩

- شركتا «فيليبس» و «سونى» تصلان إلى اختراع القرص المضغوط، (سى. دى.).
- باحثون بريطانيون يكتشفون لقاحا مضادا للزكام.

□ ١٩٨٠

- ظهور مرض الإيدز (نقص المناعة المكتسب) المجهول المصدر.

□ ١٩٨٤

- الكولومبى باراكير يبتكر عملية تقوم على إحداث شقوق مجهرية فى القرنية لتصحيح قصر البصر.

□ ١٩٨٧

- الفرنسى أ. كابرون وفريقه يتوصلون إلى أول لقاح لمرض البلهارسيا

□ ١٩٨٩

- اليابانى فوجيماسا يبتكر رجلا آليا طوله ملليمتر مجهز بمحرك صغير وقادر على التنقل فى الأوعية الدموية البشرية لمعالجة بعض الجروح.

□ ١٩٩٤

- ثورة الإنترنت.

□ ١٩٩٥

- اختراع أكبر آلة حاسبة بوسعها القيام بمائة مليار عملية حسابية فى الثانية.

□ ١٩٩٦

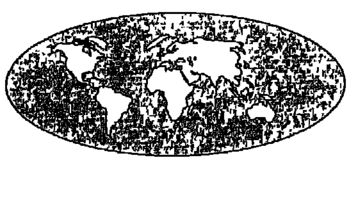
- اكتشاف العلاج الثلاثى المركب لوقف تطور مرض الإيدز.

□ ١٩٩٧

- الإعلان عن مولد النعجة «دوللى» وهى أول نعجة يتم استنساخها من خلية حيوان بالغ. أجريت عملية الاستنساخ فى معهد روزلين فى ادنبره باسكتلندا.

□ ١٩٩٩

- فوز العالم المصرى أحمد زويل بجائزة نوبل عن اختراعه قياس الفيمتو ثانية.



المراجـــع

- ☐ دائرة المعارف البريطانية.
- ☐ الموسوعة العربية الميسرة.
- ☐ القاموس السياسى أحمد عطية الله.
- ☐ موسوعة السياسة
- ☐ الخالدون مائة أعظمهم محمد (ترجمة أنيس منصور).
- ☐ أهم مائة شخصية عالمية فى السبعينيات (ترجمة مدحت عايد فهمى)
- ☐ موسوعة المخترعات.
- ☐ أرشيف مؤسسة «الأهرام» بمساعدة الزميل محمد نور الدين

رقم الايداع
٥٦٩٨ / ٢٠٠٠

مطابع الأهرام التجارية ـ قليوب ـ مصر



الذين غيروا القرن العشرين

لم يعرف التاريخ قرنا شهدت فيه البشرية تغييرات جذرية وأحداثا غيرت طريقها مثلما شهدته في القرن العشرين . ومع أن هذه الحقبة امتلأت بأبشع صور الدمار، فقد زخرت بأعظم ما أنتجه العقل البشرى من مخترعات وفتوحات لتحقيق رفاهية الإنسان وراحته.

وفي هذا الكتاب، يعرض الكاتب الصحفي المرموق صلاح منتصر بأسلوبه الشيق والموثق، أهم الأحداث التي وقعت في هذا القرن، ثم يلقى الضوء على الشخصيات التي كان لها تأثيرها فيما اعتراه من تغيير، ويختتم الكتاب بأبرز المخترعات التي ظهرت خلال المائة عام الماضية.

والكتاب يكفل إطلالة بانورامية على القرن الماضى الذى يؤثر بلا شك على القرن الذى بدأناه توا.

الناشر

• مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

• التوزيع في الداخل والخارج
وكالة الأهرام للتوزيع
شارع الجلاء - القاهرة

• مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر